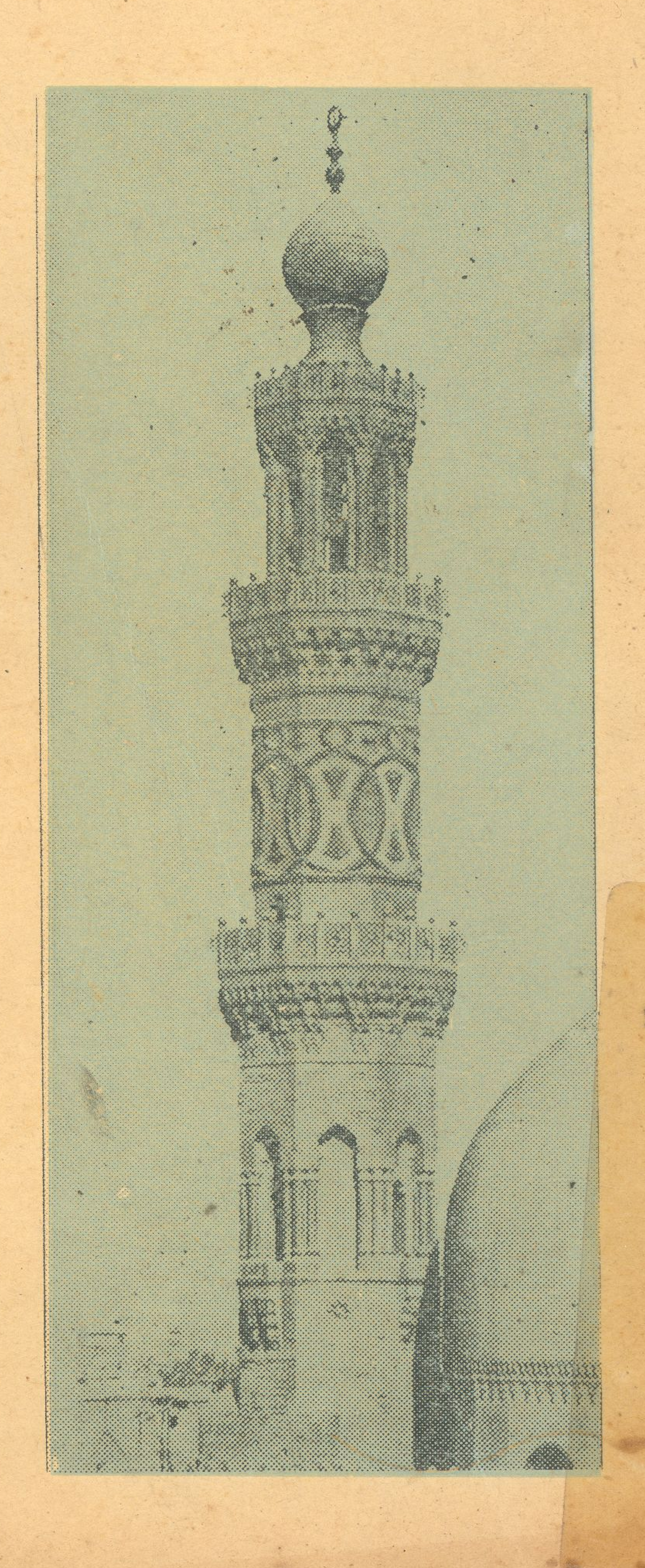
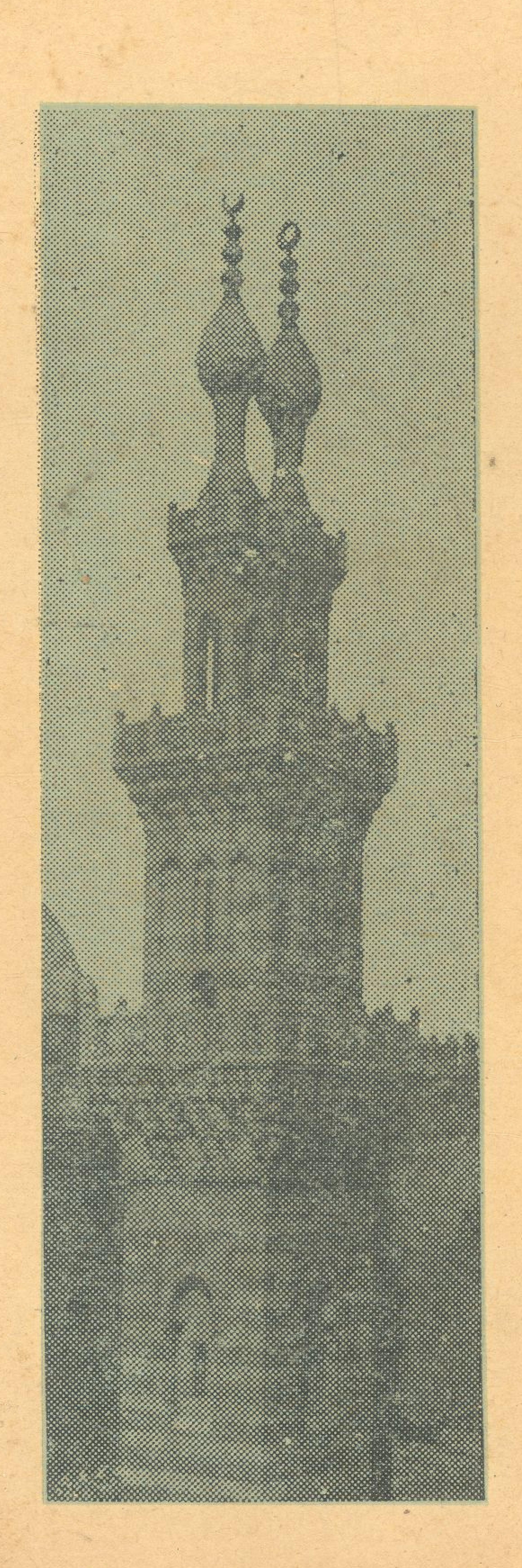
كتاب الشعب
٧٨

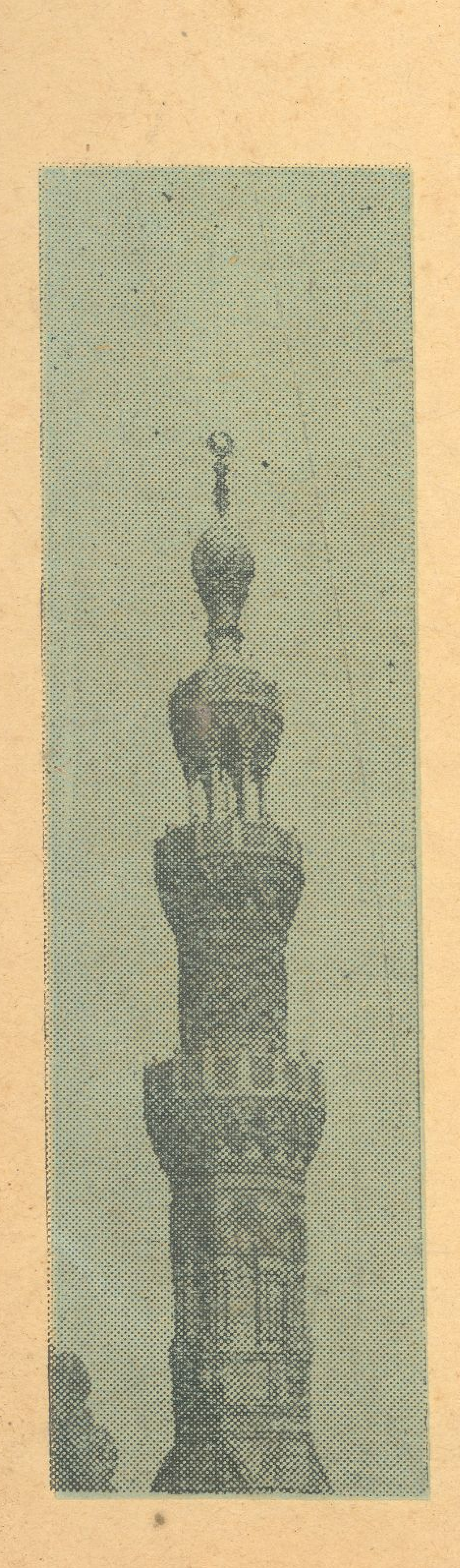
بيوت الله

مساجد ومعاهد

الجزء الثاني









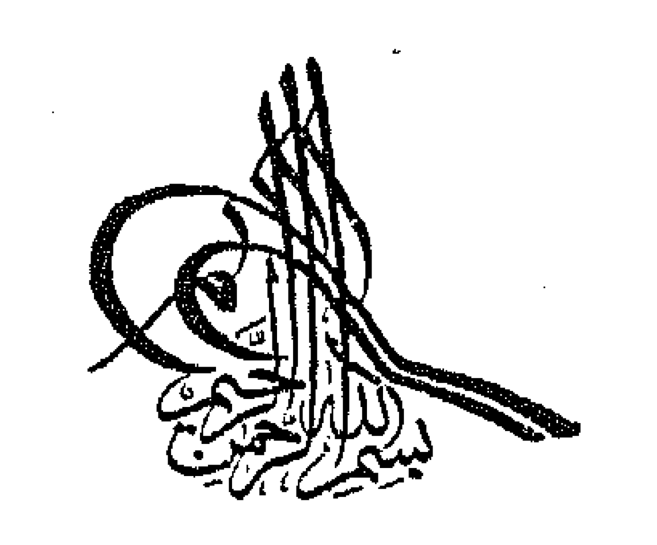
كتاب الشعب
٧٨

بيوت الله

مساجد ومعاهد

الجزء الثاني

مطابع الشعب
١٩٦٠



من المسجد الحرام ...

... إلى المسجد الأقصى

لا يعلم الا الله مدى ما كان يجيش به صدر النبى صلى عليه وسلم ، وهو يهم بأن يغادر مكة ، ويهاجر منها الى المدينة . وكل ما لدينا من اثر يمكن أن نستشف منه لون شعوره واتجاه تفكيره ، هو هذه الكلمة التى أرسلها فى سمع هذا البلد ، وهو غارق فى سبات عميق ، وبصره صلى الله عليه وسلم معلق بالبيت العتيق : « والله انك لأحب أرض الله الى ، وانك لأحب أرض الله الى الله . ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت منك » !

فهذا كلام ينم عن شدة تأثره وتحسره لفراق هذا البلد ، لا لأنه عرفه وألفه ، وأنفق صباه وشبابه فيه ... بل لأنه فوق ذلك ، وقبل ذلك وبعد ذلك ، أحب أرض الله الى الله ولعل مما يؤكد ذلك أن يقسم به الله ، ومحمد نبيه وصفيه يستحل المشركون ايذاءه فيه ، فيقول سبحانه : « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد » .

ثم ان لهذا البلد شأنا آخر أعظم وأفخر ، فقد جعل الله فيه أول بيت وضع لعبادته فى الأرض . وهذا البيت هو المسجد الحرام الذى بزغت منه شمس الاسلام ، ثم اختنقت أشعتها فى سحب الشرك وضباب الافك ، فتحولت عنه الى يثرب لتعود اليه بسناها الغامر الباهر ، فتمزق من حوله السحب ، وتبدد من فوقه ضباب الأوهام ... والأصنام .

وقد ذكر القرآن ذلك وما يتصل بذلك حيث يقول الله فيه : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا . ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » .

فهو على أنه أول معبد ومسجد لله ، حرم آمن لا يفزع فيه أحد ، ولا يروع فى حماه طير ، ولا تنتهك فيه حرمات ... وهو الى ذلك مبارك بكل ما تتسع له كلمة البركة من معان دينية ودنيوية ، وهو مصدر هداية عامة لجميع الناس . ثم هو البيت المحجوج الذى يفد اليه الناس من كل فج « رجالا وعلى كل ضامر » ... « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » .

وقد ولد النبى صلى الله عليه وسلم فى عام ظهرت فيه آية كبرى تقترن بهذا البيت ، وتكشف عن مكانته ومنزلته عند الله ، ونعنى بها قصة أبرهة ابن الصباح الأشرم ... فقد أقبل من اليمن بجيش كبير ليهدم الكعبة ، ويحول أنظار الحجيج الى المعبد الذى بناه بصنعاء . ولكن الفيل الذى أحضره معه لم يطاوعه فى التوجه الى الكعبة : فكان كلما

وجهوه الى الحرم برك ولم يبرح ، واذا وجهوه الى اليمن أو الى غيره من الجهات هرول . ثم أرسل الله عليهم أسرابا من الطير تقذفهم بحجارة صغيرة قاتلة حتى هلكوا ، وضل سعيهم ... وكان ما يحكيه القرآن بقوله : « ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

فاذا اقترن مولد النبى صلى عليه وسلم بهذا العام الذى ظفر فيه العرب بالغنيمة من جيش أبرهة ، والسلامة من الشر الذى كان يراد بهذا البيت ... فلا غرابة فى أن نرى — كما رأى غيرنا — فى ذلك ارهاصا وتوطئة لمبعث محمد « بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » . ولا غرابة كذلك فى أن نجد لفراق هذه الأرض ألما ممضا فى شعور النبى صلى عليه وسلم يعبر عنه بقوله : « والله انك لأحب أرض الله الى ، وانك لأحب أرض الله الى الله . ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت » .

ثم ان هذا البيت بناه ابراهيم واسماعيل عليهما السلام كما يفهم من قوله تعالى : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » ، وابراهيم هو أبو الأنبياء وامام الناس كما يفهم من قوله جل شأنه : « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك للناس اماما » ، ومحمد عليه السلام كان يتبع ملة ابراهيم كما يفهم من قوله تعالى : « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وقد تقبل الله دعاء ابراهيم واسماعيل ، فجعل هذا البيت « مثابة للناس وأمنا » ، وفرض عليهم حجه « من استطاع اليه سبيلا » ، وتقبل دعاءهما وهما يرفعان قواعده ويقولان : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » .

فقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم فى أمة أمية ، لا تقرأ ولا تكتب ولا تحسب ، فكان من فضل الله وآياته أن يتلو عليهم — وهو أمى مثلهم — آياته ، وأن يعلمهم — وهو أمى مثلهم — الكتاب والحكمة ، وأن يجمعهم على الهدى ودين الحق بعد أن مزقتهم الاحن والفتن ، وأصبحوا نهبا موزعا بين الفرس فى الشرق ، والروم فى الغرب ، والحبش فى الجنوب ... فصاروا كما يقول الله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . وهذا ما يفهم من قوله تعالى فى سورة الجمعة : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ومن ثم نرى مكانة هذا البيت ، ورسالة محمد عليه السلام ، كأنهما صنوان يقومان على أصل واحد . ولعل فى هذا ما يلقى مزيدا من الضوء على جوانب من قوله عليه السلام لمكة ، وبصره معلق بالمسجد الحرام : « والله انك لأحب أرض الله الى ، وانك لأحب أرض الله الى الله . ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت منك » .

هذا هو أول مسجد ظهر على الأرض ... سماه الله البيت العتيق ، ودعا الناس الى أن يطوفوا به

فقال : « ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » ، وسماه المسجد الحرام فقال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » ، ونسبه اليه جل شأنه فجعله بيته ، حين قال : « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » ، وسماه حرما آمنا فقال : « أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » ، وقرن به الخير والأمن فقال : « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ... بل جعله قياما للناس يقوم به صلاح دينهم ودنياهم فقال : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس » .

ومن ثم كان تشوفه صلى الله عليه وسلم اليه ، وتأسفه على فراقه وفراق البلد الأمين الذى يقوم فيه ، وتعبيره عن ذلك كله بقوله لمكة : « والله انك لأحب أرض الله الى ، وانك لأحب أرض الله الى الله . ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت منك » .

الى المسجد الأقصى

وهناك مسجد آخر يلى هذا المسجد فى الرتبة ، ويقترن به فى القرآن وفى أذهان المسلمين والعرب كافة حتى الآن ، وهذا المسجد الأقصى الذى يقول الله فيه : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .

هذا المسجد ينسب بناؤه القديم أصلا الى سليمان عليه السلام ، كما ذكر ذلك الأستاذ محمد عبد الرحيم غنيمة فى كتابه تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى . وقد أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم ليلا اليه ، ثم عاد الى قومه يتحدث اليهم فى الصباح بما رأى من آيات ربه الكبرى ، فارتد عن الاسلام بعض ممن آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك الى أبى بكر فقالوا : « هل لك فى صاحبك ... ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة الى بيت المقدس ! » ، فقال رضى الله عنه : « أو قال ذلك ؟ » . قالوا : « نعم » قال : « لئن قال ذلك لقد صدق » . قالوا : « فتصدقه أنه ذهب الليلة الى بيت المقدس ، وجاء قبل أن يصبح ؟ » . قال : « نعم . انى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ... أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة » .. ولهذا سمى أبوبكر الصديق .

ولسنا بصدد عرض تفصيل قصة الاسراء والمعراج وما قيل حولهما ، وانما نشير اليها مجرد اشارة لنلفت النظر الى أهمية هذا المسجد ، وارتسام صورته فى ذهن النبى صلى الله عليه وسلم . فقد اجتمع حوله قومه ، كما يذكر ابن كثير وغيره ، ممن كتبوا فى التفسير والسيرة ، فقال : « انى أسرى بى الليلة » ، فقالوا : « الى أين ؟ » قال : « الى بيت المقدس » ، قالوا : « ثم أصبحت بين ظهرانينا ! ؟ » قال : « نعم » . فأخذتهم الدهشة ، وصاروا بين مصدق وبين واضع يده على رأسه متعجبا...قالوا : « وتستطيع أن تنعت المسجد ؟ » — وكان فيهم من سافر اليه ورآه — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت ، فجىء بالمسجد — وأنا أنظر اليه — حتى وضع دون دار عقيل — أو عقال — فنعته وأنا أنظر اليه فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب فيه » .

هذه لمحة سريعة عن قصة الاسراء . وقد وقعت قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، وفيها ما يشعر بمصير هذا المسجد ومصير

« ايلياء » — وهى مدينة القدس — الى أيدى المسلمين وظل لواء الاسلام . وقد انتزع المسلمون فى عهد عمر هذا المسجد وهذه المدينة من أيدى الروم بعد حصار طويل ، أحكمه عمرو بن العاص حولها حتى يئس المدافعون عنها من النصر ، وكتبوا الى عمر رضى الله عنه برغبتهم فى الصلح على أن يكون هو المتولى لعقده . فحضر عمر رضى الله عنه ، وكتب لهم كتابا نذكر منه ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل « ايلياء » من الأمان ... أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايليا معهم أحد من اليهود ... الخ »

ويذكر المؤرخون أنه ، رضى الله عنه ، شخص بعد ذلك الى بيت المقدس ، وسار حتى دخل كنيسة القيامة . ثم حان وقت الصلاة ، فقال للبطريق : « أريد الصلاة » ، فقال له : « صل موضعك » . فامتنع رضى الله عنه ، وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفردا . ولما قضى صلاته ، قال للبطريق : « لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدى ، وقالوا هنا صلى عمر » .

ثم كتب بألا يجمع على الدرجة للصلاة ، ولا يؤذن عليها ، ثم قال للبطريق : « أرنى موضعا أبنى فيه مسجدا » ، فقال : « على الصخرة التى كلم الله عليها يعقوب » . فذهب اليها فوجد عليها رمادا كثيرا ، فشرع فى ازالته ، وتناوله بيده يرفعه فى ثوبه ، واقتدى به المسلمون كافة حتى أزالوا التراب . ثم أمر ، رضى الله عنه ، ببناء المسجد . وهو لا يزال قائما يعرف باسم مسجد عمر فى المسجد الأقصى . ومن ثم يتبين أن اليهود لم يكن لهم ظل من سلطان فى هذا المكان .

وفى عهد عبد الملك بن مروان أنشئت قبة الصخرة ، وهى آية من آيات الفن الاسلامى الرفيع . ثم أدخلت على المسجد تعديلات وتجديدات عدة فى العصر العباسى . وفى العصر الأيوبى والعصر المملوكى أنشئت بداخله وحوله عدة مدارس ، أكدت صبغته العلمية ، وجعلت منه جامعة اسلامية .

القبلة

وهناك ظاهرة أخرى لابد من الاشارة اليها ، ونحن نتحدث عن المسجد الأقصى ومكانته عند الله وفى قلوب المسلمين ، تلك هى أنه عليه السلام كان يتجه بصلاته فى المدينة نحو هذا المسجد وقد قيل كلام كثير فى تعليل ذلك ، كله صحيح أو محتمل للصحة ... فقد قيل انه عليه السلام أراد أن يتألف اليهود ، ويظهر لهم بواقع عمله أنه لا يعارضهم فيما صح عندهم من أمور شريعتهم .

وقد يكون عليه السلام آثر أن يتجه الى بيت المقدس ، وينصرف عن المسجد الحرام ريثما يتطهر من الأوثان التى تحيط به ، والأصنام التى تجثم فوقه . وقيل كذلك ان ذلك الاتجاه كان توجيها من الله لتحقيق ما كان يجده اليهود فى كتبهم ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم سيصلى الى القبلتين ، كما ذكر فى تفسير قوله تعالى : « وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق » . وقد يكون ذلك — وهو أوضح وأصرح من كل ما قيل — ليحرص المسلمون على بيت المقدس ويضعوه فى المنزلة التالية للمسجد الحرام ، كما يفهم من اسراء النبى

اليه ، واقترانه بالمسجد الحرام فى القرآن ، وفى اتجاه المسلمين اليه فترة من الزمان .

على أى حال . لقد كان عليه السلام على الحق والخير فيما كان منه من قبل ومن بعد ، ولم يكن الاتجاه الى بيت المقدس قبل أن يكمل الله دينه ويتم نعمته ... بل انه صلى الله عليه وسلم لم يكد يمضى على اقامته فى المدينة بضعة عشر شهرا يصلى فيها الى بيت المقدس حتى شعر بالحنين يشده الى المسجد الحرام ، ويجذب قلبه اليه ... فكان اذا انتهى من صلاته رفع بصره الى السماء ، وقلب نظره فيها ، يتشوف ويستشرف ، ويستحضر فى ذهنه وقلبه كل ما أشرنا اليه من اعتبارات تثير شوقه الى بيت الله الحرام ، وترضى نفسه النزاعة اليه ، وتجمع المسلمين حول هذا البيت الذى كان أول بيت وضع للناس فى الأرض ... ومن ثم نزل قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين » .

والمتمعن فى هاتين الآيتين يجدهما تشفان عن كل ما ذكرنا وكررنا فى الحديث عن المسجد الحرام ... بل يجد أكثر مما ذكرنا . وقد روى ابن جريج ، عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى » .

فهل كان عجيبا من محمد عليه السلام أن تجيش نفسه ، وهو يهم بمغادرة مكة ، بهذه الاحساسات والميول والنزعات التى ترجم عنها أو عن بعضها بهذه الكلمة التى أرسلها فى سمع مكة ، وهى غارقة فى سبات عميق ، وبصره معلق بالبيت العتيق : « والله انك لأحب أرض الله الىّ ، وانك لأحب أرض الله الى الله . ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت منك » .

الى مسجد قباء

... ومضى النبى صلى الله عليه وسلم فى طريقه الى الهجرة ، بعد أن ودع مكة بتلك الكلمات التى تقطر عبرات وتخفق زفرات ... ، ومضى معه صاحبه أبو بكر رضى الله عنه ، ومضى معهما دليلهما عبد الله بن أريقط ... ومضت عليهم الليالى والأيام يقطعون المفاوز والسهول ، حتى نزل عليه السلام فى قباء على بنى عمرو بن عوف . فجلس عند كلثوم بن الهدم ، وقام أبو بكر يتلقى الناس الذين قدموا لرؤية رسول الله .

ثم أسس صلى الله عليه وسلم فى هذا المكان أول مسجد بنى فى الاسلام ، وهو مسجد « قباء » الذى يقول الله فيه : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » ، وهو — كما قال الحافظ — أول مسجد بنى فى الاسلام ، وأول مسجد صلى فيه عليه السلام بأصحابه جماعة ظاهرا ، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين عامة .

وروى الترمذى عن أسيد بن ظهير ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الصلاة فى مسجد قباء ركعتين أحب الى من أن آتى بيت المقدس مرتين ... لو يعلمون ما فى قباء لضربوا اليه أكباد الابل » . وأخرج الشيخان عن ابن عمر أنه قال : « كان صلى الله عليه وسلم يزور قباء أو يأتى قباء راكبا أو ماشيا » .

الى مسجد الجمعة

وخرج النبى صلى الله عليه وسلم من قباء ، بعد أن أقام فيها ما أقام ، حين ارتفع النهار من صباح يوم الجمعة ، فأدركته الصلاة فى أرض بنى سالم بن عوف ، فصلى بمن كان معه من المسلمين فى مسجدهم ، وكان يطلق عليه اسم « غبيب » (بضم الغين وفتح الباء وتسكين الياء) ، ثم سمى بعد ذلك مسجد الجمعة . وكان ، كما تذكر كتب السير، مبنيا بحجارة قدر نصف القامة على يمين السالك الى مسجد قباء .

الى المسجد النبوى

وبعد أن انتهت الصلاة ، ركب صلى الله عليه وسلم راحلته ، وأردف خلفه أبا بكر ، ثم اتجه الى المدينة ... فكان كلما مر على دار من دور الأنصار دعوه الى المقام عندهم ، وقالوا : « يارسول الله هلم الى القوة والمنعة » ، ثم يحاولون وقف ناقته فيقول : « خلوا سبيلها فانها مأمورة » .

وكانت هذه الناقة تدعى القصواء ، فلم تزل تسير به حتى بركت فى مربد ، وهو — كما روى البخارى عن عائشة — مكان ، «كالجرن» يجفف فيه التمر ، وكان يملكه يتيمان هما سهل وسهيل ابنا عمرو . ثم ثارت الناقة ، وعليها رسول الله ، ومشت حتى بركت على باب أبى أيوب الأنصارى. ثم ثارت وعادت فبركت فى مبركها الأول ، وألقت جرانها — وهو باطن عنقها — على الأرض ، وأرزمت (صوتت دون أن تفتح فاها) ، فنزل النبى صلى الله عليه وسلم عنها ، وقال : « هذا المنزل ان شاء الله » ، فاستأذنه أبو أيوب الأنصارى وحمل رحله الى بيته . وكان من بنى النجار أخوال عبدالمطلب جد النبى عليه الصلاة والسلام .

هذا المكان الذى بركت فيه الناقة ، أقيم عليه المسجد النبوى الشريف بعد أن اشتراه صلى الله عليه وسلم بعشرة دنانير ، وأبى أن يقبل ما عرضه عليه بنو النجار من أخذه دون ثمن . ويذكر الرواة أن أبا بكر رضى الله عنه دفع هذا الثمن من ماله .

وقد سويت الأرض ، وقطع ما كان فيها من نخل ، ثم أقيم البناء من اللبن — وهو الطوب النيىء — أو من الجريد المطين أولا كما ذكر بعض الرواة ، وجعلت عمده من جذوع النخل ، وسقف بالجريد ، وجعل له ثلاثة أبواب ، وخصص مكان مظلل فيه للمساكين يلجأون اليه ، أطلق عليه اسم الصفة وأطلق على اللاجئين اليه اسم أهل الصفة ... ثم بنيت بيوته صلى الله عليه الى جنب هذا المسجد .

مساجد .. ومعاهد ..

هذه هى المساجد الأولى التى لمعت أسماؤها فى أول عهد العرب بالاسلام . ثم تتابع انشاء المساجد فى كل مكان يرتفع فوقه علم التوحيد ، حتى أصبح من العسير احصاؤها واستقصاؤها .

وقد ذكر السهيلى أن مساجد المدينة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، كانت تسعة سوى مسجده عليه السلام ، منها : مسجد راتج ، ومسجد بنى عبد الأشهل ، ومسجد بنى عمرو بن مبذول .

واذا كان المسجد النبوى آخر ما تحدثنا عنه ، فانه — من حيث صفته العلمية — أول معهد علمى أنشىء فى الاسلام . وقد أدخل على هذا المسجد ما أدخل من تجديدات وتوسعة حتى صار تحفة فنية رائعة . ولكن العالم كله مدين له — وهو من الطوب والجريد وجذوع النخل — بما وصل اليه من حضارة فكرية ومبادىء انسانية ..

بل ان البشرية فى مختلف أطوارها وأدوارها لم تعرف أجمل ولا أمثل من الرسالة الاسلامية التى حمل لواءها محمد عليه السلام ، وحمل العرب أمانة الدعوة اليها فى كل البقاع والأصقاع ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

كانت حلقات الدرس تعقد فى هذا المسجد ، فيقبل عليها الرجال والنساء . ثم شكا النساء من مزاحمة الرجال فطلبن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهن يوما غير يوم الرجال ، فأجابهن الى ما طلبن . وبهذه الدروس التى كان يلقيها أستاذ البشرية ورسول الرحمة الى الانسانية ، كما يقول الله : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ، صنع صلى الله عليه وسلم ممن كانوا يأخذون عنه ، ويتلقون منه ، كواكب تتألق فى سماء هذه الدنيا بالعلم والحكمة والخلق العالى الرفيع .

وكان المحور الذى تقوم عليه رسالته ودعوته ، هو هذا الكتاب الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ، ثم بيانه لهذا الكتاب بما كان يفعله أو يلقيه أو يقره ... ثم كان التراث الفكرى الذى لم تظفر بمثله أمة من الأمم ، هو ثمرات يانعة لدراسة الكتاب والسنة وكان مجد هذه الأمة الذى قام على العلم والخلق والأدب والقوة والعدل والاخاء ، هو التفسير العملى لقوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله دو الفضل العظيم » .

وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر قوله صلى الله عليه وسلم : « من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ، ووضعه فى غير منزلته التى وضعه الله بها حيث يقول : وما أوتيتم من العلم الا قليلا ... » . وأن نذكر قول ابن شهاب ، شيخ مالك ابن أنس : « جمعنا العلم من رجال فى هذه الروضة » ، ويعنى بها مابين قبره صلى الله عليه وسلم ومنبره . وناهيك بمالك صاحب الموطأ والمدونة ، وامام المذهب الذى اقتبست منه فرنسا كثيرا من قوانينها ... بل حسبنا أن نذكر قوله تعالى فى محمد والذين معه : « ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملو الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

وكان مسجده صلى الله عليه وسلم جامعة يلتقى فيها الناس من جميع الأجناس والقوميات ... فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وكثيرون غيرهم من قريش ، وأبو ذر من تهامة من قبيلة غفار ، وأبو هريرة من أوس احدى قبائل اليمن ، وأبو موسى الأشعرى من قبيلة أخرى من اليمن ، وضماد بن ثعلبه من قحطان من قبيلة الأزد ، وخباب بن الأرت أخو بنى تميم ، ومنقذ ابن حبان بن عائذ من البحرين ، وفردة بن معاذ من الشام ، وبلال من الحبشة ، وصهيب من الروم ، وسلمان من فارس ، وفيروز الديلمى .

وهكذا ، كما تقول الدكتور محمد يوسف موسى فى كتابه العظيم « الاسلام وحاجة الانسانية اليه » : « نرى المدرسة المحمدية مفتحة للواردين اليها من كل أمة ، ومن شتى طوائف البشر . وبعد هذا وذاك كله كان خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلى الله وسلم عليهم جميعا ، بشخصه الكريم العظيم ،

وبما جمع الله له من نبيل الخلائق والسجايا ، مثلا أعلى لكل ما تفرق فى اخوانه الأنبياء من المثل العليا للخير والحق » .

عود على بدء

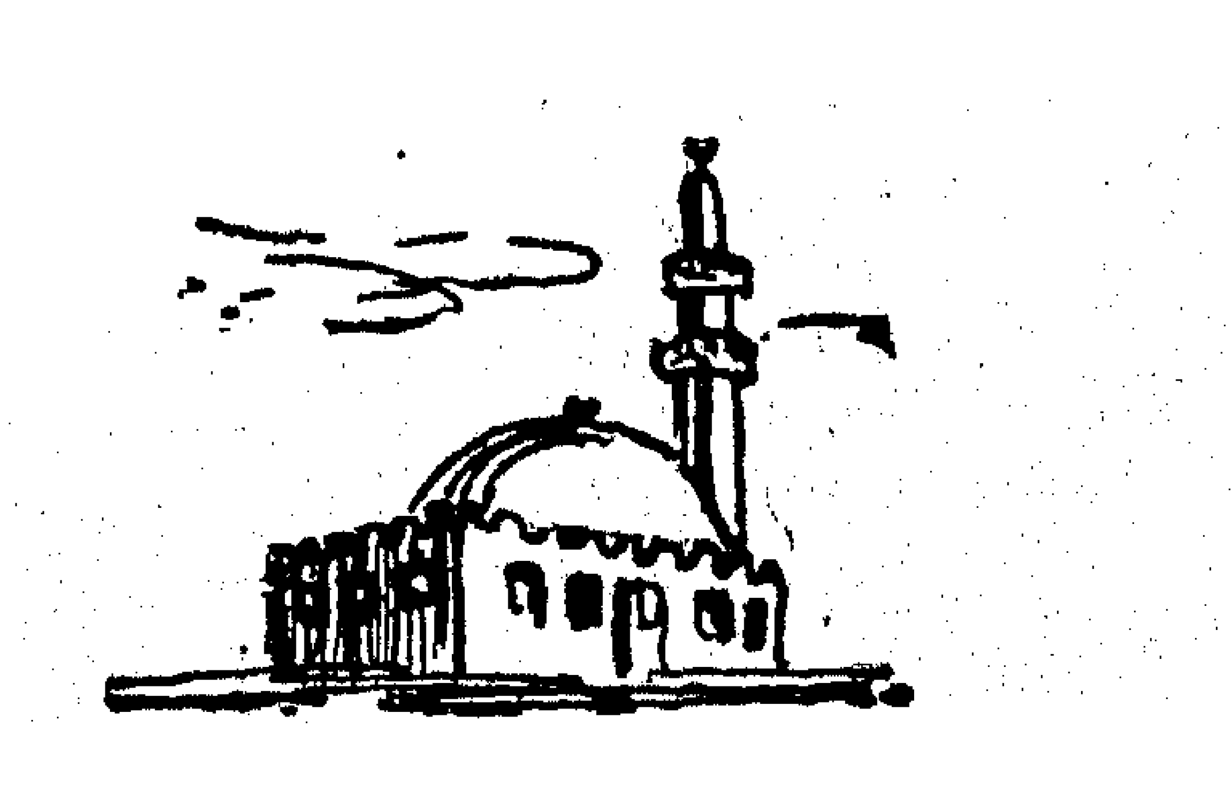
ونعود الى المسجد الحرام الذى ابتدأ منه حديثنا ، فنجد عبد الله ابن عباس صاحب حلقة الفتيا فيه ، ثم صارت من بعده لعطاء بن رباح ، ثم من بعده لابن جريج ، ثم من بعده لمسلم ابن خالد الزنجى ، ثم من بعده لسعيد بن سالم القداح ، ثم لمحمد بن ادريس الشافعى . وقد كان التدريس ، ولا يزال ، قائما فيه حتى الآن .

أما المسجد الأقصى فكان كذلك جامعة اسلامية كبرى . وقد أنشئت فيه وحوله عدة مدارس فى العصرين الأيوبى والمملوكى،منها : المدرسة الشريفة السلطانية الأشرفية ، وهى بداخله بالقرب من باب السلسلة ، والمدرسة الناصرية وهى من المدارس التى أنشئت حول هذا المسجد ، وقد سميت فيما بعد بالغزالية لأن الامام أبا حامد الغزالى أقام فيها . وقد أعاد انشاءها الملك عيسى الأيوبى ، وجعلها زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو ، ووقف عليها كتبا منها اصلاح المنطق لابن السكيت . ومنها المدرسة النحوية ، وهى على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة الى الغرب ، وقد بناها أيضا الملك عيسى الأيوبى . واذا كان اقتران اسم أبى حامد الغزالى بهذه الجامعة من الشارات العلمية المميزة ، فان المحدث الكبير المعروف باسم « ابن الصلاح » من الأعلام التى اشتهرت ، واقترن اسمها بهذا المسجد العظيم .

ولا يتسع المقام لذكر المسجد الجامع بالبصرة ، والمسجد الجامع بالكوفة ، والمسجد الجامع بالفسطاط ، والجامع الأموى بدمشق ، وجامع الزيتونة بتونس ، والمسجد الجامع بالقيروان ، وجامع المنصور ببغداد ، والجامع الأعظم فى قرطبة بالأندلس ، وجامع القرويين بفاس ، وجامع ابن طولون فى مدينة القطائع بمصر ... فهذه الجوامع كلها كانت ولا يزال بعضها جامعات علمية اسلامية عربية قامت بنصيبها الوافر وقسطها المقدور المشكور فى خدمة الثقافة العربية ، وتنمية التراث الاسلامى ، وامداد العقل البشرى بما قواه ونماه وكشف له طريق المعرفة فى أطباق الأرض وآفاق السماء .

واذا كانت المساجد معابد ، فانها الى ذلك — ويجب أن تكون كذلك — معاهد كما كانت فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى عهود ازدهار الاسلام .

عبد الرحيم فوده



مسجد عقبة بن عامر

هذا المسجد فى الطرف القبلى الشرقى لقرافة الامام الشافعى ، وفى نقطة هامة من القرافة الكبرى تضم رفات أعلام أجلاء ، فى مقدمتهم عقبة بن عامر بالتحقيق ، وعمرو بن العاص على ما قاله غير واحد من المؤرخين .

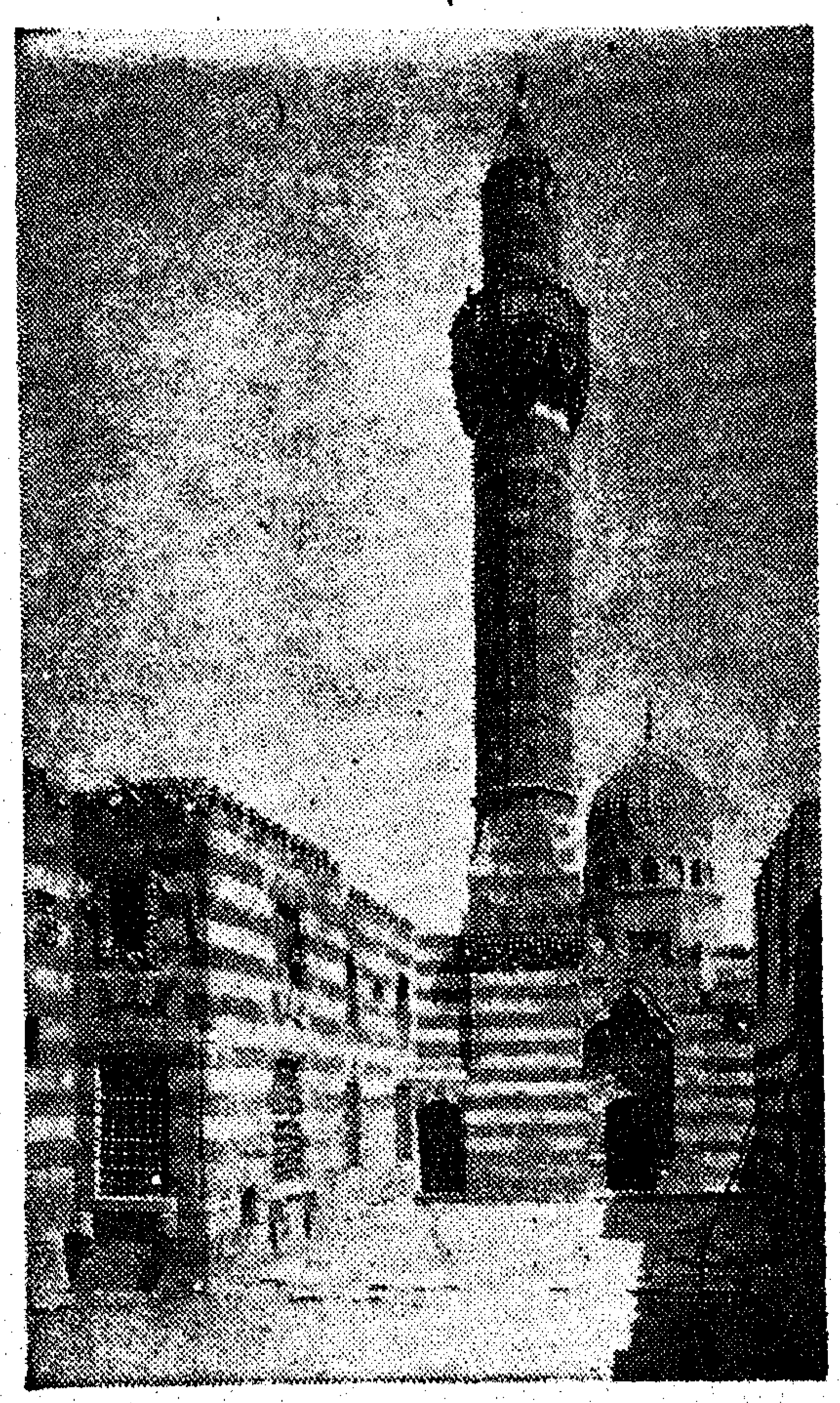
والمنطقة التى تضم هذا الجامع هى قرية صغيرة كانت تحدها الى عهد قريب من الخارج ، بوابة كبيرة تؤدى الى فضاء كبير به قبور كثير من الأعلام ، منهم : الشيخ الصالح الزاهد أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى الذى توفى عام ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، والشيخ عثمان الزيلعى شارح كتاب الكنز فى فقه الحنفية المتوفى عام ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م)، ثم باب آخر يؤدى الى طرقة تنتهى الى حوش كبير يصدره جامع عقبة وملحقاته .

عقبة بن عامر

هو السيد عقبة بن عامر بن عبس بن غنم بن عدى ابن عمرو بن رفاعة بن جهينة الجهنى الصحابى ، من أعلام الصحابة ، ومن خدام النبى صلى الله عليه وسلم . كان رحمة الله محدثا ، عالما بالفرائض والفقه ، كاتبا شاعرا ، وهو آخر من جمع القرآن ، وأول من نشر الرايات على السفن . قال أبو سعيد ابن يونس : رأيت مصحفه بمصر . وفى آخره « كتبه عقبة بن عامر بيده » .

اشترك رضى الله عنه فى الفتوح الاسلامية ، وكان رائد عمر بن الخطاب عند فتح دمشق ، كما شهد فتح صفين مع معاوية ، وشهد فتح مصر مع عمرو بن العاص ، ثم عين واليا عليها من قبل معاوية ابن أبى سفيان فى ذى الحجة عام ٤٤ هـ (٦٦٥ م) ، وظل واليا عليها الى أن صرف عنها فى شهر ربيع الأول عام ٤٧ هـ (٦٦٧ م) .

وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر ، ثم أقام بمصر الى أن توفى سنة ٥٨ (٦٧٨ م) . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين منهم : ابن عباس ، وابو أمامة



مسجد عقبة بن عامر

وغيرهما ، ولأهل مصر فيه اعتقاد عظيم ، ولهم عنه نحو مائة حديث .

وقال الشيخ الموفق بن عثمان فى تاريخه المرشد ، ناقلا عن حرملة من أصحاب الشافعى : « ان البقعة التى دفن فيها عقبة بها أيضا قبر عمرو بن العاص ، وقبر أبى بصرة الصحابيين » .

وكان قبر عقبة موضع رعاية المصريين يقصدونه للزيارة والتبرك ، كما كان يقصد اليه زائرو مصر ورحالتها . وكان ملحقا به متحف حربى صغير يضم سيفه وترسه . ولقد حرص كثير من أجلة العلماء على أن يدفنوا بجواره تبركاً به حتى غدت بقعته مقبرة للعظماء .

ظل قبره موضع عناية ملوك مصر وولاتها وكان أول من عنى به ملك مصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، فقد هدم القبة التى كانت على قبره ، وأنشأ غيرها قبة عظيمة . وكذلك جدده ملك مصر الكامل محمد بن الملك العادل .

وفى عام ١٠٦٦ هـ (١٦٥٥ م) عنى بتجديد المسجد والبلوغ به الى ما هو عليه الآن، والى مصر الوزير محمد باشا سلحدار ، الملقب بأبى النور ، وألحق به زاوية لتعليم الأطفال وسبيلا ، كما أنشأ حوله مساكن للموظفين ، ورصد عليه وعلى غيره من منشآته الخيرية أوقافا كثيرة ومن طريف ما تضمنته وقفيته تعيين أربعة « سيمانية » من رماة البندق برسم الحراسة والمحافظة على المسجد وملحقاته (باعتباره فى منطقة نائية قليلة العمران) .

وهو مسجد صغير بسيط البناء ، وتشتمل واجهته الغربية على الباب العام ، وتقوم على يساره قاعدة مربعة تنتهى بمقرنص ، تحمل منارة مرتفعة ذات دورة واحدة ويتصل بهذه الواجهة السبيل ، ويؤدى الباب الى دركاة مربعة تحتوى على سلم يؤدى الى المنارة ، كما تضم قبور مشايخ المسجد ... منهم الشيخ ابراهيم المتوفى عام ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) . وتتصل هذه الدركاة بمسجد مستطيل يشتمل على رواقين يتوسطهما صف من العقود المحمولة على عمد حجرية مثمنة . وقد حلى سقفه بنقوش ملونة ، ومكتوب بازار سقف الرواق الشرقى أبيات من قصيدة البردة . ويحيط بجدران المسجد مجموعة من الشبابيك الجصية المحلاة بالزجاج الملون . ويشرف بناء المسجد من الجهة الشمالية على قبر وجيه الدين عبد الوهاب البهنسى ، قاضى قضاة مصر فى القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد) ، وعلى قبر نوح أفندى مصطفى ، من علماء الحنفية المتوفى عام ١٠٧٠ هـ (١٦٥٩ م) ، والشيخ أحمد بن الشيخ محمد الامام ، راوية سيدنا عقبة المتوفى عام ١١٧٣ هـ .

ومن الأعلام الذين دفنوا فى الجهة القبلية للقبة العلامة عبد الرحمن بن عبد الملك الشافعى . فقد عثر على شاهد قبره مطمورا . وقامت ادارة حفظ الآثار العربية بتثبيته على الواجهة القبلية للقبة ونصه : « الحمد لله الباقى بعد فناء خلقه هذا قبر الفقير الى رحمة ربه ، المستقيل من جريمته وذنبه ، عبد الرحمن بن عبد الملك بن عبد المحسن ، القرشى نسبا ، الشافعى مذهبا ، الأشعرى معتقدا . تغمده الله برضوانه ، وأسكنه فى دار أمانه توفى الى رحمة الله تعالى فى ليلة يسفر صباحها عن يوم الخميس رابع شهر رمضان المعظم سنة سبع وخمسين وستمائة ، رحمه الله وعفا عنه وعن جميع المسلمين » . والى جانبه قبر ولده ، وفى غربيهم قبر شهاب الدين بن ابى حجلة وولده .

والقبة — وبها قبر عقبة رضى الله عنه — فى

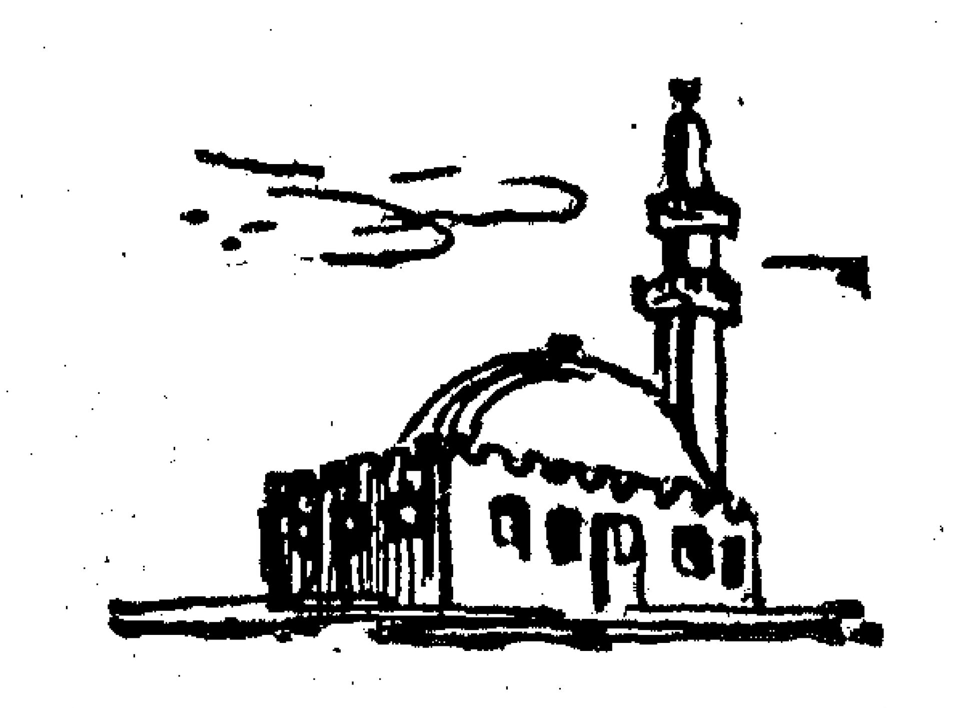
الركن الغربى القبلى للمسجد ، عليهـا مقصورة خشبية . وهى منقوشة من الداخل نقوشا تحاكى القاشـانى ، ومكتوب عـلى طراز مربعهـا آية الكرسى ، ٠بها من الداخل قطعة رخام سوداء لها بريق . وأمام القبر شاهد من الرخام مكتوب على أحـد وجهيه آية الكرسى ، وعلى الوجه الآخـر ما نصه : « هذا مقام العارف بالله تعالى الشـيخ عقبة بن عامر الجهنى الصحابى ، رضى الله تعالى عنه . جدد هذا المكان المبارك الوزير محمد باشا سلحدار ، دام بقاه فى سنة ست وستين وألف » .

والقبة من الخارج مضلعة ، وبرقبتها كسوة من القاشـانى ميزتها على قباب عصرها . وهى ثانية القباب العثمانية التى كسيت رقبتها بالقاشـانى ، والأولى قبـة الأمير سليمان أغـا عـام ٩٥١ هـ (١٥٤٤ م) بحوش برسباى البجاسى ، وهى أجمل قبة أنشئت فى العصر العثمانى .

وتكسية رقاب القباب بالقاشانى ظهرت بمصر فى أول القرن الثامن للهجرة ، فى قبة سـبيل الناصر محمد بن قلاوون ، لصق المدرسة المنصورية . وفى قباب طشتمر حمص أخضر ، وأم آنوك ، وأصلم السلحدار ، وابن غراب .

ثم تطورت الى تكسية القبة كلها بالقاشانى فى القرنين : الثامن والتاسـع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد) مثل قباب الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة والامام الشافعى والغورى بالغورية وسليمان باشا بالقلعة والشيخ سعود بشارع سوق السلاح . والتكية السليمانية بشارع السروجية .

حسن عبد الوهاب



مسجد الرفاعي

موقع المسجد قبل انشائه

كان يشغل جزءا من أرض هذا المسجد مسجد الذخيرة الذى وصفه المقريزى بأنه كان تجاه شبابيك مدرسة السلطان حسن التى تلى بابها الكبير . أنشأه ذخيرة الملك جعفر ، متولى الشرطة ووالى القاهرة ومحتسبها ، حوالى عام ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) . وكان هناك أيضا زاوية ، عرفت بالزاوية البيضاء وبزاوية الرفاعي ، اشتملت على قبور المشايخ : على أبى شباك ، ويحيى الأنصارى وآخرين ، ثم عدة منازل .

وفى كتاب « وصف مصر » للحملة الفرنسية لوحة تمثل زاوية الرفاعى فى نهاية القرن الثامن عشر للميلاد وما جاورها من أبنية يظهر بها مسجد المحمودية حتى شارع سوق السلاح . كما عثر على لوحة ملونة عملت عام ١٨٦٤ بريشة المصور « فرنك ديللون » الذى قدم مصر عام ١٨٥٤ — ١٨٥٥ م . وهى تمثل هذه المنطقة وزاوية الرفاعي وسبيلا تركيا واجهته مستديرة وأبنية أخرى .

وفى عام ١٢٨٦ هـ (١٨٩٦) أمرت « دولتلو » خشيار هانم ، والدة « الخديو اسماعيل » ، بتجديد زاوية الرفاعى . فاشتريت الأماكن المجاورة لها وهدمت . وعهدت الى المرحوم حسين باشا فهمى المعمار باعداد مشروع لبناء مسجد كبير يلحق به مدافن لها ولأسرتها ، وقبتان للشيخين على أبى شباك ويحيى الأنصارى . فصدع بالأمر ، وأعد مشروعا كبيرا عرض عليها ، فوافقت عليه ، وشرع فى العمل . واستمر العمل سائراً حتى ارتفع على وجه الأرض نحو مترين . وفى الوقت نفسه كان العمل سائرا فى القصر العالى فى أعمال النجارة ، كما أجرى تشغيل الأبسطة اللازمة لفرش المسجد .

وحوالى عام ١٨٨٠ م ، أوقفت العمارة . ثم توفيت المنشئة عام ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) ، وظل العمل موقوفا نحو ربع قرن . وفى عام ١٩٠٥ عهد الخديو عباس حلمى الثانى الى أحمد خيرى باشا ، مدير الأوقاف الخصوصية . باتمام المسجد . وكلف هرتس بك (باشا) باشمهندس الآثار العربية وقتئذ باعداد مشروع لأصلاح المسجد وتكملته . وأعد المشروع ، وعرضه فنال القبول ، وصدر اليه الأمر فى ١٢ من يونيه عام ١٩٠٦ بالشروع فى العمل .

ويقول هرتس باشا : ان تصميم حسين باشا لهذا المسجد من أحسن وأجمل المساجد المنشأة فى عصره ... أغراه على وضع تصميمه بهذه العظمة وجود مسجد السلطان حسن أمامه . ورغم وجود أخطاء فيه ، وحدوث تصدع فى عمده وجدرانه ، فان هذا لا يقلل من قيمة عملهالعظيم . ولذلك فانه حرص كل الحرص على ألا يغير كثيرا فى مشروع حسين باشا المعمار ، لدرجة أنه لو كان حاضرا لرضى بهذه التعديلات .

ثم أخذ فى تقوية الجدران ، وتغيير التالف من الأبنية والعقود ، مما يحفظ المسجد من الانهيار ،

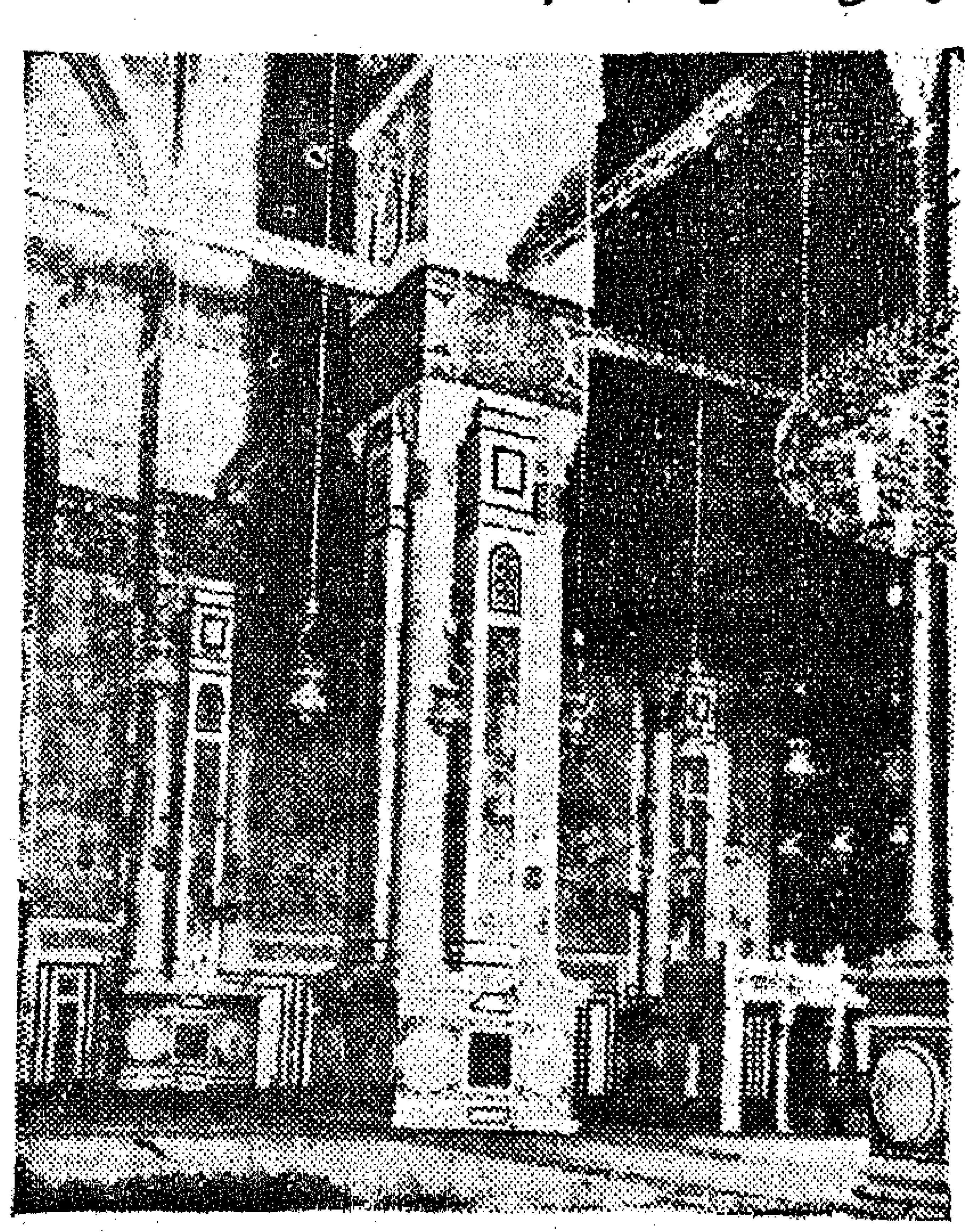
بمساجد مصر فى القرنين الثامن والتاسع للهجـرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد) . ومنهـا نحو ٤٢٠ مشكاة مطلية بالمينا عملت فى بوهيميا ، وعليها كتابات قرآنية وتاريخية .

وفى ختام عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) تم العمل ، وافتتح المسجد بصلاة الجمعة فى غرة المحرم عام ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) .

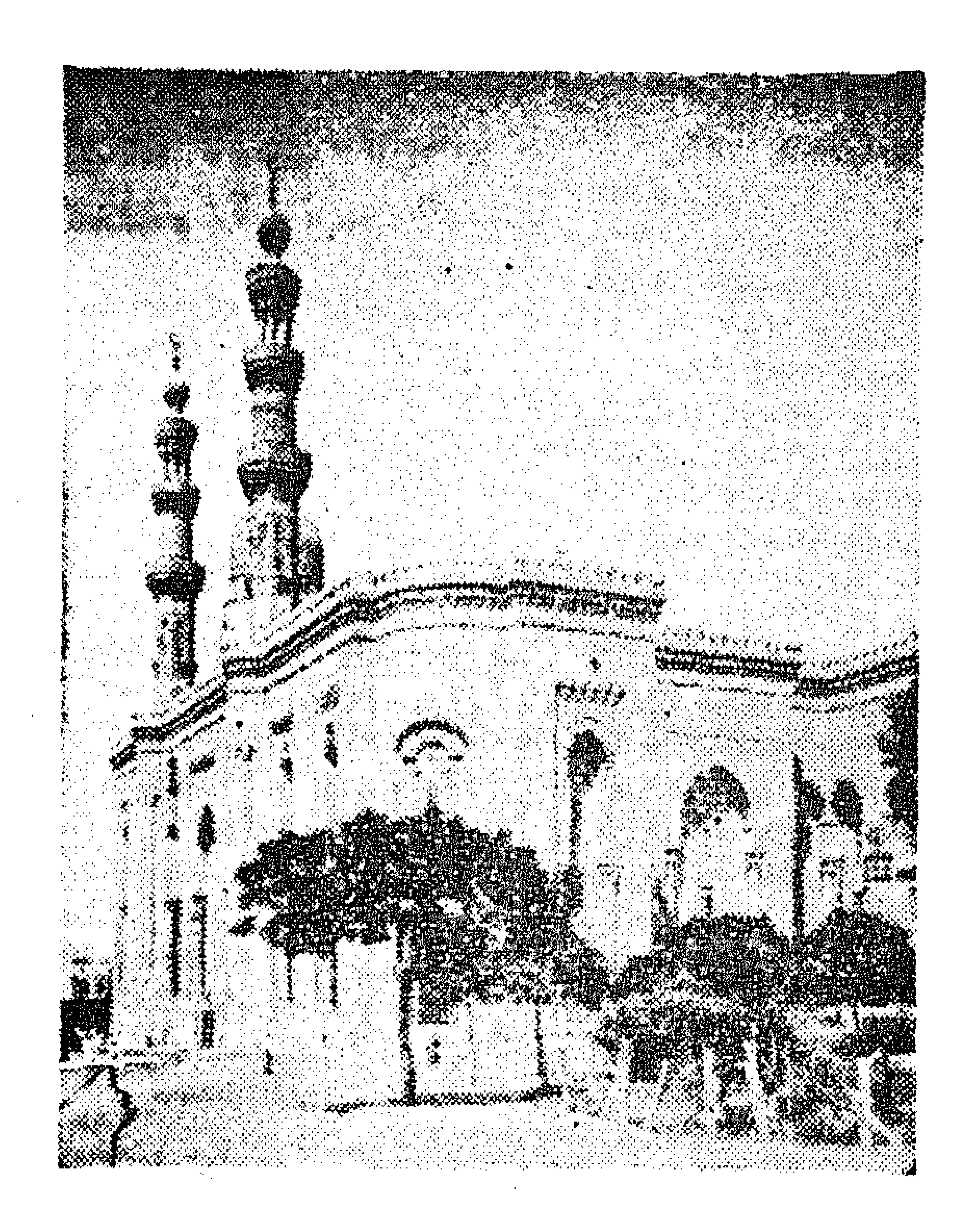
الرفاعى

هذا المسجد ـ وان سمى بمسجد الرفاعى ـ لم يدفن فيه الرفاعى ، بل انه لم يدفن فى مصر ، لأن السيد أحمـد الرفاعى الكبير لمـا توفى عام ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) دفن بأم عبيـدة من أعمـال واسط بالعراق .

وهذه التسمية لازمت الزاوية أولا ، ثم المسجد نسبة الى الشيخ المدفون به على أبى شباك من ذرية الرفاعى ، ومن أصحاب الشهرة والاعتقاد .



داخل مسجد الرفاعى



واجهة مسجد الرفاعى

ويساعد على المقاومة . وهذه التعديلات استلزمت بعض التحوير فى المشروع القـديم ، واسـتنفد مجهوداً جباراً كى يحافظ على الوضع الذى كان حسين باشا يحب أن يكون عليه المسجد . وقـد أدخل فى عمارة المسجد ما كان موضوعاً فى مخازنه على ذمة عمارته منذ عام ١٨٨٠ . فانتفع بالذهب الذى كان مستورداً من اسلامبول ، وبالنجـارة التى تم عملها ، وببعض الكتابات التى كان أعدها الخطاط المشهور عبد الله بك زهدى . وقام بتكملة الناقص من الكتابات المرحـوم الشـيخ مصطفى الحريرى الخطاط .

وكانت التكاليف الأصلية المقدرة لهذا الجـامع خمسمائة ألف جنيه ، فاستنفد هذا المبلغ فى الأعمال التى أنجزت حتى عام ١٨٨٠ . أما ما صرف بعد ذلك فبلغ ١٣٢٫٥٠٠ جنيه ، مضافا اليه مصاريف قليلة أخرى . ويدخل فى هذا المبلغ الأبسـطة الجديدة التى عملت فى هركة بتركيا ، والمشكاوات الزجاجية التى عملت على مثال المشكاوات الأثرية

وصف المسجد

حقا ان مسجد السلطان حسن أغرى مهندس هذا الجامع بأن يجاريه فى العظمة والارتفاع ، ولكن مع الأسف لم يوفق فى تصميم الواجهات ، كما أنه لم يوفق فى اختيار الأحجار .

وهذا ما لاحظه المرحوم على باشا مبـارك ، غير أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأنه من خيرة المساجد التى أنشئت فى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد وأوائل القرن العشرين ، وأحفلها زخرفا وأتقنها صناعة .

وقد نجح كل النجاح فى محاكاته لمدرسة السلطان حسن فى ضخامتها وارتفاعها ... فالمداخل تبدو عليها العظمة ، فقد بنيت شاهقة تكتنفها العمد الحجرية والرخامية بتيجانيها العربية ، وحليت أعتابها بمزررات الرخام ، وغطيت بسقف أحسن اختيارها وصاحب التوفيق تلوينها وتذهيبها . وقد امتازت منارتاه بالرشاقة والجمال وأقيمتا على بدن مستدير مثل منارتى مدرسة السلطان حسن . والشبابيك النحاسية وضع لها تصميم خاص بزت به ما سبقها من قديم وحديث .

والمسجد من الداخل تبلغ مساحته ٦٥٠٠ متر : منها الجزء المخصص للصلاة ، ومساحته ١٧٦٧ مترا ، وخصصت المدافن وملحقاتها ببقية المساحة .

ويتوسط الواجهة الغربية الباب ، وهو باب رائع جميل حافل بأنواع الرخام والمقرنصات ، ويؤدى الى مؤخر الجامع ، وقد كسيت جدرانه بالرخام المختلف الألوان والكتابات الجميلة وعلى يمين الداخل من هذا البـاب قبر الملك فؤاد الأول ، وجدرانه مكسوة بأنواع الرخام الملون ، وعليه تركيبة رخامية حليت بزخارف مذهبة . والى جـواره قبر والدته الأميرة فريال المتوفـاة عام ١٣٢٠ هـ . وسقف هذا الجناح وكراديسه نقشت باللونين الأزرق والأبيض تقليدا لسقف الخانقاه الشيـخونية ، وحليت الجـدران بنقوش نكرت أرضيتها باللون الأزرق .

ويقابل الداخل من الباب المذكور حجرة طعمت مصاريعها بالسن ، وحليت أعتابها وما حولها بنقوش ملونة وتطعيم بالرخام ، بها قبر الشيـخ عـلى أبو شـباك ، وقد أقيمت فوقه قبة حليت مقرنصاتها بالذهب والألوان ، تتوسطها مقصورة خشبية مطعمة بالسن والأبنوس ذات عمد رشيقة ، وبها خرط دقيق . ولا شك أنها من أرقى أنـواع المقاصير . ويسترعى النظر فى هذه القبة أن قطبها مفرغ بأشكال هندسية غطيت بالزجاج الملون،وفتح بأجنحتها الأربعة أبواب تؤدى الى الجامع . وبين البابين القبليين حجـرة بسيطة يتوسـطها تابوت خشبى ، بها قبر سيدى يحيى الأنصارى ، تعلوها قبة حجرية عارية من الزخرف ، وهى التى تظهر بين المنارتين .

وقد ارتفعت جدران المسجد وسقوفه ، وحليت جميعها بمزررات رخامية مختلفة الألوان ، كمـا اشتملت الأسقف على ألوان براقة تأخذ بالأبصار ، أحسن اختيارها ، وتنوعت أشكالها وبعضها مفرغ ومغطى بالزجاج .

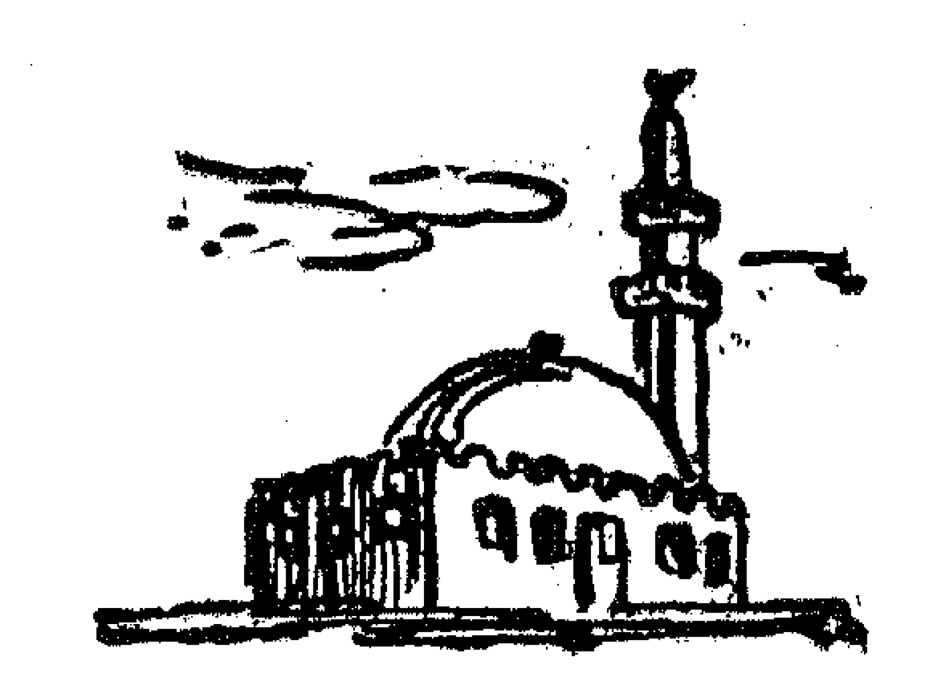
وان الزائر لهذا المسجد يؤخذ بما حواه من فنون جميلة وصناعات دقيقة . وقد وفق هرتس باشا فى أن يختار له من كل أثر أحسنه ، حتى كون منه درة بين المساجد الحديثة تتنقل العين فيه من حسن الى أحسن . ويتوسط الجدار الشرقى المحـراب ، وهو محراب كبير يكتنف كلا من جانبيه عمودان : أحدهما أبيض ، والآخر أسود . وقد حلى باطنه برخام دقيق ، كما حلى عقده بمزررات رخاميـة ملونة ، ويحيط به افريز يعلوه سطر مكتوب فيه

قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » .

وعلى جوانب المسجد وفى وسطه أقيمت أكتاف خلقت بنواصيها عمدا رخامية ، وكسيت بالرخام الدقيق كما كسيت قواعدها بدوائر رخامية تنوعت أشكال زخارفها . ويقوم على جانب المحراب منبر كبير طعمت حشواته بالسن والأبنوس وخشب الجوز ، ونقشت خوذته ومقرنصات مقدمه بالذهب والألوان . وكرسى المصحف من نوع صناعة المنبر ، وكلاهما على جانب عظيم من الأهمية . ودكة المبلغ مقامة على عمد رخامية وقد حفلت بالنقوش المذهبة .

أما الجانب البحرى للمسجد ، فقد شرعت فيه خمسة أبواب : منها ثلاثة توصل الى المدافن ، واثنان يوصلان الى رحبتين بين تلك المدافن ، وقد دفن فى تلك المدافن المنشئة وابنها الخديو اسماعيل وزوجاته وأولاده ، كما دفن فيها السلطان حسين . وقد أقيمت عليها قباب حفلت بأنواع الزخرف .

حسن عبد الوهاب



مسجد أبى العلاء

نسب هذا المسجد الى الشيخ الصالح حسين أبى على ، المكنى بابى العلا ، الولى المعتقد ، صاحب الكرامات والمكاشفات ، كما وصفه الصوفيون الذين اطنبوا فى كراماته ، وبالغوا

سكن هذا الشيخ خلوة فى زاويه بالقرب من النيل فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وكان للناس فيه اعتقاد ، فكثر مريدوه ومعتقدو كراماته وكان من بينهم التاجر الكبير نور الدين على ابن المرحوم نور الدين محمد بن القنيش البرلسى ، فطلب منه الشيخ أن يبنى له مسجدا بجوار خلوته التى كان يتعبد فيها ، فصدع بالأمر ، وأنشأ هذا المسجد ، وألحق به قبة دفن فيها الشيخ أبو العلا حينما توفى عام ٨٩١ للهجرة (١٤٨٦ م) .

وكان انشاء المسجد حوالى عام ٨٩٠ للهجرة (١٤٨٥ م) . وهو عصر ازدهرت فيه العمارة الاسلامية والغالب على تصميمه وقتئذ انه كان على طراز مدرسة ذات أربعة ايوانات ، متعامدة ، غنية بالنقوش والكتابات ، كما تنبىء بقاياها القديمة ، وتنحصر فى الباب البحرى مع قسم من الواجهتين البحرية والشرقية ، والقبة والمنارة ، والمنبر .

والباب العمومى مبنى بالحجر ، وله عقد مدائنى بطاقية مقرنصة ، ومكتوب عليه قوله تعالى « وما تفعلوا من خير فان الله به عليم » .

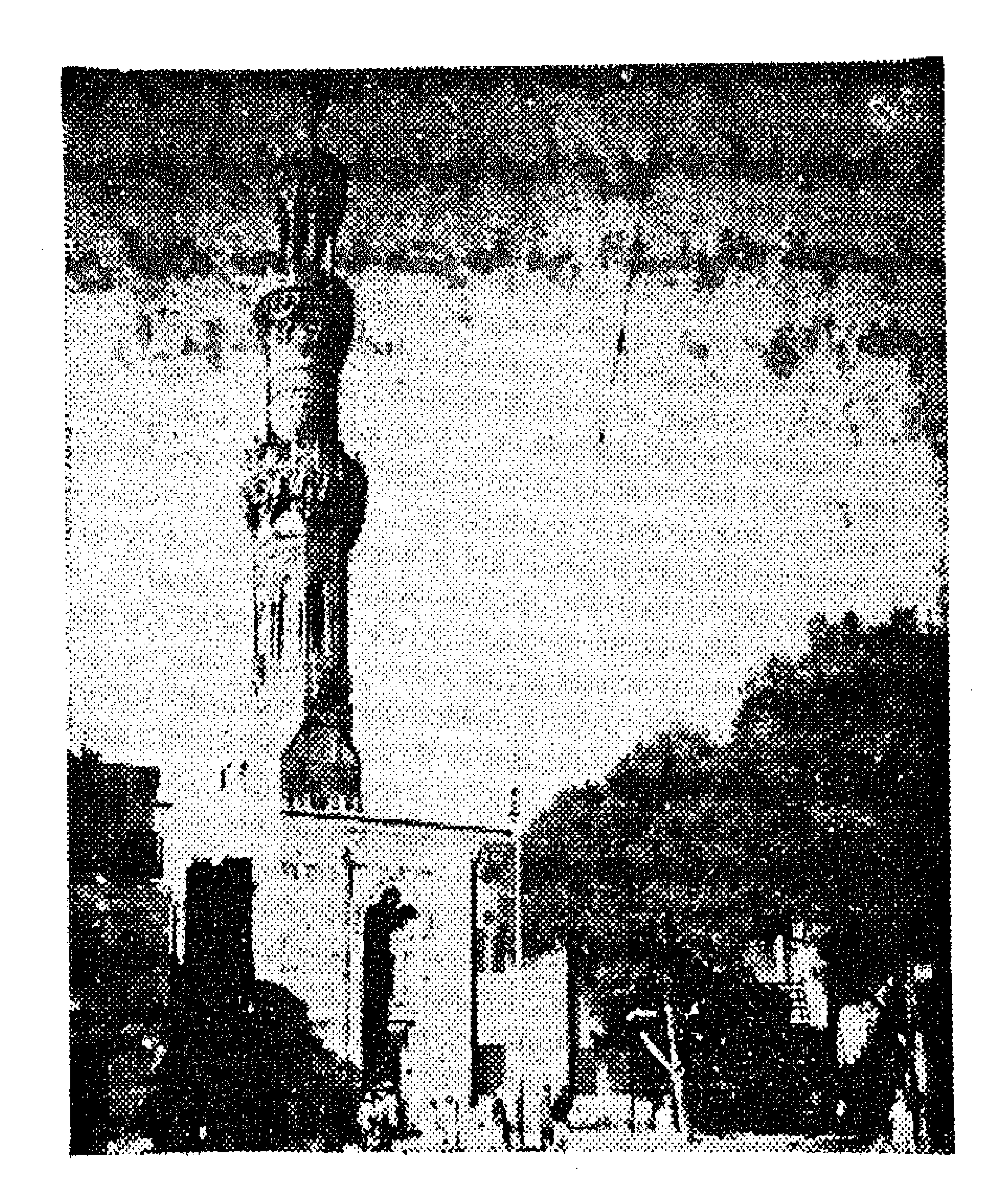
وتقوم المنارة على يسار الباب ، وهى منارة حجرية رشيقة مكونة من ثلاث دورات ، لا تقل أهمية عن المنارات المنشأة فى عصرها الزاهر ... فقد حلى بدن الدورة الأولى بحفوت وعقود ، كما حلى بدن الدورة الثانية بخطوط متقاطعة على هيئة شرفات ، وقامت الدورة الثالثة على عمد رشيقة .

وتقوم القبة فى مقدمة الواجهة الشرقية ، وهى قبة مبنية بالطوب تغلب عليها البساطة من الخارج ، بخلاف قباب عصرها التى امتازت بجمال نقوشها .

وأهم ما يسترعى النظر بداخل هذه القبة كتابة تاريخية فوق المحراب نصها : « أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى نور الدين على ابن المرحوم ... الدين محمد ابن القنيش ، غفر الله لهم ، لسيدنا ومولانا الشيخ حسين أبى على نفعنا الله ببركاته ، والمسلمين فى الدنيا والآخرة » .

أما نجارته فقد كانت على جانب عظيم من الأهمية ، ولم يبق منها الا المنبر الذى لاشك فى أنه فخر المنابر الاسلامية فى دولة المماليك الجراكسة ... فقد طعمت حشواته بالسن والزرنشان ، وامتازت جوانبه بتقاسيم فريدة ، وخاصة فى دائرته الكبرى التى تتوسط ريشتى جانبيه فانها لم توجد فى منبر آخر . ومما زاد فى أهميته اشتماله على اسم صانعه المكتوب على باب المقدم بما نصه :

« نجارة العبد الفقير الى الله تعالى ، الراجى عفو ربه الكريم ، على بن طنين ، بمقام سيدى حسين أبى على ... نفعنا الله .. » .



الواجهة البحرية لجامع ابى العلاء

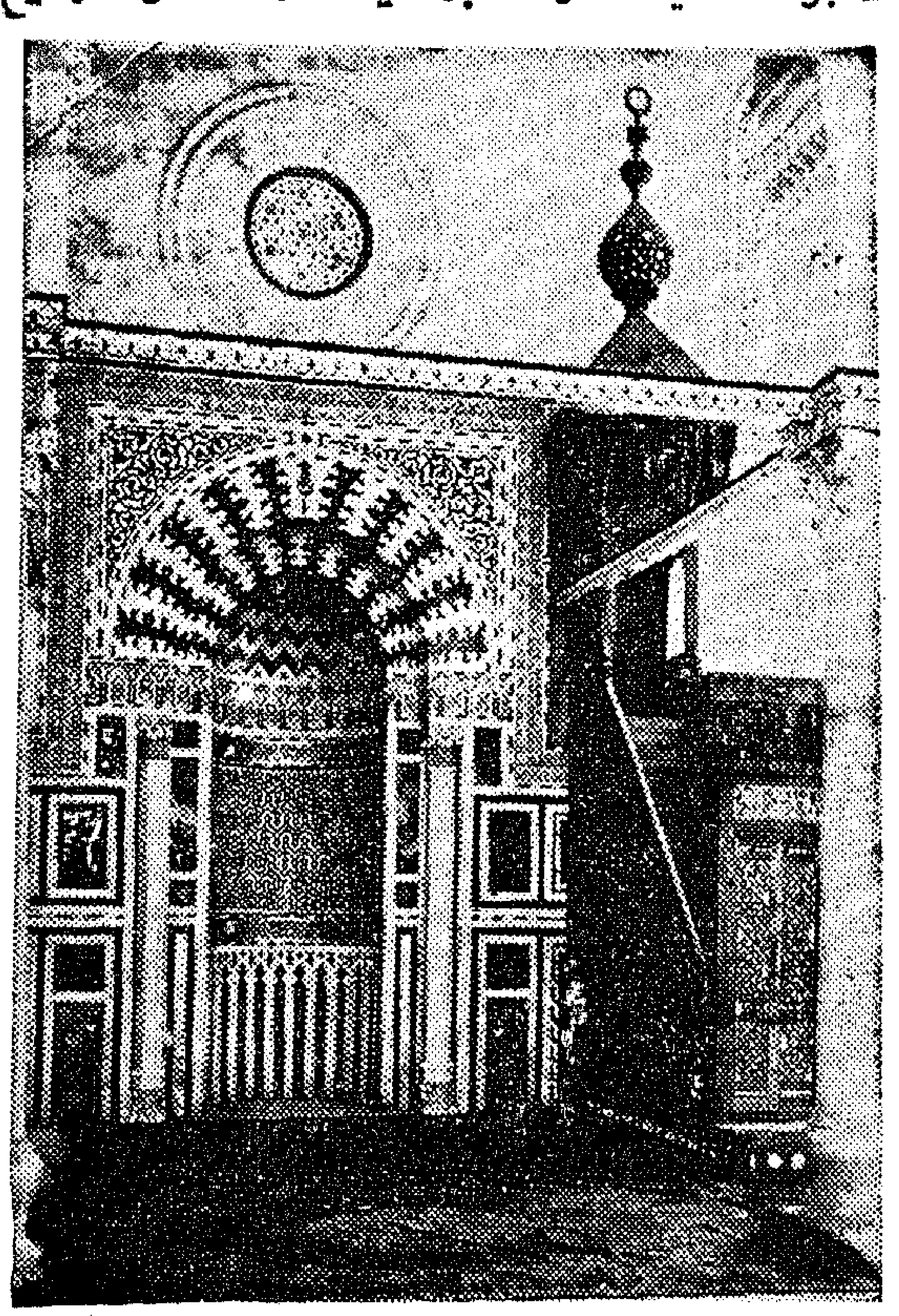
هذه هى الأجزاء القديمة الباقية من هذا المسجد ، لأن اصلاحات كثيرة قد أدخلت عليه ... فأجريت به عمـارة عام ١١٥٤ هـ (١٧٤١ م) ، وأخرى عام ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) .

وقد دفن به غـير واحـد من العلماء ، منهم : الشـيخ أحمـد الكعكى المتـوفى عام ١٢٧١ هـ (١٨٥٤ م) ، والشيخ مصطفى البولاقى المتوفى عام ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) .

وقد ترتب على هـذه الأعمال تغيير فى المسجد أدركه المغفور له على باشـا مبارك ، ووصفه بأنه جامع عامر ، ومقامة فيه الشعائر ، له ثلاثة أبواب : أحدها على الشـارع — وهو الباب الكبير — والثانى تجاه المقام ، غربى الجامع ، موصل لعطفة ضيقة ، والثالث للميضـأة ، ويشتمل على ايوانين وثمانية أعمـدة من الرخام . ومنبره من الخشب النقي المطعم بالعاج ، ومحرابه مكسو بالرخام .

وأعقبت هـذه العمارات ، العمارة التى قامت بها لجنة حفظ الآثار العربية فى المدة من سنة ١٩١٥ — ١٩٢٠ . فقد أجرت به اصـلاحات شـاملة ، وأنشأت فى النهاية الغربية للواجهة البحرية سبيلا يعلوه كتاب ، اقتبست تفاصيله من نماذج عصره ، وفكت مبانى المنـارة ، وأعادت بناءها ، وأكملت قمتها طبقا لمنارات عصرها .

وقد بقى المسجد موضع الرعاية ، باعتباره حرم حى بولاق الحبيب الى قلوب سـكانه ، الى أن سـقط سقف ايوانه الشرقى فى أحـد موالده ، فتعطلت اقامة الشعائر فيه الى أن صدرت الأوامر بتجديده وتوسيعه فى عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) . فقامت وزارة الأوقاف بنزع ملكيـة الأماكن التى اقتضاها التوسيع ، ثم عهـدت الى ادارة حفظ الآثار العربيـة وضع تصميم جـديد لتجديده . فوضعت تصميما للمسجد راعت فيه المحافظة على الأجزاء القديمة ، وادماجها فيه ، وأن تكون جميع



المحراب والمنبر بمسجد ابى العلاء

تفصـيلاته مقتبسـة من منشـآت القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) . وانتهت من توسيعه وتجديده فى عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) .

والمسجد — كما هو الآن — تبلغ مسـاحته ١٢٦٤ مترا ، وقد كان قبل ذلك ٨٤٣ مترا ، وروعى فيه أيضا أن تكون أبوابه الثلاثة كما كانت . ووضع تصميمه مكونا من أربعة ايوانات سقوفها مرفوعة على عقود من الحجر الأحمر والأبيض ، وترتكز على عمد رخامية تحدق بصحن غطى بسقف مذهب على عمـد رخاميـه تحدق بصحن غطى بسقف مذهب .

وقد ابتـكرت طريقـة لعمل الأسقف الأثرية بالأسمنت المسلح ، زيادة فى متانتهـا ، وقسمت على هيئة الأسقف الخشبية القـديمة ، ثم نقشت وذهبت تذهيبا متقنا لا يدع مجالا للشك فى أنها من الخشب . وقد تنوعت تلك النقوش . فالايوانان الشرقى والغربى متماثلان ،ويختلف عنهما الايوانان القبلى والبحرى .

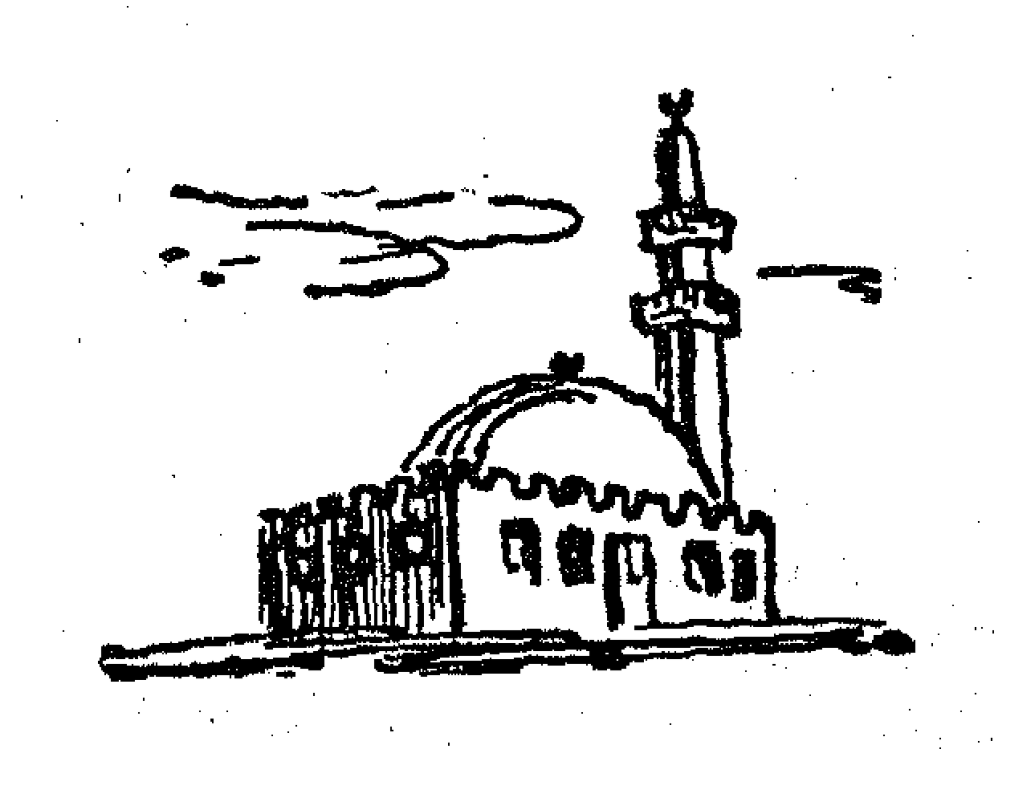
وكسيت جدران ايوان المحراب بوزرة رخامية انتهت فى أعلاها بافريز رخامى دقيق ، وبه محراب من الرخام الدقيق تنوعت زخارفه وألوانه ، يكتنفه عمودان قواعدهما وتيجانهما عربية ، كما يحيط به من أعلاه مجموعة متنوعة من الشبابيك الجصية .

وفى مؤخر الجامع دكة المبلغ ، وهى من الرخام ، وقد حليت بزخارف عربية مذهبة ، ونقشت الأوتار الرابطة للعقود ، كما أضيئت اضاءة خاصة .

وقد تنـاول التجديد واجهاته الثلاث الشرقية والقبلية والعربية ، اذ بنيت بالحجر الأبيض والأحمر على التعاقب بارتفاع ١٣ مترا ونصف متر ، وغطيت صفف شبابيك الواجهات بمقرنصات متنوعة ، كما حليت الأبواب أيضا ... فالباب الغربى المؤدى الى الميضأة اقتصرت زخارفه على الحجر الملون ، وغطى بمقرنص ، أما الباب القبلى فقـد حليت مزرراته وجانباه بالرخام الملون ، وغطى بالمقرنص .

ولا شك فى أن تجديد هـذا المسجد كان طبقا لأساليب العمارة الاسلامية الصحيحة . وقد بلغت نفقات تجـديده ١٧٫٠٠٠ جنيـه ، وافتتح بأداء فريضـة الجمعة فى ١٠ من ربيع الأول عام ١٣٥٥ (٥ يولية سنة ١٩٣٦ م) .

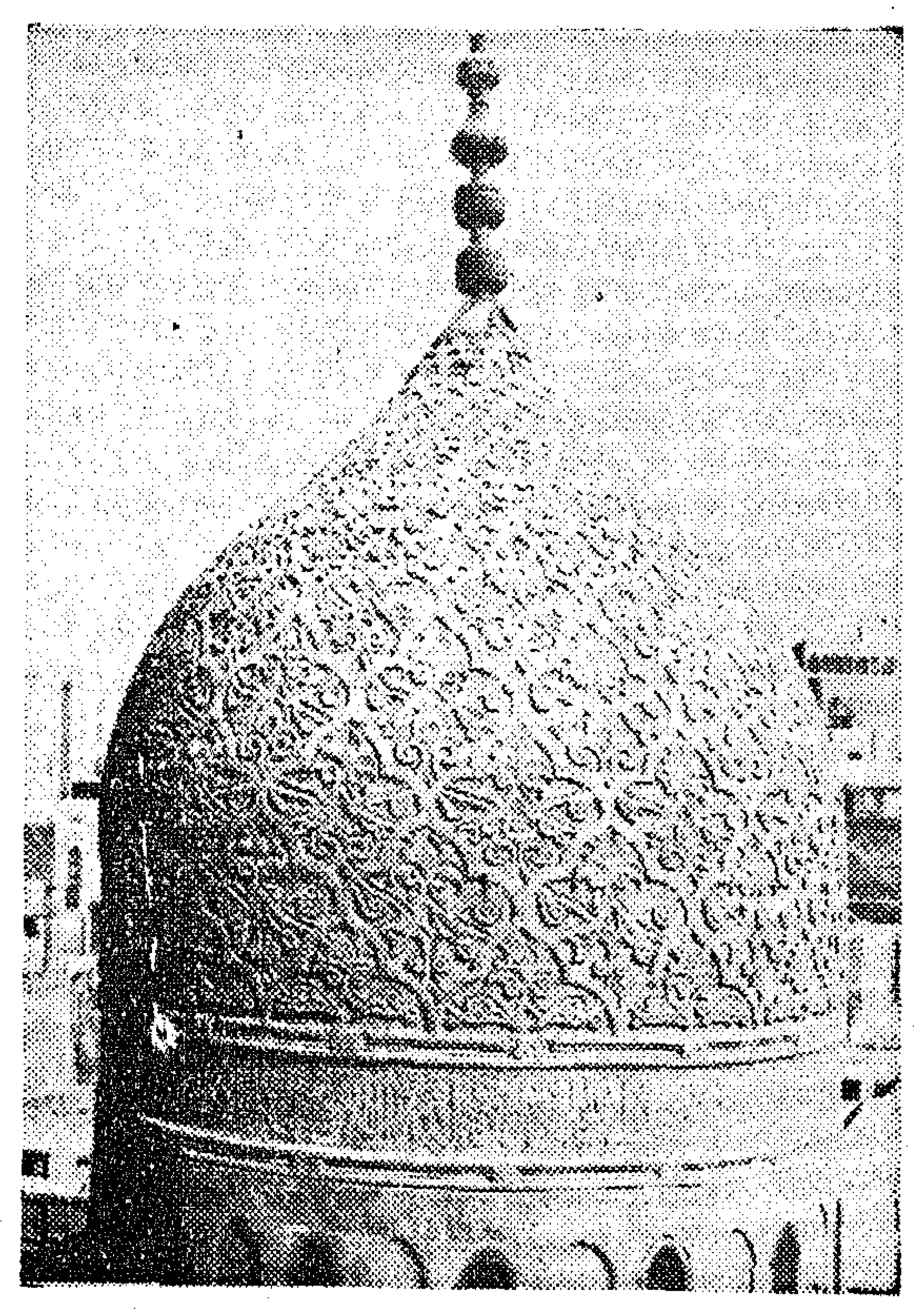
حسن عبد الوهاب



مسجد قانى باى الرماح

الأمير قانى باى

قانى باى قرا كان مملوكا للملك الأشرف قايتباى ، فأعتقه وعينه فى جملة وظائف ، الى أن رقاه أمير عشرة فى عام ٨٩٨ هـ « ١٤٩٢ م » ، ثم عينه نائبا لصهيون ، فأميرا لحلب . ثم عاد الى مصر ، وتزوج ابنة الأمير يشبك بن مهدى .



قبة مسجد قانى باى الرماح

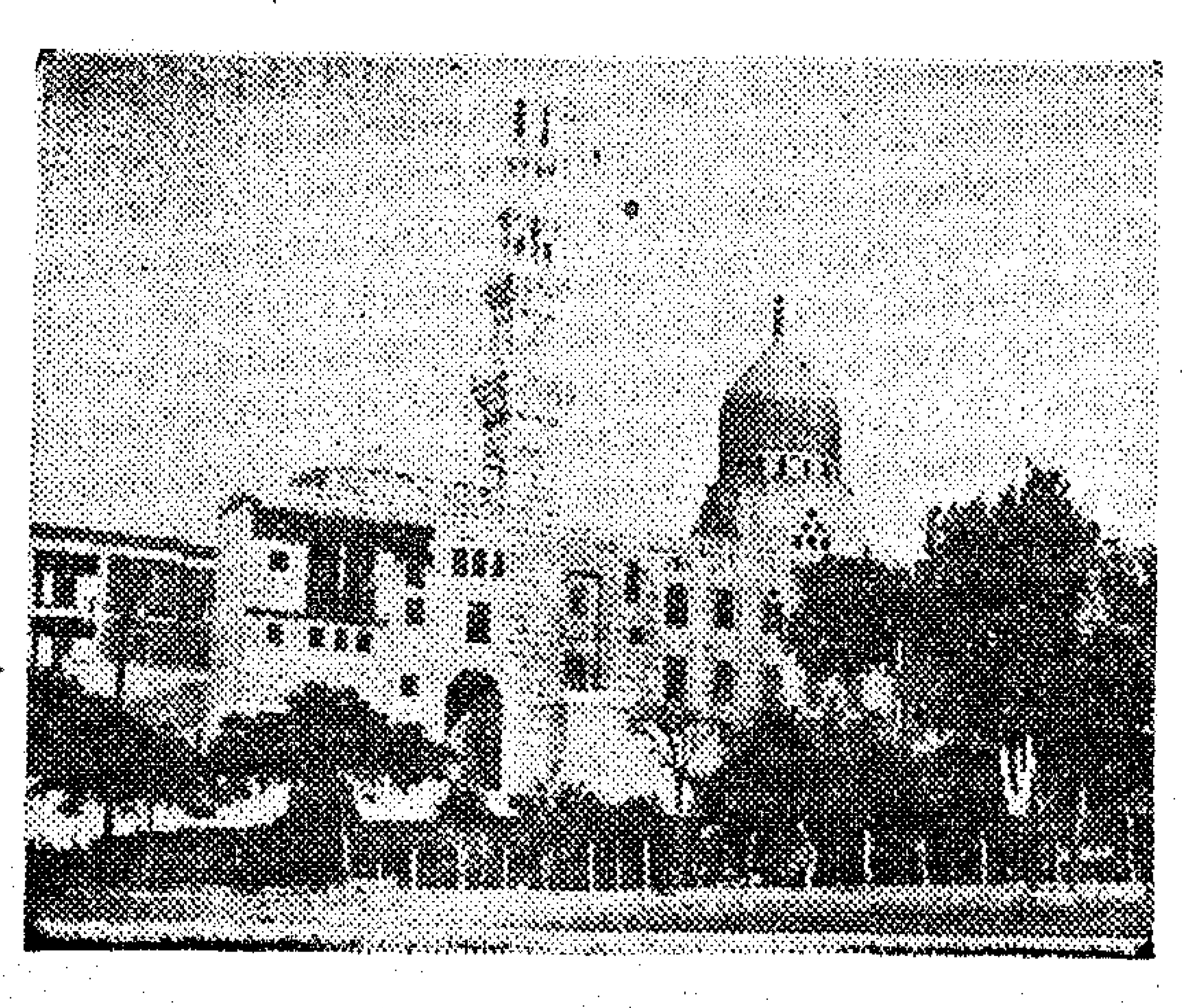
وفى دولة الناصر محمد بن قايتباى رقى الى مقدم ألف ، ثم أمير آخور كبير . وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية ، مجيدا للعب بالرمح ، فعرف بالرماح .

وقد أنشأ مسجدا فى الناصرية ، كما أنشأ هذا المسجد . توفى الى رحمة الله يوم الجمعة ٢٦ من ربيع الأول عام ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) ودفن بقبة هذا المسجد .

وهذا المسجد بميدان صلاح الدين بحرى مسجد المحمودية ، وهو مبنى على شرف عال ، وله واجهتان : احداهما شرقية ، وبها واجهة الايوان الشرقى والقبة . والثانية قبلية ، وبها واجهة القبة والمدخل الرئيسى والمنارة ، فسبيل وكتاب .

والمسجد بعد من المساجد المعلقة . فهو قائم على عقود مصلبة ، تحملها أكتاف حجرية مربعة تكون حجرات واستطراقات أسفل المسجد ، لها واجهة أسفل الايوان الغربى ، وللحجرات مزاغل بالواجهة القبلية .

ويتوصل الى باب المسجد ببضع درجات تؤدى الى باب لبس عتبه الحجرى برخام ملون ،



مسجد قانى باى الرماح

ومكتوب على جانبيه : « أمر بانشاء هذه المدرسة المبـاركة ، من فضل الله ، المقر الأشرف العـالى المولوى السيفى قانى باى أمير آخور كبير ، أعزه الله تعالى » .

وقد حلى الباب بزخارف حجرية ، ويغطيه عقد له أرجل مخوصة . وهو يؤدى الى دركاة مربعة لها سقف حلى بالذهب والألوان ، وله ازار مقرنص ، ثم طرقة مغطاة بعصلبتين ، على يسارها باب المنارة ، ثم ينثنى الى طـرقة أخـرى معقودة تنتهى الى الصحن .

والمسجد منشأ عام ٩٠٨ هـ (١٥٠٢ م) ، على طراز المـدارس المشـتمل على أربعـة ايوانات متعامدة ، تنوعت عقودها . وهـذا المسـجد لم تستعمل فيه السقف الخشبية ، فيما عـدا دركاة المدخل ، فهو مغطى بعقود تنوعت أشكالهـا ... فالايوانان القبلى والبحرى عقودهما مدببة وهما صـغيران . وقد حـلى وجهـاهما بالنقـوش والكتابات والايوان الغربى معقود بقبو مصلب ، وحليت تواشيح وجه عقده بزخارف نباتية .

وأهم هذه الايوانات الايوان الشرقى ، وقد غطى بقبو كرى يكتنفـه من الجـانبين قبـوان دائران . وقد نقشت أركان هـذا القبو بنقـوش مذهبة ، ومكتوب بدائره اسم المنشىء والقابه . وكانت هذه الكتابة مذهبة .

والمحراب حجرى حلى عقده وطاقيتـه بجفوت متقاطعة . ومكتوب به ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسـجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخـير لعلكم تفلحون . صدق الله العظيم » . ويحيط بهذه الكتابة من أعلى ومن أسـفل زخارف على هيئـة شرفات بها أثر تلوين وتذهيب .

ويجاور المحراب منبر صغير ، طعمت حشواته بالسن ، يكتنفه دولابان حلى شعاعاهما بزخارف نباتية مورقة .

وعلى جانبى هذا الايوان شبابيك حليت أعتابها بزخارف دقت فى الحجر ، ويعم الزخرف أحجار هـذا المسجد كما كان يعمها التذهيب ، شـأن مسـاجد ذلك العصر . ومكتوب أعلى الأبواب حول الصحن « أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة المقر الأشرف الكريم العالى السيفى قانى باى أمير آخوز كبير الملكى الأشرفى ، أعز الله أنصاره » .

والباب الشرقى القبلى من هذه الأبواب يؤدى الى حجرة مستطيلة مغطاة بعقود مصلبة لها أرجل مخوصـة ، وذات شـبابيك تطل على الواجهـة القبليـة ، وأخرى تطل على طـرقة المدخـل ، وبجـدارها الشرقى باب القبـة ، وهـو مغطى بمقرنصات ومكتوب بجانبيه قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم . ادخلوها بسلام آمنين » . ويعلوه سطر مكتوب فيه « اللهم انا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدارين » .

وهذه القبة من النماذج القيمة التى تتجلى فيها عظمة القباب المملوكية ... فهى بارزة عن واجهة المسجد الشرقية ، وقد حليت نواصيها بعمد حجرية منقوشة ، ونقش سطحها بزخارف مورقة جميلة ، ومكتوب برقبتها : « بسم الله الرحمن الرحيم . الله لااله الا هو الحى القيوم ... الآية . أمر بانشاء هذه القبة المباركة ، المقر الأشرف الكريم العالى السيفى : قانى باى أمير آخور كبير الملكى الأشرفى » .

وقد أحيطت جدرانها من الداخل بوزرة رخامية انتهت بافريز لبست فيه زخارف بالمعجون الملون . كما حلى عقد محرابها وطاقيته بجفوت متقاطعـة مثل محراب المسجد ، وكتب أعلاه : « بسم الله الرحمن الرحيم . قد نرى تقلب وجهك فى السماء »

ويحيط بمربعها ، تحت رجل المقرنص ، افريز كبير مكتوب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم .

وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ... الآية صدق الله العظيم . أمر بانشاء هذه القبة المباركة ، المقر الأشرف الكريم العالى المولوى الأميرى الكبيرى السيدى السندى الذخرى العضدى المالكى المخدومى السيفى : قانى باى أمير آخور كبير الملكى الأشرفى بتاريخ مستهل شعبان المكرم عام ثمان وتسعمائة » .

وبجانبها القبلى شباك يشرف على الواجهة ، وبالبحرى شباكان يشرفان على الايوان الشرقى ، والثالث يشرف على الحارة ، وبه عالج المهندس شطرة بها . وأمام المحراب قبران : أحدهما للمنشىء .

المنارة

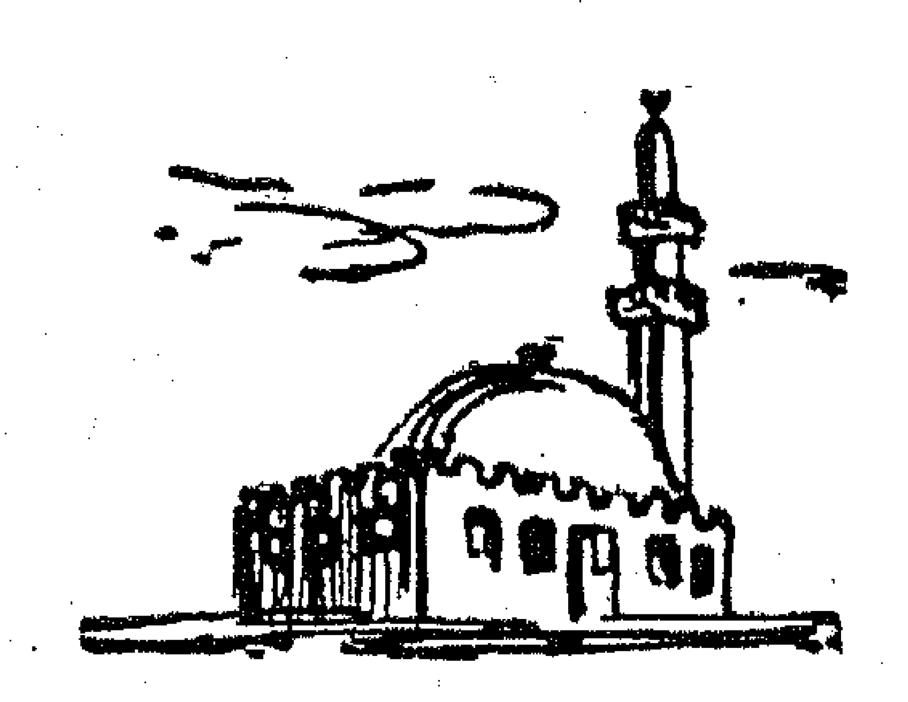
وتقوم المنارة على يسار الباب العمومى ، وهى مبنية بالحجر ، ومكونة من دورتين مربعتين حليت جلساتهما بمقرنصات . ويعلو الدورة الثانية مربعان حليا بالمقرنصات تعلو كلا منهما خوذة .

والمنارات ذات الرءوس المزدوجة ظهرت بمصر فى منتصف القرن الثامن للهجرة ، وشاعت فى نهاية القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر) . رأيناها فى منارة الغمرى بميت غمر ، كما كانت كذلك منارة مسجد جان بلاط بجوار باب النصر التى هدمت عام ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) ، فمنارتا الغورى بمسجده والأزهر ، ثم منارة مسجد العمرى بالمنيا . وقد أنشأ الأمير قانى باى منارة مسجده بالناصرية على هذا الطراز أيضا .

بقيت منارة المسجد الى أن هدمت حوالى عام ١٨٧٠ م لخلل بها . ومنذ ذلك الحين طرأ تغيير كبير على المسجد ، فأنشئت بواجهته دكاكين شوهت جماله . وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية باصلاح المسجد ، فأزالت الدكاكين من الواجهة ، وأصلحتها فى عام ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م) ، كما أزالت السقف الحادث الذى كان يغطى الصحن ، وأزالت البياض الذى كان يحجب الزخارف الملونة والمذهبة ، وأعادت بناء الايوان الغربى ، وأصلحت قاعدة المنارة وذلك فى عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م) . وكذلك قامت بتقوية المبانى الحاملة للمسجد بالدور الأرضى .

على أن أهم عمارة أجريت به ، هى اعادة بناء المنارة والسبيل بجوارها طبقا لصورة فوتوغرافية قديمة مع الاقتباس من منارته بالناصرية . وقد تمت هذه العمارة فى عام ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) . وكان لها أحسن الأثر فى تجميل الميدان .

حسن عبد الوهاب



مدرسة قايتباى

صحراء قايتباى (القرافة الشرقية)

كانت المنطقة الممتدة من قلعة الجبل الى العباسية ، حتى أوائل القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) ، ميدانا فسيحا أعد للعب الكرة ، يعرف بميدان القبق ، أو ميدان العبد .

وفى النصف الأول من القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) ، بدأ ملوك مصر وامراؤها فى انشاء المساجد والخوانق بهذه المنطقة ، وألحقوا بها مدافن لهم . وقد تباروا فى هذا المضمار الخيرى حتى ازدحمت هذه المنطقة بالمساجد والمدارس ، تطاول السماء بمناراتها الرشيقة وقبابها المزخرفة .

وما انتهى القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد) حتى كانت بها مجموعة من المنشآت لم تجتمع فى صعيد واحد مثل ما اجتمعت فى هذه المنطقة . وفى آثارها يجد الفنان والمهندس خير الهام له ، ويرى بدائع الفن ، ما بين غنى ومتوسط . ومع ما أصاب كثيرا منها من ضياع وتخريب ، بقيت بها آثار معمارية على جانب عظيم من الأهمية .

وقد عرفت هذه المنطقة بقرافة الخلفاء ، وهى تسمية غير صحيحة ، فالأولى أن تسمى قرافة المماليك .

وأكثر من عنى بانشاء المبانى بها الملك الأشرف أبو النصر قايتباى ... فقد أنشأ بها ربعا كبيرا وحوضا لشرب الدواب ، وسبيلا ومقعدا ، ومدفنا لأسرته ، ومدرسة ، وقبة للشيخ عبد الله المنوفى ، وربعا آخر تجاه المدرسة خصصه لاقامة الصوفية... هذا عدا ملحقات المدرسة .

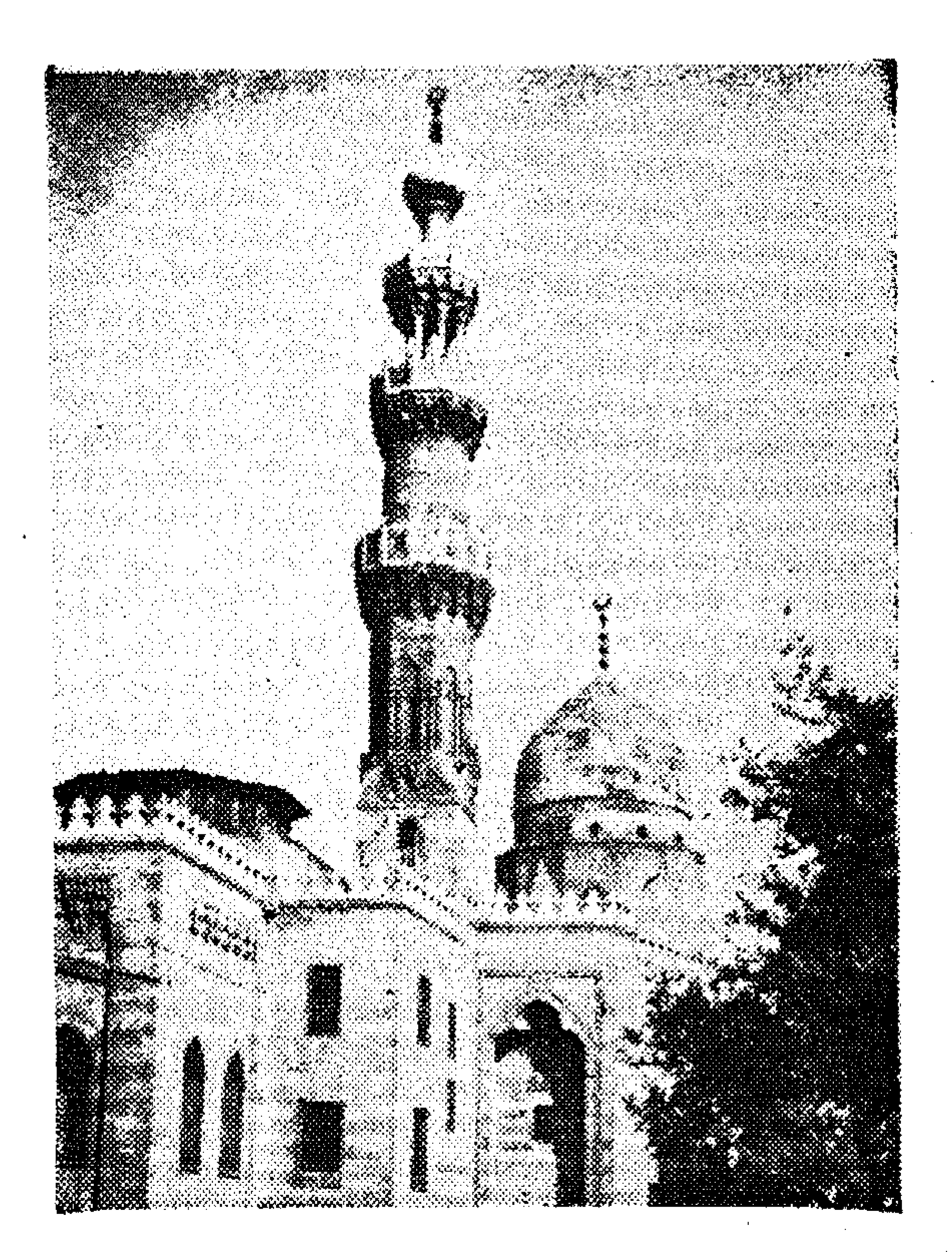
ودرة منشآت تلك المنطقة مدرسته ومدفنه .

السلطان قايتباى

والسلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى ، الجركسى المحمودى الأشرفى ، ثم الظاهرى ، ولد عام ٨٢٦ للهجرة (١٤٢٣ م) ، ثم اتصل بالملك الظاهر جقمق فأعتقه ، ولم يزل يترقى الى أن وصل الى وظيفة أتابك . ثم آل أمره الى ان بويع له بالسلطنة يوم الاثنين ٣ من رجب عام ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م)

وكان ملكا جليلا صالحا من خيرة ملوك الجراكسة وأطولهم حكما . فقد ظل ملكا لمصر نحو ٢٩ سنة ، كان فيها مثال الملك العادل الصالح .. ، فقد عنى بسياسة مصر الخارجية ، كما كان كثير العطف على مسلمى أسبانيا ، فحاول حمايتهم مما هم فيه من خطر ، وكان محبا للسفر ، مغرما بالعمارة ، واهتم اهتماما كبيرا بالأراضى المقدسة ، وله منشآت معمارية خيرية كثيرة بمكة والمدينة والقدس . وقل أن يخلو حى من أحياء القاهرة أو اقليم من أقاليمها ، أو قطر من الأقطار الاسلامية الا وله فيه أثر .

ومن منشآته فى مصر طائفة من المساجد والمدارس والوكالات والمنازل والأسبلة والقناطر ـ كما عنى بالحصون ، فأنشأ قلعة بالاسكندرية ، وأخرى برشيد ... وكلها منشآت امتازت بالروعة ، ودقة الصناعة .



مسجد قايتباى

وقد ظل متوليـــا ملك مصر الى أن توفى عام ٩٠١ هـ (١٤٩٦ م) وترك اســمه مسطورا على مايزيد على سبعين أثرا اســلاميا ما بين انشــاء وتجديد .

تاريخ انشاء المدرسة

بدىء فى انشاء المدرسة عام ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) وفرغ منها فى شهر رجب عام ٨٧٩ هـ (١٤٧٤ م) .

وهى مجموعة مكونة من مدرسة وملحقــاتها ، وتربة ، وسبيل ، وكتاب . والزائر لهــا يستهويه جمالها وروعتها . ولا غرو أن تكون موضع اهتمام زائرى مصر ، فقد جمعت أرقى ما وصل اليه فن المعمار فى عصر المماليك الجراكسة .

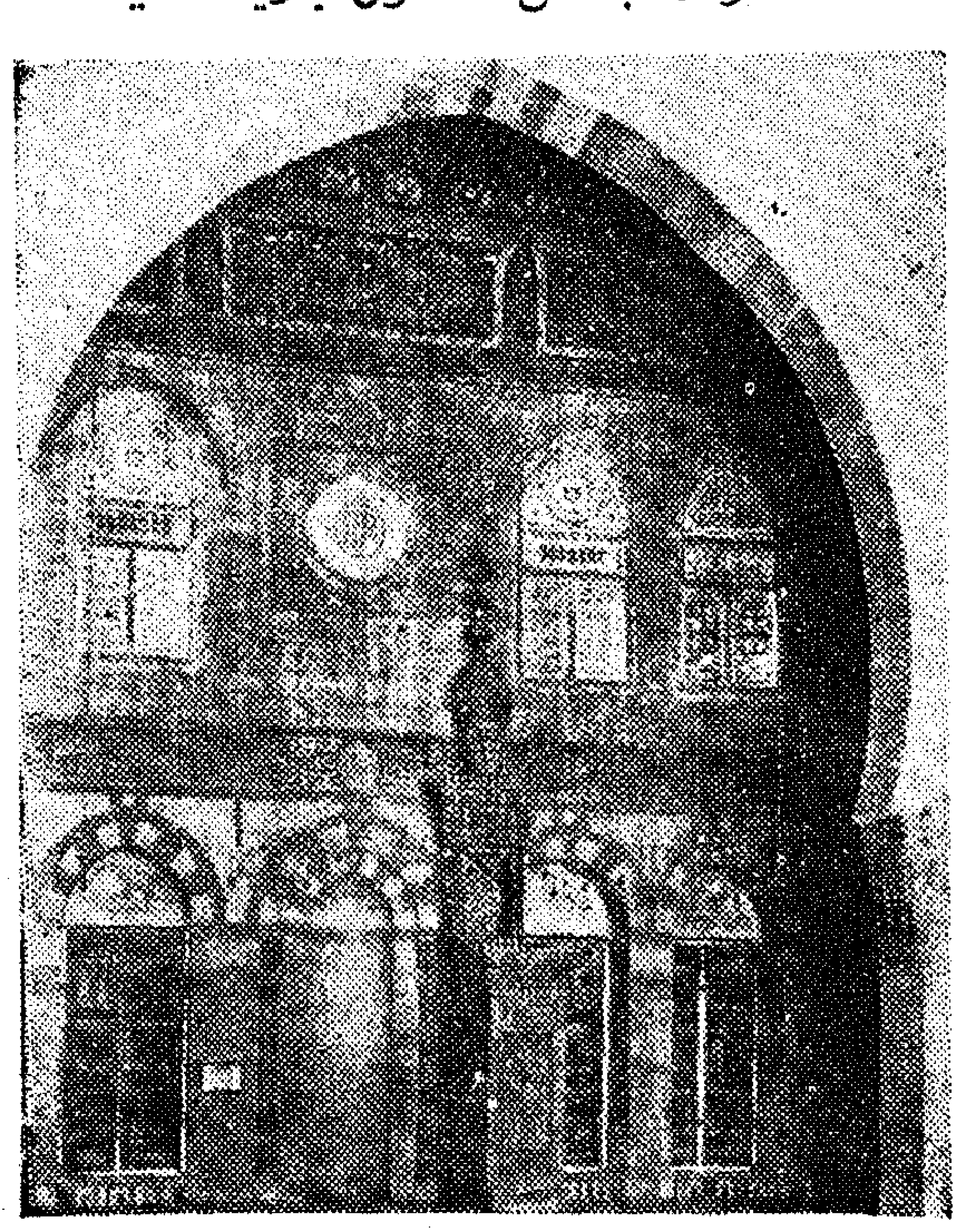
وواجهتها الرئيسية هى الواجهة البحرية ، وبها البــاب ، وقد حلى بالرخام الملون والكتابات ، وكسى مصراعاه بالنحاس ، وكتب على جانبيــه اسم قايتباى ، وتاريخ عام ٨٧٧ هـ ... كما تعلوه دائرتان رخاميتــان كتب فيهمــا : « عز لمولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى ... عز نصره » .

وعلى يســار الباب ســبيل يعلوه كتّاب له واجهتان : احداهما من عقدين — وهى الغربية — والثانية من ثلاثة عقود ، تحملها عمد منقوشة ، وهى الشرقية .

وتنتهى الواجهة الشرقية من الجهة القبلية بقبة عاليــة ، حلى سطحها بنقوش هندسية ومورقة ، وتعد هذه القبة من أجمل القباب .

وعلى يمين البــاب منارة رشــيقة من ثلاث دورات ، حــلى بدن دورتهــا الأولى بنقوش وكتابات ، أما بدن الدورة الثانيــة فقــد حلى بنقوش مورقة . وتقوم الدورة الثالثة على عمد رشيقة .

وهذا الباب يؤدى الى طرقة مربعة بصدرها مسطبة مفروشة ، مؤزرة بالرخــام الملون ، على جانبيها دولابان بكل منهما أربعــة مصــاريع ، طعمت حشواتها بالسن المدقوق بأويمة دقيقــة ،



القبلة والمنبر بجامع قايتباى

وعلى يمينها ويسارها بابان : الأيسر منهما هو باب السبيل ، وقد كتب فى دائرة فوق عقده بزخرفة بارزة : « قل كل يعمل على شاكلته » .

والباب الأيمن يؤدى الى طرقة مستطيلة بصدرها باب المنارة ، تجاوره مزيرة على وجهها حجاب من الخشب المخروط ، مكتوب عليه بالكوفى المربع : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » ومكتوب على بابها : « بسم الله الرحمن الرحيم . يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

وتنتهى هذه الطرقة الى صحن المدرسة . وقد فرشت أرضية هذا الصحن برخام ملون ، كما فرش كل قسم من أرضيات الايوانات والمداخل برخام يغاير رخام القسم الآخر . ويغطى الصحن سقف يتوسطه منور نقش بزخارف ملونة ومذهبة .

ويحيط بالصحن أربعة ايوانات معقودة يأخذ بالأبصار ما حوته من نقوش وشبابيك جصية زجاجها ذو ألوان جذابة .

وقد حليت أرجل عقود الايوانات بمقرنصات مزخرفة مذهبة . وقد حرص المهندس على المضاهاة ، فلم يترك بابا الا فتح أمامه بابا أو دولابا على هيئة باب .

وأكبر هذه الايوانات ايوان المحراب ، وقد أحيط بكتابة مذهبة ، وغطى بسقف ملون مذهب .

والمحراب ، وان كان عاريا من الزخرف ، الا أن به عمودين مثمنين ، بدناهما وقاعدتاهما وتاجاهما بنقوش جميلة ... كما لبست طاقيته بحجر أحمر على هيئة شرفات . وبجوار المحراب منبر دقيق ذو حشوات من السن المدقوق « أويمة » وقد ذهبت قوائمه .

أما الايوان الغربى فقد قسم أقساما ثلاثة تعلوها أسقف ملونة مذهبة . وفى القسم القبلى منه حجرة المكتبة : لا تزال رفوفها موجودة بعد أن نقل ما بقى فيها من كتب الى دار الكتب .

والقبة تلاصق الايوان الشرقى من قبليه ، وهى قبة عالية جدا ، وقد نقشت من الخارج فى الحجر ، كما نقشت من الداخل بزخارف مذهبة ملونة ، وبها مجموعة من الشبابيك الجصية الدقيقة ، وأحيطت جدرانها بوزرة رخامية تنتهى بافريز مكتوب فيه اسم المنشىء ، وتاريخ الفراغ من القبة .

وبها كرسى للمصحف مطعم بالسن المدقوق « أويمة » ، مثل المنبر ، ومكتوب عليه « أمر بانشاء هذا الكرسى الملك الأشرف قايتباى بتاريخ شهر ربيع سنة ثمان وسبعين وثمانمائة » .

وبالقبة محراب حجرى كسى أسفله بأشرطة رخامية ، وبقيته وطاقته وعقده حليت بزخارف مدقوقة بالحجر وملونة ، وأمامه مقصورة خشبية بداخلها قبر المنشىء . وقد فرشت أرضيتها بالرخام الدقيق .

وقد دفن فى هذه القبة أيضا ابنه الملك الناصر محمد ، وابنا عمه جانم وجانى بك .

ويجاور قبر قايتباى قبة نحاسية مذهبة تحتها حجر أسود به أثر قدمين ، يقال انهما للنبى صلى الله عليه وسلم ! كما يوجد بجوار قبر ابنه قبة أخرى خشبية تشبه المسلة ، بها حجر به أثر قدم يقال انه قدم الخليل ابراهيم عليه السلام ! وكلاهما غير صحيح . لأنه يوجد بمصر أقدام أخرى متفاوتة المقاس ، كما توجد أقدام فى قبة الصخرة بالقدس ، والطائف ، والقسطنطينية ، وكذلك فى الأقطار الاسلامية أقدام منسوبة الى آدم بالهند ، والخليل بالحرم المكى ، وموسى بظاهر دمشق ، وعيسى ببيت المقدس .

حسن عبد الوهاب

مدرسة قجماس الاسحاقى

الأمير قجماس الاسحاقى ، نشأ فى خدمة أستاذه « جقمق » الذى عنى بتعليمه وتجويده الخط ، فنبغ فيه ، ثم رقاه الى جملة وظائف .

وفى دولة الظاهر خشقدم عينه خازندارا [1] ، ثم رقى فى دولة الظاهر بلباى أمير عشره .

ولما ولى ملك مصر الملك الأشرف قايتباى ، كان من المقربين اليه ، فعينه نائبا للاسكندرية فى عام ٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م) ، فأنشأ بها مسجدا خارج باب رشيد وأنشأ بجانبه تربة وخانا ، وجدد جامع الصوارى خارج باب سدرة ، كما أنشأ خارج باب البحر رباطا [2] .

وفى عام ٨٨٠ هـ (١٤٧٥ م) عينه أمير آخور [3] كبيرا لمصر . وفى أثناء توليته هذه الوظيفة سافر الى الاسكندرية للاشراف على عمارة قلعة قايتباى هناك .

وفى عام ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) عينه نائبا للشام ، فأنشأ بها مدرسة ، وبقى بها الى أن توفى فى شوال عام ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ، ودفن هناك .

كان حسن السيرة مؤدبا ، متواضعا محبا للعلماء والصالحين . ولم يبق من منشآته المعمارية التى أنشأها بمصر والاسكندرية سوى هذه المدرسة . ولم يدفن بقبتها التى أعدها لنفسه ، بل دفن فيها أحد الصالحين ، وهو الشيخ أحمد أبو حريبه ، المتوفى عام ١٢٦٨ هـ (١٨٥١ م) فعرفت به .

(١) خازندار : وظيفة لمن يشرف على خزائن السلطان أو الامير .

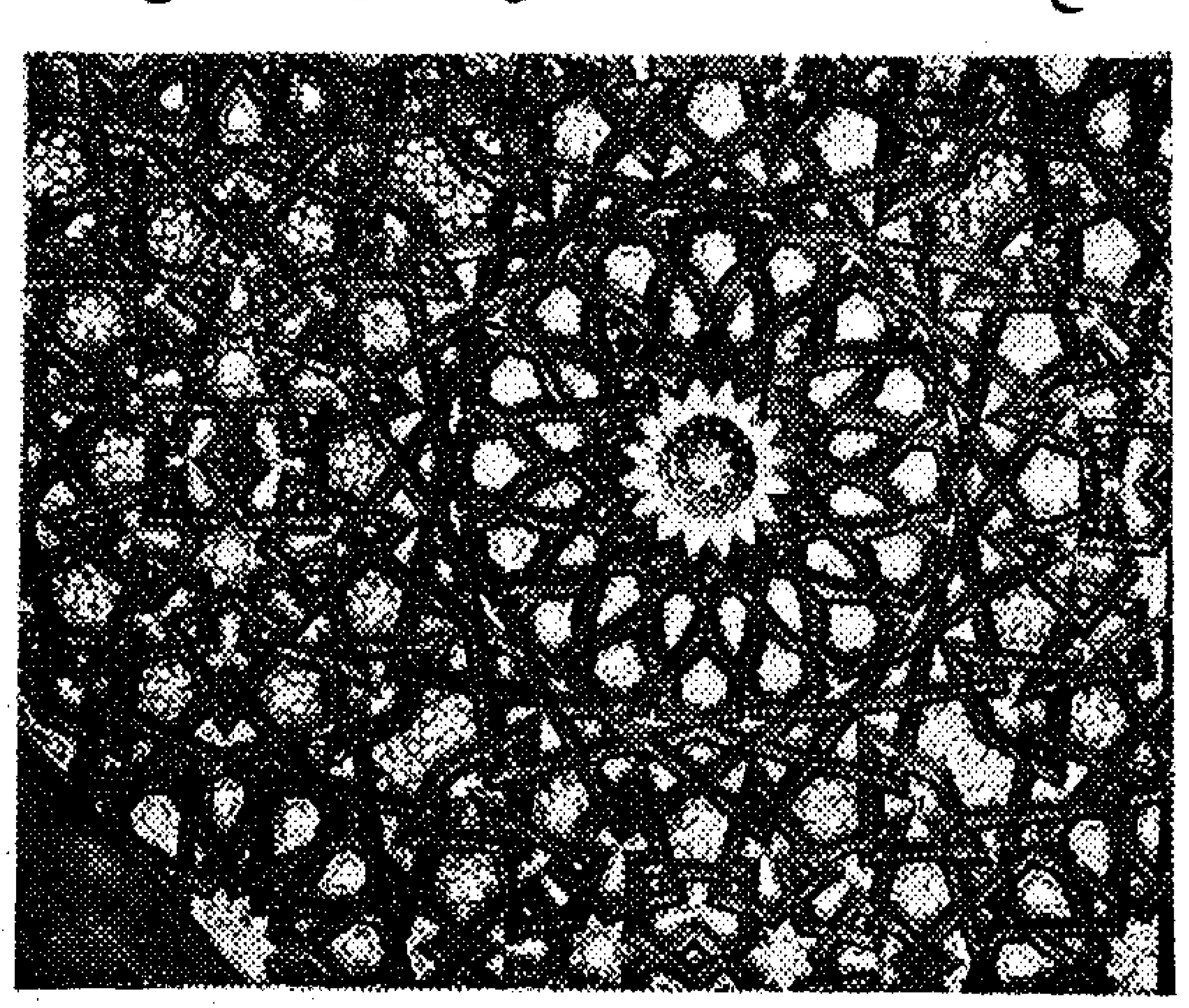
(٢) الرباط : هو سكن الصوفية والمنقطعين من الفقراء .

(٣) أمير آخور كبير : المشرف على الاصطبلات الخاصة والبريد والهجن .

تاريخ المدرسة ووصفها

لم تحدد النصوص التاريخية تاريخ البدء فى انشاء هذه المدرسة ، بل حددت كلها تاريخ الفراغ منها فى سنى ٨٨٥ و ٨٨٦ و ٨٨٧ للهجرة . ولما كنا نعرف انه عين واليا على الشام فى أواخر عام ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) . فاننا نستنتج أنه شرع فى بنائها عام ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) ، أو قبل ذلك ... لأن النصوص التاريخية الداخلية بالمدرسة ، المؤرخة عام ٨٨٥ هـ ، تضمنت ذكر وظيفة « أمير آخور » ، وكتابة المدخل العمومى ، المؤرخة ٨٨٦ هـ ، خالية من ذكر الوظيفة . وهذا يؤكد أن أعمال البناء ظلت سائرة فى المدرسة بعد سفره الى الشام . كما أن أعمال النجارة لم تنته الا فى سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) .

وتقع هذه المدرسة بشارع الدرب الأحمر ، وهى مرتفعة عن مستوى الشارع ، وتحت واجهاتها الأربع حوانيت ، وكانت من أحفل مدارس دولة



ريشة مينى مسجد قجماس الاسحاقى

المماليك الجراكسة ... بل تعد نموذجا كاملا لكثير منها . والمدرسة غنية بشتى الفنون الاسلامية ، وتكون مجموعة أثرية هامة ، فقد ألحق بها سبيل ، ثم ساباط يؤدى الى الميضأة تعلوه مشربية ، فحوض لشرب الدواب يعلوه كتاب لتعليم الأطفال .

وهى منسجمة متناسقة ، تنتقل العين فيها من حسن الى أحسن : فالباب العمومى ، وأعتاب الشبابيك محلاة بالرخام الملون ، وجلسات الشبابيك وأعتابها وأعتاب الأبواب ، وعمد النواصى محلاة بنقوش فى الحجر متنوعة .

ويقوم على يسار الباب منارة رشيقة من ثلاث دورات : دورتها الأولى مثمنة ، ثم بدن مستدير ، فالدورة الثالثة محمولة على عمد رخامية . كما يجاوره سبيل صغير فرشت أرضيته بالرخام الدقيق ، وله سلسبيل رخامى سقفه الخشبى محلى بنقوش مذهبة ملونة .

وركب على الباب مصراعان غشيا بالنحاس المفرغ ، ومكتوب بالرأس العلوى اسم المنشىء بما نصه : « المقر الأشرف العالى السيفى قجماس أميرآخور كبير الملكى الأشرفى ، أعز الله أنصره» ، وله سحاحتان رأساهما على هيئة حيوان مكتوب على جانبيه ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا صدق الله العظيم . وكان الفراغ من الجامع فى شهر الله المحرم عام ست وثمانين وثمانمائة » .

ويؤدى الباب الى طرقة مربعة ، على يمينها صفة بها باب صغير يؤدى الى منور عليه باب للقبة ، وهو أحد ابتكارات المهندس التى تغلب بها على ما صادفه من شطرات فى الأرض ، وعلى يمينها باب كبير له مصاريع جرارة تسير فى مجراة ، وتدخل فى سمك الجدار .

وطريقة الأبواب والشبابيك الجرارة كان المظنون أنها من المبتكرات الحديثة ، ولكنها وجدت فى هذه المدرسة ، وفى مدرسة أبى بكر مزهر المعاصرة لها ، ثم رأيناها بعد ذلك فى شبابيك الدور فى العصر التركى .

ومن الطرقة الثانية يتوصل الى صحن المدرسة المفروش بالرخام ، وقد أحدقت به أربعة ايوانات : اثنان كبيران — هما الشرقى والغربى — واثنان صغيران — هما القبلى والبحرى — كما يشرف على هذا الصحن أبواب تؤدى الى حجرات علوية ، ومنها ما يؤدى الى الساباط الموصل الى دورات المياه .

وأينما اتجهت العين فى داخل هذه المدرسة ، فانها لاترى الا صناعة دقيقة ، والوانا زاهية ... فالأرضيات بالصحن ، والايوانات فرشت برخام ملون تنوعت أشكاله ، وأسقف الايوانات والشخشيخة ملونة مذهبة ، والجدران بها نقوش وكتابات ، كما تنوعت أشكال الشبابيك الجصية .

وان ايوان المحراب ليستهوى الناظر اليه بما حواه من صناعات دقيقة وألوان أخاذة ، فقد كسى صدره بوزرة رخامية ارتفاعها نحو أربعة أمتار ، وحليت خواصر العقود وتواشيحها برخام مطعم بالمعجون ، ومكون بأشكال زخرفيه . وهذا نوع من الزخرف شاع فى دولة المماليك الجراكسة ، استغنى به عن تجميع الرخام الخردة ، أو تلبيس القطع الملونة فى الرخام الأبيض .

والمحراب — وهو يتوسط الايوان — يجمع بين أشرطة رخامية ورخام مطعم بالمعجون الملبس ، الى طاقية من رخام دقيق معدودة من النماذج النادرة ، وكتب بتجويفته بالخط الكوفى قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » .

وقد اعتز الصانع بعمله هـذا ، فكتب اسمه بشكل زخـرفى فى تجويفـة المحراب وأحجـار الشبابيك بما نصه : « عمل عبد القادر النقاش » . وسواء أكان نقاشا أو مرخما فهو صـانع ماهر ، وهو الذى قام أيضـا بأعمال النقش فى المحراب بايوان المدرسة المزهرية بحارة برجوان ، المنشأة عام ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) ، وهى من طرائف العمارة الاسلامية .

وجميل أن نعثر على اسم هذا الصانع مدونا على أعمال تشرفه ونحن فقراء فى أسـماء الصناع ، فلا يوجـد لدينا منهـا الا القليل — بنمـاذج معدودة — لنجارين ومرخمين ، أحصيت وصورت ما عثرت عليه منهـا منقوشـا على الآثار الثابتة والمنقولة فى الآثار الاسلامية بمصر والاقاليم

ويجاور المحراب منبر خشبى جمعت حشواته فى صور دقيقة ، وطعمت بالسن والزرنشان وهو من النماذج المعدودة فى دقة الصـناعة وتنوعها ، ومكتوب عليه « أمر بانشاء هذا المنبر المبارك ، المقر الأشرف ، العـالى السيفى ، قجماس ، أمير آخور كبير ، الملكى الأشرفى ، عز نصره » .

وفى الجانب القبلى للايوان الشرقى باب يؤدى الى القبة ، تكتنفه زخارف حجرية مذهبة وهى قبة شاهقة مبنية بالطوب ، عارية من الزخرف . ولا شك فى أنها أبسط جزء فى هذا الأثر فقد ألفنا أن نرى قباب هـذا العصر مبنية بالحجر ، وسطوحها الخارجية فى هيئـة دالات أو شرفات مورقة ، كما ينقش داخلها بالبوية أحيانا ... كما فى قبـاب قايتبـاى ، وقانصـوه أبى سـعيد ، والكلشنى وغيرها .

ويكتنف عقود الايوانين البحرى والقبلى عقود محـارية بتواشيحها ، وأعلاها زخارف حجرية . ويحيط بجدران الايوان الغربى افريز مكتوب فيه ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » . الى قوله تعـالى : «يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . وكان الفراغ من هذا الجامع فى شهر رمضـان المعظم قدره ، سنة خمس وثمانين وثمانمائة من الهجرة » ومكتوب على كرسى السورة : « أمر بانشاء هذا الكرسى المبـارك المقـر السيفى قجماس ، كافل المملكة الشامية ، سنة سبع وثمانين وثمانمائة » .

ومع أن هذه المدرسة توافرت فيها كل مميزات المدارس ، فقد رأينـا نصوصها التاريخية تنعتها بالجامع وهذا يوضح أن الرغبة الأولى لمنشئيها هى اعدادها لاقامة الشعائر ، ثم الحاق مدافن لهم بها ولما كان تصميم المدرسة هو الشائع فى هذا الوقت ، فقد غلب على تصميم المسجد ، بصرف النظر عما اذا كان المكان أعد للتدرس أو لم يعد له ، ودون أن تتقيد بنعته مدرسة أو جامعا

وما ان تم بنـاء المدرسـة حتى أمر قجماس بتعيين مدرس لها ، وقارئ للبخـارى ، ونقـل ما كان قرره من النصوص بجامع الأزهر اليها .

وقد عنيت ادارة حفظ الآثار العربية باصلاح هذه المدرسة اصلاحا شاملا منـذ عام ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) فكشـفت عن جوانبهـا ، وأكملت المنارة ، وأصـلحت المنبر والرخام والسـقوف والأرضيات الرخامية ، حتى أعادت اليها رونقها بالمينا .

حسن عبد الوهاب

جامع قرطبة

كانت قرطبة قاعدة الأندلس وقطبها ، وأم مدائنها ومستقر خلفائها . وكانت — على حد قول الحجارى فى المسهب — قرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الاقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الاسلام ، وحضرة الأنام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درور القرائح . ومن أفقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائقة ، وصنفت التصنيفات الفائقة .

اشتهرت قرطبة ، منذ أن افتتحها المسلمون ، بتفوقها الثقافى وسموها العلمى . وكان يضرب بأهلها المثل فى اقتناء الكتب ، والاقبال على العلوم والأدب ، حتى أصبح ذلك شرطا لازما من شروط التعيين والرياسة . وذاعت شهرتها فى العالم أجمع فى العصور الوسطى ، حتى أصبحت بحق حلية الدنيا ومفخرة العالم .

وكان الفضل الأعظم فى شهرتها يرجع قبل كل شىء الى جامعها الأعظم الذى يعد من الوجهة الفنية أروع أمثلة العمارة الاسلامية والمسيحية على السواء فى العصر الوسيط ، ومن الوجهة العلمية أعظم جامعة اسلامية تدرس فيها علوم الدين واللغة ، ويفد اليها طلاب المسلمين والمسيحيين للدرس والتحصيل .

ويقول الرازى فى جملة ما قاله عن قرطبة : « قرطبة أم المدائن ، وسرة الأندلس ، وقرارة الملك فى القديم والحديث والجاهلية والاسلام ... وبها القنطرة التى هى احدى غرائب الأرض فى الصنعة والاحكام ، والجامع الذى ليس فى بلاد الأندلس والاسلام أكبر منه » .

أما الحميرى فيقول فى كتابه الروض المعطار : « ... وفيها المسجد الجامع المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجل مصانع الدنيا كبر مساحة ، واحكام صنعة ، وجمال هيئة ، واتقان بنية ... تهمم به الخلفاء المروانيون ، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة ، وتتميما اثر تتميم ، حتى بلغ الغاية فى الاتقان ، فصار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن حسنه الوصف » .

ويقول الشريف الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » :

« ... وفيها المسجد الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقا وطولا وعرضا » .

وكان جامع قرطبة احدى روائع أربع ، اشتهرت بها حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس ، وفى ذلك يقول أحد الشعراء :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم أعظم شىء ، وهو رابعها

وقد بالغ مؤرخو العرب فى المغرب والأندلس فى وصف هذا المسجد ، وصوروه تصويرا أقرب الى الخيال ، واختصوه بعنايتهم ، وعظموه وأجلوه ، وكتبوا فى تاريخه ووصفه فصولا طويلة تعد من أهم المصادر عن هذا الأثر الخالد الجليل .

ويرجع هذا التعظيم والاجلال لجامع قرطبة الى أن حنش بن عبد الله الصنعانى وأبا عبد الرحمن الحبلى التابعين ، قد توليا تأسيسه بأيديهما ، وقوما محرابه . وقد احتفظ الأمير عبد الرحمن الأوسط بهذا المحراب النفيس عند زيارته لبيت الصلاة ، فنقله من موضعه القديم ، وركزه فى القبلة الجديدة . كذلك احتفظ المسجد الجامع فى سائر زياداته باتجاه القبلة الذى حدده حنش الصنعانى رغم انحراف هذا الاتجاه عن الاتجاه الصحيح .

وذكر بن سعيد المغربى فى « المغرب » ، حضور الخليفة الحكم المستنصر بالله عند توليه الخلافة لمشاورة العلماء « فى تحريف القبلة الى نحو الشرق حسبما فعله والده الناصر فى قبلة جامع الزهراء ... لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة نحو الغرب . فقال له الفقيه أبو ابراهيم : يا أمير المؤمنين ، انه قد صلى الى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة ، وصلحاء المسلمين وعلمائهم ، منذ افتتحت الأندلس الى هذا الوقت ، متأسين بأول من نصبها من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعانى وأمثالهم رحمهم الله تعالى . وانما فضل من فضل بالاتباع ، وهلك من هلك بالابتداع ... فأخذ الخليفة برأيه وقال : نعم ما قلت ، وانما مذهبنا الاتباع » .

ومن مظاهر اجلال المسلمين وتعظيمهم لهذا الجامع ما نعته به مؤرخو العرب ، فقد سماه عبد الواحد المراكشى ، ولسان الدين بن الخطيب ، وابن بشكوال ، الجامع الأعظم . وقد بلغ من اجلال أهل الأندلس ، وتعظيمهم لمسجدهم بقرطبة ، أن جعلوه مركزا دينيا يحجون اليه . وفى ذلك يقول ابن المثنى ، شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، من قصيدة :

بنيت لله خير بيت ... يخرس عن وصفه الأنام
حج اليه بكل أوب ... كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه ، اذا ما حـ ... ـف به ، الركن والمقام !

وقارنه أحد الشعراء بالمسجد الحرام فى قوله :

بنى مسجدا لله لم يك مثله ... ولا مثله لله فى الأرض مسجد
سوى ما ابتنى الرحمن والمسجد الذى ... بناه نبى المسلمين محمد

وكان تعظيم جامع قرطبة عند المسلمين فى المشرق والمغرب ، سببا فى قدومهم لزيارته ، والاحتفال بالمناسبات الدينية الاسلامية فى بيت صلاته ، باعتباره أكبر مساجد المغرب والأندلس قاطبة وأعظمها .

وقد حفظ لنا المقرى نصاً لأبى محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الولبنى يصف فيه المسجد ، عندما جاء الى قرطبة لحضور الاحتفال بليلة القدر فيه ، فيقول : « وانى شخصت الى حضرة قرطبة — حرسها الله — منشرح الصدر لحضور ليلة القدر ، والجامع — قدس الله بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه — قد كسى ببردة الازدهاء ، وجلى فى معرض البهاء ... كأن شرفاته [1] فلول فى سنان أو أشر فى أسنان ، وكأنما ضربت على سمائه كلل ، أو خلعت على أرجائه حلل .. وكأن الشمس خلفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فترى نهارا قد أحدق به ليل ، كما أحدق بربوة سيل ، ليل دامس ونهار شامس ..

« وللذبال [2] تألق كنضنضة الحيات ، أو اشارة السبابات فى التحيات ... قد أترعت من السليط [3]

(1) يقصد الشرفات الهرمية التى تشبه اسنة المنشار ، والتى تعلو جدران الجامع .

(2) الذبال هو الفتيلة التى توضع فى المصباح .

(3) السليط هو نوع من الزيوت التى تستخدم فى المصابيح

كئوسها ، ووصلت بمحاجن الحديد رءوسها ، ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة ، أو كالثعابين العائمة ، عصبت بها تفاح [1] من الصفر [2] ، كاللقاح الصفر ، بولغ فى صقلها وجلائها ، حتى بهرت بحسنها ولألائها ، كأنها جليت باللهب وأشربت ماء الذهب ... ان سمتها طولا [3] رأيت منها سبائك عسجد أو قلائد زبرجد ، وان أتيتها عرضا رأيت أفلاكا ولكنها غير دائرة ، ونجوما ولكنها ليست بسائرة ، تتعلق تعلق القرط من الذفرى [4] ، وتبسط شعاعها بسط الأديم حين يفرى ...»

« والشمع قد رفعت على المنار [5] رفع البنود ، وعرضت عليها عرض الجنود ، ليجتلى طلاقة روائها القريب والبعيد ، ويستوى فى هداية ضيائها الشقى والسعيد . وقد قوبل منها مبيض بمحمر ، وعورض مخضر بمصفر ... تضحك ببكائها ، وتبكى بضحكها ، وتهلك بحياتها ، وتحيى بهلكها » .

ثم يصف ابن صاحب الصلاة رائحة البخور ، وهو يتصاعد من المجامر ، فيقول : « والطيب تفغم أفواحه وتتنسم أرواحه ، وقتار الألنجوج والند [6] يسترجع من الحياة ما ندّ [7] . وكلما تصاعد وهو محاصر ، أطال من العمر ما كان قد تقاصر ، فى صفوف مجامر ، ككعوب مقامر ... » .

ثم يصف قباب المسجد من الداخل والخارج ، ويصف زخارفها التى تكسو الضلوع البارزة ، والمحراب وما يحيطه من نقوش وزخارف ، فيقول :

(١) يقصد بالتفاح كرات مستديرة .
(٢) نوع من النحاس الاصفر او اللاطون .
(٣) يقصد ان ذهبت اليها او قصدتها .
(٤) شحمة الاذن .
(٥) المئذنة .
(٦) البخور .
(٧) ما ذهب .

« وظهور القباب مؤللة [1] ، وبطونها مهللة [2] ... كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان ، قد قوس محرابها أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش الطواويس ، حتى كأنه بالمجرة مقرطق ، وبقوس قزح ممنطق . وكأن اللازورد حول وشومه وبين رسومه نتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام ... » .

ثم ينتقل من وصفه للجامع الى وصف المصلين فى داخله ، وهم راكعون أو وهم قائمون ، فيقول : « والناس أخياف فى دواعيهم ، وأوزاع فى أغراضهم ومراميهم بين ركع سجد ، وأيقاظ وهجد ، ومزدحم على الرقاب يتخطاها ، ومقتحم على الظهر يتمطاها ، كأنهم بَرَد خلال قطر ، أو حروف فى عرض سطر ... حتى اذا ما قرعت أسماعهم روعة التسليم تبادروا بالتكليم ، وتجاذبوا الأثواب ، وتساقوا بالأكواب ، كأنهم حضور طال عليهم غياب ، أو سفر أتيح لهم اياب » .

ثم يختتم قوله بوصف حلقات الدرس والعلم داخل المسجد ، فيقول : « وصفيك مع اخوان صدق تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق ... نسمع سور التنزيل كيف تتلى ، وتتطلع صور التفصيل كيف تجلى » .

هذا الوصف الرائع البليغ الذى سجله قلم أحد كتاب الأندلس فى عصر الموحدين ، يصور لنا المكانة التى كان يشغلها جامع قرطبة عند المسلمين ، ومدى تعظيمهم لبنائه ، واعجابهم بزخارفه ونقوشه ، واقبالهم على الدروس الدينية التى كانت تعقد بين بلاطاته وحول أساطينه ، وهو ينطبق بصورة لا تدع مجالا للشك على جامع قرطبة فى الوقت الحالى .

كذلك وصف هذا الجامع جمهرة من مؤرخى

(١) مسنمة الشكل او هرمية .
(٢) تشبه الاهلة ويعنى بها الاقواس المتقاطعة داخل القبة .

العرب وجغرافييهم ، وأصبح ذكر الجامع لا يخلو من جميع تواليفهم . ولولا أن هـذا الأثر العظيم لا يزال راسخا فى مكانه حتى اليوم ، تشهد عناصره بصدق أقوالهم ، لكنا قد اعتبرنا هذه الأوصاف ضربا من الخرافة ، أو نوعا من المبالغة الخيالية .

ولسنا نقصد من ذلك أن ما قيل عن جامع قرطبة كله حقيقى يجب تصديقه والأخذ به ، فان أقوال بعض المؤرخين ، عند وصفهم لروائع الآثار ، تشوبها فى بعض الأحيان الروح الأسطورية ... فبعضهم ينسج من محض خياله قصصا تمتزج فيها الخرافة بالحقيقة ، وذلك مبالغة منهم فى تعظيم الجامع . مثال ذلك ما ذكره عبد الواحد المراكشى من أنه لما دخل ألفونسو الأول ، ملك أرغون ، مدينة قرطبة فى عام ٥٠٣ هـ « دخل النصارى فى هذا المسجد بخيلهم ، فأقاموا به يومين لم تبل دوابهم ، ولم ترث حتى خرجوا منه » . ويضيف المراكشى قائلا : « وهذه الحكاية مما تواتر عندهم، واستفاض بقرطبة » .

كما ذكر ابن بشكوال فى رواية أن « موضع الجامع الأعظم بقرطبة كان حفرة عظيمة بطرح فيها أهل قرطبة قمامتهم وغيرها ، فلما قدم سليمان ابن داود — صلى الله عليهما — ودخل قرطبة ، قال للجن : اردموا هذا الموضع وعدلوا مكانه ، فسيكون فيه بيت يعبد الله فيه ... ففعلوا ما آمرهم به . وبنى فيه بعد ذلك الجامع المذكور » .

وقال المقرى : « قد شاع وذاع على ألسنة الجم الغفير من الناس فى هذه البلاد الشرقية وغيرها ، أن فى جامع قرطبة ثلثمائة ونحو ستين طاقا على عدد أيام السنة ، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق الى أن يتم الدور ثم تعود » . وذكر أبو حامد الغرناطى الأندلسى فى كتابه عجائب المخلوقات [1] أن « بهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر مكتوب على الواحد اسم محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى الثانى صفة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الآخر صورة غراب نوح ... الثلاثة خلقة ربانية » .

هذا كله يؤلف موضوعا من موضوعات القصص الشعبى الأندلسى الذى تواتر على مر العصور ، فأورده المؤرخون نقلا عن ألسنة العامة ، ومع ذلك فقد أوضحوا فى كثير من الأحيان أنه مما شاع بين الناس ، حتى يميزوا بين ما يقولونه هم أنفسهم طبقا لما شاهدوه فى رحلاتهم ، وبين ما قاله عامة الناس .

ولم يكن جامع قرطبة موضع اجلال المسلمين فحسب ... بل كان يتردد عليه عدد كبير من النصارى ، اذ كان ينظر اليه باعتباره أروع الآثار المعمارية فى وقت كانت أوربا تنغمس فيه فى ظلمات الجهل والانحطاط . وقد زاره كثيرون من سفراء ملوك أسبانيا المسيحية وألمانيا وفرنسا ضمن الروائع الفنية التى يزهى بها الاسلام فى الأندلس ، وقد نقلوا عند عودتهم كثيرا من عناصره الزخرفية فى كنائسهم وقصورهم .

ثم ان جامع قرطبة كان يعد أعظم جامعة غربية فى أوربا فى العصر الوسيط . وقد قيل ان الراهب جيربير ، الذى أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثانى ، أتم دراسته فى جامع قرطبة . ولا نشك فى أن كثيرين من نصارى الأندلس الذين كانوا يعيشون تحت ظل المسلمين ، قد تعلموا فيه علوم العربية ، واستعربوا — أى تثقفوا بالثقافة

(1) مخطوطة محفوظة اليوم بمكتبة جامعة أكسفورد تحت رقم Hunt 565.

العربيـــة — اذ وجـدوا أنفســهم مضطرين الى مشاركة المسلمين فى حياتهم ، رغبة فى تقلد المناصب الكبرى فى الادارة ودواوين الحكومة . وقد نبغ بعضهم فى آداب اللغة العربية ، وظهر منهم الشعراء والكتاب .

وكان النصارى ، فى المقاطعات الاسبانية الشمالية ، يعظمون جامع قرطبة ، ويبجلون بقعته « لكنيسة كانت فى الجانب الغربى منه معظمة عندهم ، عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم » . ولذلك رغب ألفونسو الســـادس ملك قشتالة وليون ، حوالى عام ١٠٧٥ م ، فى ارسال زوجته الى جامع قرطبة — وكانت حاملا — لتلد فيــه ، لما أشـار عليه القسيسون بذلك تبركا بمكانه .

وعلى الرغم من العدد الهائل من الأبحاث التى كتبها علماء الآثار الغربيون عن هذا الأثر ، ما زالت هناك مشكلات قائمة يتعلق أكثرها بتاريخ الجامع وبنائه . منها مشكلة تحديد عدد بلاطات الجامع فى بداية بنائه ، ومشكلة تفســير وجود أسلوبين زخرفيين مختلفين فى هذا المسجد الأول ، ومشكلة تفسير وجود طرازين مختلفــين لكوابيل فى بيت الصلاة فيــه ، ومشكلة الدور الذى لعبــه الأمير محمد فى هذا المسجد ، وكيف وصل المسجد الى مساحته الحــالية ، ومشكلة الأسقف التي كانت تعلوه ... الى آخره .

وهذه كلها مشكلات شائكة لم يتوصل العلماء بعد الى حلها . وقد قمت بمحاولات كثيرة فى هذا السبيل أدت الى الوصول الى نتائج طيبة ، وافقنى عليها مؤرخو الفن الاسبانى : أمثال الأستاذ لامبير ، والأســتاذ جاستون ڤييت ، والمرحوم الأســتاذ ليڤى بروڤنســال ، والسنيور توريس بلبـاس ، والســنيور فيلت هرناندث ، والسنيور جـيريرو لوڤيو [١] .

وقد اضطررت الى التوسل بالمدونات العربيــة التاريخية التى كتبت عن تاريخ الجامع ، والتى تعد المصدر الأول لتاريخه ، وقمت بدراستها بالتفصيل ، وطبقت النصوص التاريخية وما قرأته من نقوش كتابية داخل الجامع على الحقــائق الأثــرية التى أســفرت عنها الحفائر فى أرضـية بيت الصــلاة والصحن .

المسجد الجامع فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل

ذكر ابن عذارى المراكشي فى كتابه « البيان المغرب » ، نصــا للرازى عن الفقيــه محمــد ابن عيسي ، نســتنتج منــه أن المســلمين ، عند افتتاحهم قرطبــة ، امتثلوا ما فعــله أبو عبيدة ابن الجراح وخالد بن الوليــد ، عن رأى عمر ابن الخطاب ، من مشاطرة المسيحيين فى كنائسهم مثل كنيسة يوحنا المعمــدان بدمشق وغيرها مما أخذوه صلحا ... اذ أن الفن الاسلامى فى هــذا العصر المبكر لم يكن قد نبتت بذوره بعد

وكان المسلمون حديثى عهد بالبلاد المفتوحة ، فكان من الطبيعى أن يجهلوا مصــادر استخراج الرخام والحجر والخشب وغيرها من مواد البناء ، فاضطروا الى استغلال الأبنية المســيحية فى اقامة مساجدهم ... والمسجد بحق هو أساس العمران الاسلامى فى العصور الوســطى ، والمركز الدينى

---

(١) نشرت اولى هذه المحاولات فى مجلة Al-Andalus الإسبانية تحت عنوان :

(Cronologia de la mezquita de Cordoba levantada por Abd er-Rahman.I Revista Al-Andalus. vol XIX, fasc. 2, 1954.

ثم ذكرت النتائج التى وصلت اليها فى رسالتى بالفرنسية Textes Arabes relatifs à la grande mosquée de Cordoue

ونحن فى سبيل ترجمة هذه الرسالة الى اللغة العربية .

الذى تلتف حوله بقية المراكز العمرانية للمدينة الاسلامية ، والقلب الذى ينبض بحياتها .

وهكذا شاطر المسلمون فى قرطبة النصارى كنيستهم العظمى التى كانت تقع داخل مدينة قرطبة نفسها ، بالقرب من السور الجنوبى الذى يحيط بها ، وفى مقابل باب القنطرة — وكانت تعرف بشنت بنجنت Saint Vincent — وابتنوا فى ذلك الشطر جامعا بسيط البناء ، غير منتظم التخطيط ، أسس حنش الصنعانى وأبو عبد الرحمن الحبلى التابعان قبلته بأيديهما ، وتركوا النصف الآخر للنصارى يقيمون فيه شعائرهم الدينية ، بعد أن هدموا كنائسهم الأخرى بقرطبة .

وقنع المسلمون الفاتحون بمسجدهم البسيط حينا من الدهر ، حتى كثر عددهم بوصول الطلائع العربية المتتابعة الى الأندلس . ونزل قرطبة أمراء العرب من جند الشام فى عصر الولاة (٧١٤ — ٧٥٥ م) ، وأصبح مسطح بيت الصلاة بجامع قرطبة ، على ضيقه ، لايفى بعددهم الكبير ، فجعلوا يعلقون فيه سقيفة اثر سقيفة ليقيموا ظللا يستكنون تحتها . وكان ارتفاع هذه السقائف يقل تدريجا لارتفاع مستوى سطح الأرض كلما اتجهنا نحو الوادى ، مما سبب مضايقات كثيرة للمصلين ، اذ كانوا يجدون صعوبة فى القيام لتلاصق تلك السقائف ، وقصر أبوابها ، وتطامن سقوفها ... حتى كان أكثرهم لايستطيع القيام معتدلا لتقارب السقف من الأرض .

ولم تزل هذه حال المسجد الى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المروانى أرض الأندلس ، وجعل قرطبة دار امارته ... فنظر فى تجميلها بالأبنية العظيمة ، والمنشآت الجليلة التى تتناسب وفخامة دولته . ونظر فى أمر الجامع وذهب الى توسعته واتقان بنيته ، وأحضر رؤساء النصارى بقرطبة ، وساومهم فى بيع ما بقى فى حوزتهم من كنيسة « شنت بنجنت » ليدخله فى المسجد ، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه ... فأبوا أول الأمر بيع ما بأيديهم ، وطلبوا منه — بعد الجد بهم — أن يباحوا بناء كنيستهم شنت أجلج San Asciclo التى هدمت خارج أسوار مدينة قرطبة ، بالقرب من باب العطارين ، على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به . فتم الأمر على ذلك فى عام ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) ، وخرجوا له عن كنيستهم ، فأدخلها فى بناء الجامع الأعظم .

وكان شروع عبد الرحمن الداخل فى هدم الكنيسة والمسجد القديم ، وبناء جامع قرطبة ، عام ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) . وتم بناؤه ، واكتملت أسواره فى عام ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) . وأنفق عبد الرحمن فى بناء هذا المسجد الجديد نحو ثمانين ألف دينار . وفى ذلك يقول البلوى الشاعر :

وأبرز فى ذات الاله ووجهه
ثمانين ألفا من لجين وعسجد
توزعها فى مسجد أسه التقى
ومنهجه دين النبى محمد
ترى الذهب النارى فوق سموكه
يلوح كبرق العارض المتوقد

وينقسم الجامع الجديد الذى بناه الأمير الداخل — شأنه فى ذلك شأن المساجد الجامعة الأولى — قسمين : قسما مسقوفا هو بيت الصلاة ، وقسما مكشوفا هو الفناء أو الصحن . ويتألف بيت الصلاة من تسعة بلاطات عمودية على جدار القبلة ، تمتد على اثنى عشر عقدا (قوسا) . تقوم على عمد من الرخام . والبلاط الأوسط أوسع من البلاطات الأخرى وأكثر ارتفاعا . وسقف الجامع

كله كان يتألف من لوحات خشبية مسطحة مصفوفة عرضا (سماوات) ، ومثبتة فى عوارض خشبية طولية (جوائز) . وتكسو هذه اللوحات والعوارض الطولية زخارف هندسية ملونة ومنقوشة من دوائر وفصوص ومسدسات ومثمنات [1] . وكان يعلو هذا السقف المسطح هياكل مسنمة هرمية الشكل ، تمتد على امتداد البلاطات ، تاركة فيما بينها قنوات مقعرة لتجرى فيها مياه الأمطار . ويحيط بالأسقف من الداخل ازار خشبى منقوش بالآيات القرآنية .

وقد عثر المهندس الأثرى « بوسكو » على بعض هذه اللوحات الخشبية المسطحة والعوارض الطولية بين الهياكل الهرمية ، وبين القبوات الجصية التى أقيمت بدل الأسقف المسطحة فى القرن السابع عشر . ونجح « بوسكو » فى اعادة تركيب جزء منها فى سقف البلاط الأوسط بالمسجد كما كان فى عهده الأول .

وعقدت بين العمد الرخامية ، على أعلى رءوسها ، عقود أو أقواس متجاوزة لصف دائرية تقوم مقام الأوتار الخشبية ، وظيفتها ربط الأعمدة فيما بينها ... كما أقيمت فوقها عقود مثلها تحمل الجدران التى تتكىء عليها الأسقف ، وتزيد فى الوقت ذاته من ارتفاع السقف . وتستند هذه العقود العليا على دعائم من الحجر المنجور ، تتكىء بدورها على كوابيل مؤلفة من ثلاثة أو أربعة فصوص متراكبة الواحد فوق الآخر . ويتناوب فى جميع العقود العليا والسفلى اللونان الأصفر الشاحب والأحمر ، نتيجة لتناوب كتل الحجارة وقوالب الآجر فى سنجاتها ... وبذلك استطاع مهندس عبد الرحمن الداخل أن يخلق تأثيرا زخرفيا ، ويكسب الجامع حلية بسيطة .

ويتألف كل عمود من أعمدة المسجد من تاج رخامى (رأس) وبدن وقاعدة رخاميين أيضا ... وكل هذه الأعمدة قديمة استغلها بناة المسجد من الكنائس الخربة ، وأعادوا استخدامها فى المسجد الجامع . وتمثل هذه الأعمدة جميعا غابة من النخيل ، وتوحى عقودها المتتابعة بالطبيعة الحية ، ويتسلل الضوء من شبكات النوافذ الخارجية ، فيصل ضعيفا باهتا داخل مسطح بيت الصلاة ، ويحدث تأثيرا قويا فى النفس ، فيستشعر المرء نفسه بعيدا عن نطاق الحقيقة ، ويظل مستغرقا مهيأ للتطلع الى ما وراء الحس فى صلاة خاشعة ، مؤديا لله فرضه ، مقرا له بعبوديته حياله .

وقد بحث مؤرخو الفن الاسبانى فى أصل فكرة ازدواج العقود بجامع عبد الرحمن الداخل ، وأرجعوها الى عقود الجسور الرومانية التى تقوم على طابقين ، وقارنوا نظام عقود جامع قرطبة بعقود الجسر الرومانى بماردة ، وهو الجسر المعروف بلوس ميلاجروس أو جسر المعجزات . واذا بحثنا عن وظيفة كل من هذين النوعين من العقود ، وجدنا أنهما تختلفان . ولا شك أن عقود قرطبة ابتكرها مهندس عبد الرحمن ، وأملت صورتها عناصر البناء ومواده التى كانت فى متناول يده ، وبخاصة الأعمدة القصيرة التى جمعها من الخرائب .

وعهد عبد الرحمن الداخل الى عبد الله صعصعة بن سلام (توفى فى عام ١٩٢ هـ) ، صاحب الصلاة بالمسجد ، بغرس صحن المسجد بالأشجار .

(1) فى ذلك يقول الشريف الادريسى : « وسقفه كله سماوات مسمرة فى جوائز سقفه ... والسموات التى ذكرناها هى كلها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والمؤربى ، وهى صنع الفص وصنع الدوائر والمداهن ، لايشبه بعضها بعضا ، بل كل سماء منها مكتف بما فيه من صنائع قد أحكم ترتيبها ، وابدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفرية والبياض الاسفيداجى والزرقة اللازوردية والزرقون الباروقى والخضرة الزنجارية والتكميل النقشى ، تروق العيون ، وتستميل النفوس باتقان ترسيمها ، ومختلفات الوانها وتقسيمها » .

واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذه التقاليد بعد ذلك ، فطبقت فى بقية مساجد الأندلس . وقتع الأمير عبد الرحمن بأحد أبراج قصر الامارة المجاور للمسجد ، من جهته الغربية ، ليقوم مقام المئذنة ، وترك مشكلة بناء المئذنة الى ابنه هشام من بعده (٧٨٨ — ٧٩٦ م) .

ويغلب على الظن أن عبد الرحمن الداخل أرجأ بناء مئذنة الجامع الى ما بعد زخرفته وتنميقه ، ولكن الموت أدركه وهو يتأهب لبناء المئذنة ، فأقامها ابنه هشام من خمس فىء أربولة . وقد عثر المهندس الأثرى « فيلث هرنانذث » على موضعها الذى كانت تقوم عليه ، وكشف عن أساس قاعدتها المربعة وطولها ستة أمتار . وكان ارتفاع المئذنة — وفقا لروايات المؤرخين العرب — أربعين ذراعا ، أى ما يقرب من عشرين مترا ... كذلك أقام هشام ميضأة شرقى الجامع ، وبنى سقائف أو أروقة لصلاة النساء .

جامع قرطبة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ومن خلفه من الأمراء

ولما تولى عبد الرحمن بن الحكم الامارة ، بعد وفاة أبيه الحكم بن هشام (٨٢٢ — ٨٥٢م) ، رفع من شأن قرطبة ، وجعلها عاصمة تليق بالامارة . وفى عهده تكاثر الناس فى قرطبة ، وتوافدوا اليها ، وانتابوها من كل أوب ، حتى ضاق عنهم بيت الصلاة بالجامع . فاضطر عبد الرحمن الأوسط الى توسعة الجامع ، وأنشأ عام ٨٣٤ م بلاطين جديدين على جانبى بيت الصلاة ، أضافهما الى البلاطات التسعة القديمة ، فأصبح عدد بلاطات المسجد جميعا أحد عشر بلاطا ، وبذلك اتسع مسطح بيت الصلاة اتساعا قليلا ، ثم مد هذين البلاطين الزائدين فى فناء الجامع ، ووصلهما بسقيفة تمتد بحذاء الجدار الشمالى للجامع ، أعدها لصلاة النساء .

ثم أضاف عبد الرحمن الأوسط الى بيت الصلاة اضافة جديدة فى عام ٨٤٨ م ، فمد جميع بلاطات الجامع نحو الجنوب ما يقرب من ستة وعشرين مترا ، أى أنه مد الصفوف العشرة للعقود على ثمانية عقود جوفية ، ونقل المحراب القديم الى نهاية جدار القبلة الجديد الذى وصلت اليه الزيادة . وقد استخدم عبد الرحمن فى هذه الزيادة عددا كبيرا من أمهر مهندسيه ، وكان المشرف على البنيان أكبر فتيانه الحصيان نصرا ومسرورا ، كما أشرف عليه قاضى قرطبة محمد بن زياد .

وسايرت زيادة عبد الرحمن الأوسط أسلوب عبد الرحمن الداخل فى بنائه ، ولم تشذ عنه الا فى الكوابيل التى اقتصرت هذه المرة على بروز محدب . وفتح فى بيت الصلاة بابين فى جانبى المسجد الشرقى والغربى ، بالاضافة الى البابين القديمين ، فأصبح للجامع أربعة أبواب : اثنان منها فى الجهة الغربية ، واثنان فى الجهة الشرقية ، ولم يتبق منها سوى بابى الجدار الغربى ، وهما : سان استبان (باب الوزراء) ، ودى لوس ديانيس (باب الأمير) . أما البابان الآخران فقد هدمهما المنصور بن أبى عامر فى زيادته التى أضافها شرقى بيت الصلاة .

ثم مات الأمير عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد ، وخلفه ابنه محمد ، فأمر عام ٢٤١ هـ باتقان طرز الجامع وتنميق نقوشه . ثم أقام عام ٢٥٠ هـ مقصورة خشبية حول المحراب ، وجعل لها ثلاثة أبواب ... فلما كمل ما أمر به فى الجامع ، دخله وصلى فيه ركعات خشع فيها ، فقال فى ذلك موسى بن سعيد :

لعمرى لقد أبدى الامام التواضعا
فأصبح للدنيا وللدين جامعا
بنى مسجدا لم يبن فى الأرض مثله
وصلى به شكرا لذى العرش راكعا
فطوبى لمن كان الأمير محمد
له ، اذ دعا فيه الى الله شافعا

وما زالت تزين عقد باب سان استبان كتابة كوفية تسجل أعمال الأمير محمد فى الجامع نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ... آمر الأمير ، أكرمه الله ، محمد بن عبد الرحمن ببنيان ما حكم به من هذا المسجد واتقانه ، رجاء ثواب الله عليه وذخره به ، فتم ذلك فى سنة احدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه . مسرور ونصر فتياه » .

ثم زاد الأمير المنذر بن محمد البيت المعروف ببيت المال ، فأقامه فى صحن الجامع على غرار بيوت المال فى مساجد دمشق وحماة وحمص وعمرو بن العاص بالفسطاط ، وأمر بتجديد السقاية واصلاح السقائف . ثم زاد أخوه الأمير عبد الله بن محمد ساباطا (ممرا علويا) معقودا على حنايا ، أوصل به ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ، ثم أمر بستارة من آخر هذا الساباط الى أن أوصلها بالمحراب ، وفتح الى المقصورة بابا كان يخرج منه الى الصلاة . وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء بنى أمية بالأندلس ، وتابعه فى ذلك من خلفه منهم .

المسجد الجامع فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر

كانت المئذنة التى أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل قد تصدعت ، كما كان بيت الصلاة قد ازداد اتساعا منذ زيادة عبد الرحمن الأوسط ، وأصبح الصحن بالنسبة لبيت الصلاة ضيقا جدا لا يتناسق مع تخطيط الجامع . وكان فى مقدرة الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يقوم باصلاح ما تصدع من المئذنة ، ويعدل بناءها — كما فعل فى واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن — غير أنه رأى ضآلتها بالنسبة لمسجد سقفه فسيح ... ثم انه كان قد أعلن فى عام ٣١٩ للهجرة أحقيته للخلافة ، وشرع فى تنفيذ برنامج حافل لتجميل عاصمة خلافته بالأبنية العظيمة والقصور السامقة ، والمنشآت الجليلة التى تليق بجلال الخلافة وبهائها ، وكان يقول :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
ان البناء اذا تعاظم قدره
أضحى يدل على عظيم الشان

لذلك كله رأى الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يقيم مئذنة جديدة تسمو على سائر العمران بقرطبة، ويراها القادمون من بعيد كأنها المنار يهدى السفن الضالة فى مياه البحر . وأمر عام ٣٤٠ للهجرة (٩٥٠ م) ببناء مئذنة جديدة ، فجمع لها عرفاء المهندسين من كل مكان ، وأحضر لها الأحجار الضخمة على عجل . وشرع المهندسون فى بنائها بعد أن هدموا مئذنة هشام الى قواعدها ، وهدموا السور الشمالى للمسجد وحفروا أساسها حتى بلغ الماء ، وأتموا بناءها فى ثلاثة عشر شهرا ... فجاءت رائعة البناء .

وكانت مئذنة هشام ذات مطلع واحد ، فجعلوا لمئذنة الناصر مطلعين ، وفصلوا بينهما بالبناء ، فلا يلتقى الراقون فيها الا بأعلاها . وكان لكل مطلع منهما مائة وسبع درجات ، وبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعا حتى مكان المؤذن ، أى ضعف ارتفاع المئذنة الأولى ، ومن مكان المؤذن الى أعلاها عشرين ذراعا ... ثم نصب بأعلى المئذنة سفود بارز ركبت فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضة .

وبلغ طول كل جانب من المئذنة نحو ثمانية أمتار ونصف متر ، وجدرانها مبطنة جميعهـا بنوع من الحجر الجيرى يعـرف باسم الكذان اللكى ، ومنقوشـة — من أسفلها الى أعلاها — بنقوش متنوعة وزخارف ملونة .

وكانت الأوجه الأربعة للصومعـة تزدان بثلاثة صفوف من النوافذ المزدوجة ، تحيط بها عقـود تشبه حدوة الفرس ، قائمة على عمد من الرخام . وكانت هـذه الجدران تنتهى من أعلى بافريز من عقود صماء قائمة على عمد صغيرة ، ويعلو الافريز شرفات مسننة تشبه شرفات الجامع نفسه . وقد اتخذت مئذنة الناصر أنموذجا للمآذن الأندلسية ، مثل مئذنة جامع اشبيلية ، ومئذنة جامع الكتبية ، ومئذنة جامع رباط .

ولقـد أصيبت هذه المئذنة عام ١٥٨٩ بأضرار جسيمة اثر زلزال عنيف سبب تصدعا فى جـزئها الأعلى المعروف ببيت المؤذن ، وأوشكت المئذنة على الانهيار ، فقام المهنـدس القرطبى « هرنان رويث » ، فيما بين عامى ١٥٩٣ — ١٦٥٣ ، بملء الفـراغ الـداخلى بالبناء ، ثم أحاط الجـدران الخارجية للمئذنة بغلاف من الحجارة لتقوى القاعدة على حمل الجسم العلوى الذى توجها به . وقد نجح مهندس الجامع « السنيور فيلث هرناندث » فى الكشف عن بقايا جـدران مئذنة عبد الرحمن الناصر حتى ارتفـاع ما يقرب من ٢٢ مترا ، كما اكتشف من الدعامتين المركزتين ما يبلغ ارتفـاعه نحو ٢٦ مترا ، وعثر بفضـل أبحاثه على بعض النوافذ التى كانت تطل على فناء المسجد بعقودها المتجاوزة وسنجاتها الملونة .

ولم تقف أعمال عبد الرحمن الناصر عند هذا الحد ، فقد قام بترميم واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن ، وكانت قد تصـدعت بسبب الدفع المستمر للعقود الداخلية ... ثم أصلح باب سـان استبان ، وأقام عليه ظلة تستند على كوابيل على نمط كوابيل واجهة بيت الصلاة .

وقد سجل عبد الرحمن الناصر أعماله هذه على لوحة بجوار المدخل الى البلاط الأوسط نقرأ فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ... أمر عبـد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله — أطال الله بقاه — ببنيان هذا الوجه واحكام اتقانه ، تعظيما لشـعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ... ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل الذخر ، مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر . فتم ذلك بعون الله فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلثمائة ، على يدى مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر ... عمل سعيد بن أيوب » .

زيادة الخليفة الحكم المستنصر

افتتح الخليفة الحكم المستنصر خلافته بالنظر فى زيادة المسجد الجامع بقرطبة ... اذ تضـاعف عدد سكان قرطبة فى ذلك الوقت ، وضاقت المدينة بمن وفد اليها من بربر العدوة من قبيلة زناتة الذين حالفوا الأمويين فى الأندلس ضد الفاطميين ، ولم يعد المسجد الجامع يتسع لجموعهم الغفيرة ، ونال الناس ضرر كبير من جراء ازدحامهم . فاضطر الحكم الى توسيع المسجد ، وعهد الى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى ، فى اليوم الثانى من خلافته ، بمهمة الاشراف على احضار الأحجار من جبـال قرطبة .

وخرج الحكم بنفسه لتقدير الزيادة وتفصيل بنائها ، وأحضر لهذا الغرض الأشياخ والمهندسين ، فحددوا هذه الزيادة من قبـلة المسجد الى آخر الفضاء ، ورسموا أن تكون بمد بلاطات المسـجد جنوبا على اثنى عشر عقدا . وقال ابن سعيد فى هذه

الزيادة : « وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار فى حد يقصر الوصف عنه » . واستمر بناء الزيادة أربع سنوات أُنفق فيها مائتان وستون ألف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون دينارا .

وفى عام ٣٥٤ للهجرة آتم بناء قبة المحراب . وقد سجل ذلك فى نقش يدور بعقد المحراب نصـه : « ... ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . هو الحى لااله الا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين موفق الامام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، لهذه البنية المكرمة ، ومعينه على نيته الخالدة فى التوسع لرعيته ... ما اليه واليهم الرغبة فيما ابتدا من فضله فهيم ، وصلى الله على محمد وسـلم . أمر الامام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين ، وفقه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله ، بتشبيك هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد ابن تمليخ وأحمـد بن نصر وخالد بن هاشـم ، أصحاب شرطته ، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب» ثم أحاط هذه القبة بقبتين جانبيتين ، وأقام على مدخل زيادته بالجامع ، تجاه قبة المحـراب ، قبة أخرى تشبه قبة باب البهو بجامع الزيتونة بتونس ، وقبة جامع القيروان .

ثم شرع فى تنزيل الفسيفساء بالمسجد — وكان ملك الروم قد بعث بها اليـه مع صـانع يتقن صناعتها — فأجرى الصانع الفسيفساء على جدار المحراب وفى باطن القبة الكبرى ، ومنه تعلم الصناع المسلمون طريقة تنزيل الفسيفساء وحذقوها وفاقوه فى صنعته . وفى أعلى عقـد المحراب نقش كوفى نقرأ فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ... آمر عبـد الله الحكم أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ، رحمه الله ، بعمل هـذه الفسيفساء فى البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة أربع وخمسين وثلثمائة » .

وفى عام ٣٥٥ للهجرة أمر بوضع المنبر القديم الى جانب المحراب ، ونصب فى قبلة زيادته مقصورة من الخشب ، منقوشة الظاهـر والباطن ، مشرفة الذروة ، طولها خمسة وسبعون ذراعا ، وعرضها اثنـان وعشرون ذراعا ، وارتفاعها الى الشرفات ثمانية أذرع . وأحاط بها خمسة بلاطات من زيادته ، وأطلق أطرافها على الستة الباقية ، وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش .

وصنع لزيادته منبرا « ليس على معمور الأرض أتقن منه ، ولا مثله فى حسن صنعته ، وخشبه ساج وآبنوس وبقم وعود قاقلى . ويذكر فى تاريخ بنى أمية أنه أحكم عمله ونقشه فى سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمانية صناع » . وكان عدد درجاته تسعا ، وعدد حشواته ستة وثلاثين ألف حشوة ، سمرت بمسامير الذهب والفضة ورصعت بنفيس الأحجار .

وفى عام ٣٥٦ هـ هدم الحكم الميضأة القديمة التى كانت فى فناء الجامع ، وبنى موضـعها أربع ميضآت فى كل جانب من جانبى الفناء : الشرقى والغربى ، وأجرى اليها الماء من عين بجبل قرطبة فى قناة حجرية متقنة البناء ، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس ، وصبت ماءها فى أحواض من الرخام . ثم أجرى ما يزيد على حاجة المسجد الى سقايات اتخذها على أبواب الجامع بجهاته الثلاث الشرقية والغربيـة والشـمالية . ويقول الشاعر محمد بن شخيص فى وصف هذه القنوات :

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف
من أعذب الماء نحو البيت تجريهـا
طهر الجسوم اذا زالت طهارتهـا
رى القلوب اذا حـرت صـواديها

قرنت فخراً بأجر قل ما اقترنا
في أمة أنت راعيها وحاميها

واختتم الحكم أعمال البناء ببناء دار للصدقة غربى الجامع ، لتكون معهدا لتوزيع صدقاته ، كما أقام فى ساحة الجامع مكاتب لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين القرآن ، وفى ذلك يقول ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة
مكاتبا لليتامى من نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم
نادتك : ياخير تاليها وداعيها !

وزيادة الحكم المستنصر أعظم ما أضيف الى جامع قرطبة من حيث البناء والزخرفة ، وقد زودت المسجد بتناسقه وتعادل أجزائه .

وقباب الجامع تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابكة فى أشكال هندسية رائعة ، تؤلف نجوما تتوسطها قبيبات مفصصة ، وكسيت الفراغات بين العقود البارزة بزخارف نباتية آية فى الروعة والجمال ، وأجرى فيها الفسيفساء المذهبة . وقد أوحت قباب الحكم الى الفنانين الفرنسيين ابتكار القبوات القوطية الشهيرة .

أما المحراب الجديد الذى أقامه الحكم فهو أجمل عنصر معمارى فى الجامع ، اذ عنى به المهندسون باعتباره أنبل مكان بالمسجد ، فأقاموا القباب على بلاطه الأوسط وروافه الأمامى ، ونقش هذا المحراب من الداخل والخارج بالتوريقات ، وزينت عضادتاه بلوحات رخامية حفرت فيها زخارف نباتية وتوريقات حفرا غائرا .

وقد فتح الحكم الى يمين المحراب بابا يؤدى الى الساباط الجديد الذى يصل بين قصره ومقصورته بالجامع .

الزيادة الأخيرة فى عهد المنصور بن أبى عامر

شرع المنصور بن أبى عامر ، عام ٣٧٧ هـ ، فى زيادة المسجد حين ضاق بيت الصلاة فيه عن المصلين . ولما كان قصر الخلافة يجاور الجانب الغربى للمسجد ، بدأ زيادته بشرقيه على بلاطات تمتد بطول المسجد من أوله الى آخره ، وقصد منها المبالغة فى الاتقان ، واحكام البنية دون الزخرفة ، وان كانت لا تقل عن سائر الزخارف روعة وجمالا . وكان أول ما قام به المنصور هو نزع ملكية الدور القائمة شرقى الجامع والتى أدخلها فى زيادته وتعويض أصحابها عنها بالمال والعقار .

وذكر ابن بشكوال « أنه لما عزم على زيادته هذه ، جلس لأرباب الدور التى نقل أصحابها عنها ، فكان يأتى بصاحب المنزل فيقول له : ان هذه الدار التى لك ياهذا ، أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين ، من مالهم ومن فيئهم ، لأزيدها فى جامعهم وموضع صلاتهم ، فشطط ، واطلب ما شئت . فاذا ذكر له أقصى الثمن ، أمر أن يضاعف له ، وأن تشترى له بعد ذلك دار عوضا عنها ... حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة ، فقالت : لا أقبل عوضا الا دارا بنخلة . فقال : تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال ! فاشتريت لها دار بنخلة ، وبولغ فى الثمن » .

وذكر ابن بشكوال أيضا أن المنصور كان يجبر أسرى النصارى على الاشتراك فى بناء زيادته ، وأن « أحسن ما شاهده الناس فى بنيان هذه الزيادة العامرية أعلاج النصارى مصفدين فى الحديد من أرض قشتالة وغيرها ، وهم كانوا يتصرفون فى البنيان عوضا من رجالة المسلمين » .

وقال الشقندى فى رسالته : « ان الزيادة التى زادها فى بنائه ابن أبى عامر من تراب نقله

النصارى على رءوسهم مما هـدم من كنـائس بلادهم » . كما أن ثريات جامع قرطبة من نواقيس النصارى التى غنمها المنصـور من غزوته لشنت ياقب عام ٣٨٧ هـ .

ولقـد فقد جامع قرطبة بعـد زيادة المنصور تناسقه واتزانه وتعادل أجزائه ، اذ أصبح المحراب متطرفا عن وسط جدار القبلة ، بعد أن كان يقع فى محور البنـاء ، كما أن المنصور هـدم أبواب الجامع من جهة الشرق قبل أن يشرع فى زيادته ، وفتح فى الجدار الشرقى بعد الزيادة أبوابا أخرى ، فأصبح عدد أبواب بيت الصلاة ستة عشر بابا ، على كلا الجانبين الشرقى والغربى ، يضاف اليها خمسة أبواب شارعة الى الصحن .

الجامع بصورته الحاضرة

واحتفظ المسجد الجامع بقرطبة بصورته تلك طول العصر الاسلامى ، ولم يطرأ عليه أى تغيير فى نظام بنائه ، ولم تضف اليـه أية اضافات اذا استثنينا أعمال الاصلاح التى لابد منها لكل أثر فريد . وظل كذلك حتى سـقطت قرطبة فى يدى فرناندو الثالث عام ١٢٣٦ ، فتحول هـذا البناء الاسلامى الشامخ الى كنيسة عرفت بسانتا ماريا الكبرى ، وأقيم به عام ١٣٧١ — فى عهـد دون انريكى الثانى ملك قشتالة — مصلى سان فرناندو بجوار القبة الـكبرى التى تعلو مدخل البـلاط الأوسط من زيادة الحكم . وقد كسيت جدران هـذا المصـلى بزخـارف من الطـراز المدجن محفورة فى الجص ، كزخارف قصر الحمراء والقصر باشبيلية ، وتعلو هذا المصلى قبة تقوم على تشابك العقود البارزة ، وتختلف عن قباب المسجد فى أنها مكسوة بالمقرنصات الزخرفية الدقيقة .

على أن كل ما طرأ على المسجد حتى ذلك الوقت لا يعدو اضـافات طفيفة غير جوهرية لم تغير فى نظامه ، ولم تشوه من عمارته . ولكن منذ أواخر القرن الخامس عشر بدأ الاسبان يشوهون فى بنية هـذا الأثر الاسـلامى المجيد باضافات وتغييرات أساسية ... ففى عام ١٤٨٩ هدم الأسقف أنييجو مانريكى عقود البلاطات الخمسة ، الممتدة طولا من مصلى سان فرناندو — المعـروف بمصـلى فيلافسيوسا — وأعمـدتها حتى جـدار الجامع الغربى ، وأقام جدارين طوليين رغبة فى عمل مجاز يغطيه سقف خشبى قائم على عقود قوطيـة . ثم شرع الأسقف دون ألونسو مانريكى عام ١٥٢٣ فى هدم جزء كبير من زيادة عبـد الرحمن الأوسط وزيادة المنصور ، لاقامة كاتدرائية قوطية الطراز فى قلب الجامع شوهت البناء القديم ، وقضت على الوحدة المعمارية للمسجد . وقد أبدى شارلكان أسفه حين شاهد هذا التشويه ، وندم لموافقته على اجرائه فى أثر فريد بين آثار الأندلس ... بل العالم أجمع .

أشرف على بناء هـذه الكاتدرائية المهنـدس « هرنان رويث » الى أن مات عام ١٥٤٧ ، وخلفه ابنه « هرنان رويث » حتى وفاته عام ١٥٨٣ ، ثم تبعه « هرنان رويث » الحفيد فأتم بناءها سـنة ١٥٩٩ . ثم أقيمت على جدران الجامع من الداخل مصليات عديدة ذات طابع يتبع طراز عصر النهضة ، مثل مصلى لوس سيمانكاس، ومصلى سان بابلو .

وفى عام ١٦٨٢ أقام الأسقف فراى ألونسو دى مدينا مصلى لاكونثبثيون ، وزينه بتماثيل رائعـة قام بعملها المثال الغرناطى بدور دى مينا . وفى عام ١٧٠٥ أقيم مصلى آخر يعرف بسانتا تريزا ، أو بمصلى الكاردينال سالازار . وفى القرن الثامن عشر انتزعت أسقف الجامع الخشبية ، بعـد أن تآكلت بفعل الزمن ، وأقيمت بدلا عنهـا قبوات جصية فى جميع بلاطات الجامع . وأجريت خـلال

القرن التاسع عشر عدة اصلاحات فى الجامع : أولها ما قام به دون بدرو تريفيا عام ١٨٢٦ ، بترميمه المحراب .

ثم أعلن الجامع عام ١٨٨٢ أثرا قوميا ، وعهد بالمحافظة عليه الى مدير مدرسة العمارة بمدريد « ريكاردو فيلاسكث بوسكو » . وقد قام هذا المهندس الأثرى باصلاح مصلى فيلافسيوسا ، وأعاد وضع أسقف جامع قرطبة فى البلاط الأوسط ، واستبدل ببلاط الجامع القديم المصنوع من الآجر بلاطا من الرخام ، ورمم واجهات الجامع من الخارج بأبوابها عام ١٩٠٩ . وما زالت الحكومة الاسبانية تولى هذا المسجد الجامع نصيبا كبيرا من عنايتها ، وقريبا ستحتفل بمرور ألف عام على بناء أعظم أثر اسلامى فى أوربا .

وقبل أن نختم حديثنا عن جامع قرطبة ينبغى أن نشير الى تأثيراته فى العمارة المسيحية والاسلامية على السواء . فقد تغلغلت هذه التأثيرات فى اسبانيا المسيحية ، ومنها انتقلت الى مقاطعات فرنسا الجنوبية حيث تتجلى بحق فى كنائس جاسكونيا ولا نجدوك وأكيتانيا وأنجو ونورماندى .

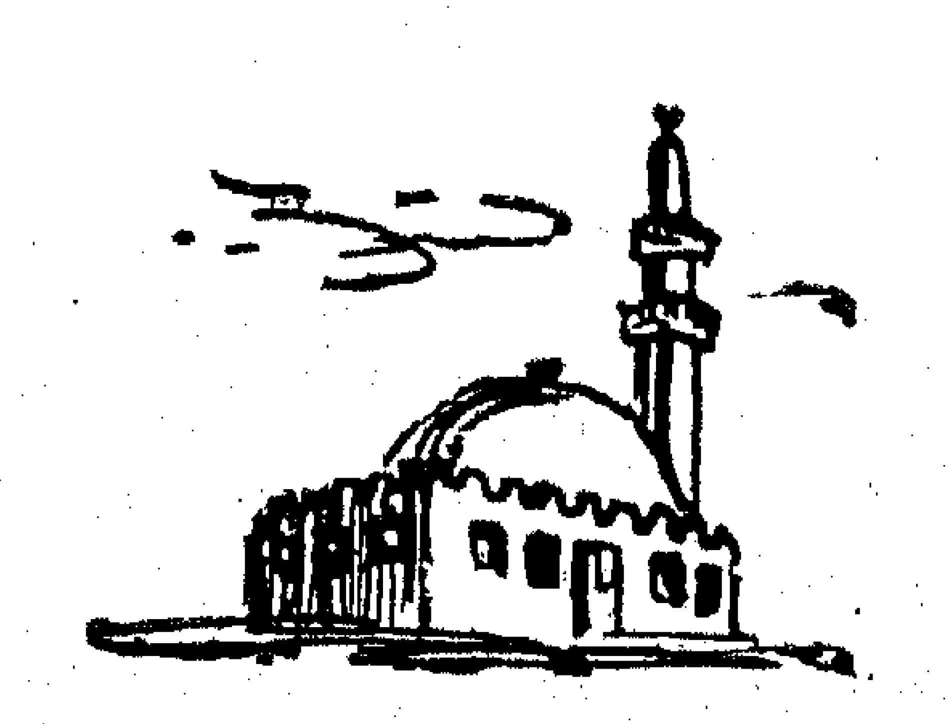
ومن القباب القرطبية الممثلة فى الجامع استلهم المهندسون الفرنسيون الحل المعمارى الفريد الذى تكشف عنه القبوات القوطية المصلبة ، كذلك أعجب الفرنسيون بزخارف الجامع وحلياته ، فنقلوا بعضها الى كنائسهم مثل الكوابيل التى تتجلى فى كنيسة نوتردام دى بور دى كليرمو ، وبرج فرون فى بيريجيه .

وانتشر العقد الثلاثى الفصوص فى بوى ، حيث ظهر فى كاتدرائية نوتردام دى بوى ، وفى مقصورة سان ميشيل داجويل ، وفى واجهة كنائس موناستييه وريوتار وبولنيا ، وفى كنائس فيلاى وكاتدرائية فالنس . كذلك انتشر العقد المتعدد الفصوص ، وعقد حدوة الفرس ، فى دير كلونى ببورجنى ، وفى برج كنيسة لاشاريتيه سير نوار .

ويكفى أن أشير الى بحثى عن التأثيرات المعمارية الأندلسية فى العمارة المسيحية باسبانيا وفرنسا الذى نشرته فى المجلد الثانى من دائرة معارف الشعب (ص ١٧٢ — ١٧٦) ، وبحثى عن هذا الموضوع فى مجلة « المجلة » العدد ١٤ (ص—٨٨) تحت عنوان أثر الفن الخلافى بقرطبة فى العمارة المسيحية بأسبانيا وفرنسا .

أما تأثيرات جامع قرطبة فى العمارة الاسلامية ، فتتجلى فى مساجد المغرب وتونس والجزائر ، وفى مساجد مصر فى عصر المماليك . ولقد اشتدت هذه التأثيرات بعد تقدم حركة الاسترداد المسيحية فى قلب الأندلس ، وهجرة كثيرين من أهلها الى سائر البلاد الاسلامية فى المغرب والمشرق . وقد عالجت هذا الموضوع بما فيه الكفاية فى بحثى بدائرة معارف الشعب الذى سبقت الاشارة اليه .

دكتور السيد عبد العزيز سالم



جـــامع الزيتونة

جامع الزيتونة بتونس من أهم مساجد المغرب ، ان لم يكن أهمها بالفعل ، لقدم عهده ، واحتفاظه بعناصره المعمارية والزخرفية الأولى منذ نشأته ، ثم لشهرته كجامعة علمية قديمة ما زالت تدرس فيها علـوم اللغـة العربية والتاريخ الاسـلامى والفقه . وتاريخ هذا الجامع كان يكتنفه الغموض ، فقـد أغفل المـؤرخون وصـفه فى مـدوناتهم التاريخية ... يضـاف الى هـذا أنه كان مغلقا فى وجه الأجانب من غير المسلمين ، فلم تقم حوله أى دراسة أثرية علمية .

وظل هذا الجامع ، مع أهميته ، مجهولا لدى مؤرخى الفن ، لا يذكرون عنه الا اشارات تتعلق بوصف جدرانه الخارجية والأسواق المحيطة به ، حتى قام الدكتور أحمد فكرى — أستاذ الحضارة الاسـلامية ، ورئيس قسـم التاريخ بجامعـة الاسكندرية — بدراسة هذا الأثر الجليل عمليا بين عامى ١٩٣٢ — ١٩٤٨ ، ونشر أول أبحاثه عنه فى مجـلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (الجـزء الثانى ١٩٥٢ ص ٢٧ — ٦٤) تحت عنوان La Mosquée Az-zaytoûna ä Tunis (Recherches archéolgiques)

ولا يفوتنا أن نذكر بهذه المناسبة أهمية هذا البحث لدى مؤرخى الفن الاسلامى عامة ، والفن المغربى بصفة خاصة ، باعتباره أول بحث علمى عن هذا الجامع . وقد ضمنه الأثرى الكبير آراء ونظريات على جانب كبير من الأهميـة ، هدمت كثيرا من آراء المستشرقين عن عناصر الجـامع — كبلاط المحراب ، وعلاقته بمجاز الكنائس — وأوضحت ما خفى من هذا الفن فى عصر الأغالبة والعصر الفاطمى . وعلى هذا البحث الفريد اعتمد هؤلاء المؤرخون فى أبحاثهم عن الفن التوسى فى القرن التاسع للميلاد .

ويذكر البكرى أن حسان بن النعمـان أقام مسجدا بتونس عام ٨٤ للهجرة (٧٠٣ م) . ولكن هذه العبارة المقتضبة لا تشير الى المسجد الذى نقوم بدراسته ... لأن هذا الجغرافى يشير بعد ذلك الى بناء جامع الزيتونة على يدى عبيد الله بن الحبحاب عام ١١٤ هـ (٧٣٢ م) . ويختلف معه ابن عذارى فى تحديد تاريخ البنـاء ، فيذكر أنه بنى عام ١١٦ هـ . ونص البكرى أجـدر بالثقة من نص ابن عذارى .

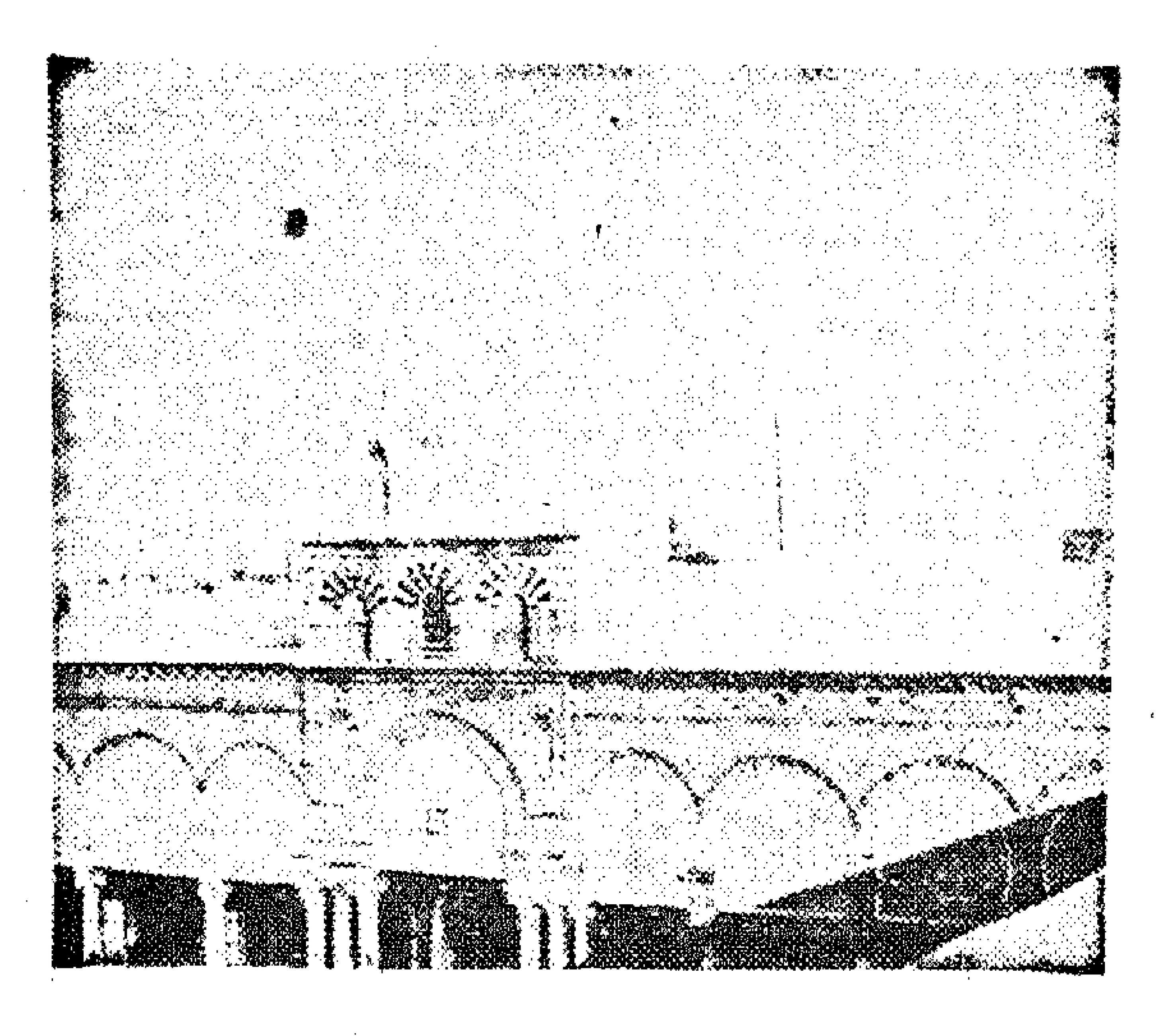
أما النويرى فيذكر أن أبا ابراهيم أحمد بن محمـد بن الأغلب أمر ببنـاء المسـجد الجامع بتونس ، وأنه شرع فى البنـاء عام ٢٤٨ هـ (٨٦٣ م) . ومات الأمير بعد ذلك بسنة دون أن يتم ما شرع فيه من بناء ، فأتمه أخوه أبو محمد زيادة الله الذى تولى الامارة من بعده . ولم يطل عهد زيادة الله فمات بعد سنة واحدة وسبعة أيام فى ذى القعدة عام ٢٥٠ هـ . ويذكر الدكتور فكرى أن هذا هو السبب فى أن اسـمى هذين الأميرين لم يسجلا فى النقوش التذكارية بهذا المسجد .

وتصمت المراجع التاريخية خـلال القـرون الأربعـة التالية عن ذكر شىء عن هذا المسجد ، ثم تعـود فتروى ما طرأ على الجـامع من اصـلاحات ... فيذكـر الزركشى أنه شرع فى

اصلاح جامع الزيتونة وتحسينه وزخرفته فى عهد الواثق ، وتمت أعمال الاصلاح فى ١٥ من شعبان عام ٦٧٦ للهجرة . ويذكر المؤرخ نفسه أن السلطان يحيى زكريا أمر بصنع أبواب خشبية ، ووضع جوائز خشبية فى عرض المسجد . واذا كانت هذه الاشارات الموجزة لا تكفى لدراسة تاريخ الجامع ، فان الجامع ذاته أمدنا بنصوص تاريخية مهمة غاية الأهمية . فهو يحمل تاريخه مسجلا واضحا لا غموض فيه .

يقول الدكتور فكرى : « فقد أنشىء وجدد وأصلح ، وأضيف اليه ، وزخرف فيه فى عصور مختلفة لو تركت لعلماء الآثار لتضاربت فيها أقوالهم ، ولكن ذلك كله مسجل فى نقوش هذا الجامع ... مثل ذلك أننا نقرأ تاريخ بنائه مسجلا بقبة المحراب : « بسم الله الرحمن الرحيم . مما أمر بعمله الامام المستعين أمير المؤمنين العباسى طلب ثواب الله ، وابتغاء مرضاته ، على يدى نصير مولاه سنة خمسين ومائتين . « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » ... صنعه فتح الله » . وبفضل هذه النقوش التى نراها أيضا فى واجهة الصحن القديمة وفى قبة البهو [1] ، وعلى الباب الشرقى النافذ من صحن الجنائز ، عرف تاريخ المسجد .

والمسجد مربع فى غير انتظام : طول جدار المحراب فيه ٦٤ مترا ، والغربى ٦٥ مترا ، والشرقى ٦٠ مترا ، والشمالى ٥٥ مترا . وعقود المسجد



قبة المحراب فى مسجد الزيتونة بتونس

تتجه اتجاهين فى آن واحد : عمودية على جدار القبلة ، وموازية لهذا الجدار . ويحتوى بيت الصلاة على سبعة بلاطات عرضية موازية لجدار القبلة ، طول كل منها ٥٦ مترا تمتد على خمسة عشر بلاطا طوليا ، متوسط طول كل بلاط منها ٢٦ مترا . وبلاط المحراب أكثر اتساعا من بقية البلاطات ، كما أن أسكوبه ، الممتد بطول جدار القبلة ، أكثر اتساعا من بقية الأساكيب ، مما يؤكد تأثر جامع الزيتونة فى تخطيطه بجامع القيروان .

وعقود بيت الصلاة لا ترتكز على جدران الجامع ، بل تظهر مستقلة عن هذه الجدران ، وترتكز على أعمدة ، وهى تشبه حدوة الفرس ، ولا تختلف فى شىء عن عقود جامع القيروان ، وتقوم على حدائر بأعلاها قرم وبأدناها طنف من الحجارة . وتزدان حدائر جامع الزيتونة بزخارف نباتية محفورة فى كتلة الحجر ، فى حين تركت عارية من الزخرفة فى جامع القيروان . وتزدوج هذه الحدائر فى أسكوب المحراب بجامع الزيتونة لدعم الأعمدة وتركيز الضغط على كتلة واحدة بدلا من تشتيته وبعثرته .

(١) نجد هذا النقش التاريخي مسجلا فى قبة البهو ، وقد سقطت من التاريخ الكلمة التى تبين العدد العشرى وبقى رقم الآحاد ورقم المئات (احدى .... وثلثمائة) ، ولكن هذا النقش نفسه نراه مسجلا على تاج سارية من سوارى هذه القبة نقرأ فيه : « كان ابتداء العمل فى المحنيات والداموس (مضيفة أونزل للضيوف) والقبة فى شهر ربيع الاول من سنة ثمانين وثلثمائة ، وتم جميع ذلك من شهر جمادى الاولى سنة خمس وثمانين وثلثمائة » .

وأعمدة بيت الصلاة وتيجانها متنوعة ، جلبت من آثار رومانية وبيزنطية وأعيد استعمالها فى الجامع . ومع ذلك فاننا نجد بجامع الزيتونة تيجانا اسلامية ترجع الى القرن الحادى عشر الميلادى ، وتظهر فى قبتى هذا المسجد ملتصقة بالدعائم ، وتتفتح فيها وريقات الاكنثس على أكثر من صف .

وجدران الجامع مبنية جميعها بالحجر الجيرى المصقول ، ويبلغ ارتفاعها ما يقرب من تسعة أمتار ، وسمكها ١٫٢٠ م ، وليس بها من الخارج ركائز كما هو الحال فى جامع القيروان . وصحن الجامع مربع غير منتظم الأضلاع ، تحيط به مجنبات من جهاته الأربع ، وترتفع فى ركنه الشمالى الغربى مئذنة أقيمت عام ١٣١٢ م ، بدلا من المئذنة القديمة .

ولمسجد الزيتونة قبتان : احداهما أمام المحراب ، والثانية على مدخل البلاط الأوسط من جهة الصحن . وقد أقيمت قبة المحراب عام ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) ، على نمط قبة المحراب بجامع القيروان التى بناها زيادة الله بن الأغلب عام ٢٢١ هـ . ونشهد فى قبة المحراب بجامع الزيتونة تطورا للعناصر الجديدة التى ظهرت أول مرة بجامع القيروان — وهى الضلوع البارزة ، والمقرنصات — كما نلاحظ فيها تفوقا فى البناء وتقدما فى الزخرفة .

وقد أوضحنا فى دراستنا لقباب جامع القيروان أن قبة الزيتونة تعرض فكرة استقلال الضلوع البارزة عن الخوذة المفصصة فى وضوح تام ، كما أنها تبشر بظهور القباب ذات الضلوع المتقاطعة التى ظهرت بجامع قرطبة بعد ذلك بما يقرب من قرن من الزمان . وفيها تتضح أهمية الضلوع المتقاطعة وعدم أهمية الخوذة او الكتلة التى تغطى هذه الضلوع ، فهى حشو زائد لا يؤثر فى بناء القبة ، يمكن الاستغناء عنه واستبدال لوحات جصية أو زجاجية منقوشة به ، كما حدث فى قبة المحراب بجامع تلمسان ، أو قبة المحراب بجامع تازة .

وتتكىء قبة المحراب بجامع الزيتونة على اثنين وثلاثين عمودا ، كما هو الحال فى قبة المحراب بالقيروان . وتتخلل هذه الأعمدة طاقات مفتوحة ومغلقة متعاقبة فى المحيط الدائرى لعنق القبة : أما الطابق الأدنى — وهو الذى يؤلف قاعدة القبة — فمربع تقوم على أركانه مقرنصات أربعة معقودة ، فى كل مقرنص عقدان متراجعان فى هيئة قواقع تتشعع فصوص جوفاتها من أركان القاعدة . وترتكز عقود المقرنصات على أعمدة . ويتوسط أعلى كل جانب من جوانب القاعدة المربعة للقبة عقد آخر يضم قوقعة فى صورة زهرة . وهذا التقسيم الداخلى الى ثلاثة طوابق يتفق مع التقسيم الخارجى . فالطابق الأدنى مربع طول ضلعه نحو ستة أمتار ونصف متر ، وبكل من الوجهين الشمالى والجنوبى من هذا الطابق بقية المحراب بالقيروان ثلاث طاقات . وتختلف عقود طاقات قبة الزيتونة عن عقود طاقات القيروان فى أنها تتألف من أربعة صفوف مسنجة متراكبة فى تراجع . أما الطابق الثانى فدائرى أو شبه دائرى ، ويقابل الطاقات العشر بالداخل عشر دعائم موزعة بين النوافذ .

أما قبة البهو التى أقيمت عام ٣٨١ للهجرة ، فهى بحق أروع القباب التونسية جميعا ، لتناسق تخطيطها ، ودقة تفاصيلها المعمارية ، وتناسق نسبها ، وثراء زخارفها . وعناصر هذه القبة من الداخل كعناصر قبة المحراب ، ولكنها تبدو مستقلة واضحة .

وقد سجل تاريخ بناء قبة المحراب تحت القبة ،

كما سجل اسم صانعها فتح الله . وقد أخطأ «جورج مارسيه » فى اسمه . ويبدو أنه نقل هذا النص التاريخى ناقصا ، فلم ينقل من اسم الصانع سوى مقطعه الأول « فتح » ، وظن أنه من الفتيان الصقالبة ، وأنه ساهم فى بناء القبة ، وقد اعترض الدكتور أحمد فكرى على هذا الاعتقاد ، وأثبت بصورة لا تقبل الشك وجود طائفة من كبار المهندسين والعرفاء المسلمين فى بلاد تونس ، منذ طليعة القرن التاسع ، تخصصوا فى فن بناء القباب ، وبرعوا فيه وحذقوه .

ويتميز جامع الزيتونة بظهور عنصر زخرفى جليل ، يقوم على تناوب اللونين الأبيض والرمادى فى كتل الحجارة التى تؤلف سنج العقود أو مداميك البناء داخل قبة المحراب . وقد ظهرت هذه الزخرفة أول ما ظهرت فى قبة المحراب من الداخل ، ثم اتبعت فى زخرفة عقود قبة البهو ، وفاضت فى داخلها وخارجها ، وغمرت كل بنائها فغطت العقود ، وامتدت الى الجدران نفسها ، والطرر التى تحيط بالعقود . وازدانت دعائم الطابق الثانى من القبة بمربعات ملونة قائمة على رءوسها . وقد تحول اللون الرمادى خارج القبة الى اللون الأحمر ... وهكذا اكتسبت هاتان القبتان مظهرا زخرفيا رائعا انفردتا به بين قباب الاسلام جميعها .

ومن المحتمل أن يكون مهندس جامع الزيتونة قد استلهم من عقود جامع قرطبة التى تتناوب فيها قطع الحجارة البيضاء مع قطع الآجر ، فيحدث من ذلك نوع من الزخرفة المعمارية البسيطة . وظهر هذا النوع من الزخرفة فى بوابات الجامع على هيئة تربيعات شطرنجية . ولا نستبعد انتقال هذه الفكرة الى جامع الزيتونة عام ٢٥٠ للهجرة ، وتطبيقها على الحجارة الملونة ... فقد أخذ جامع قرطبة من

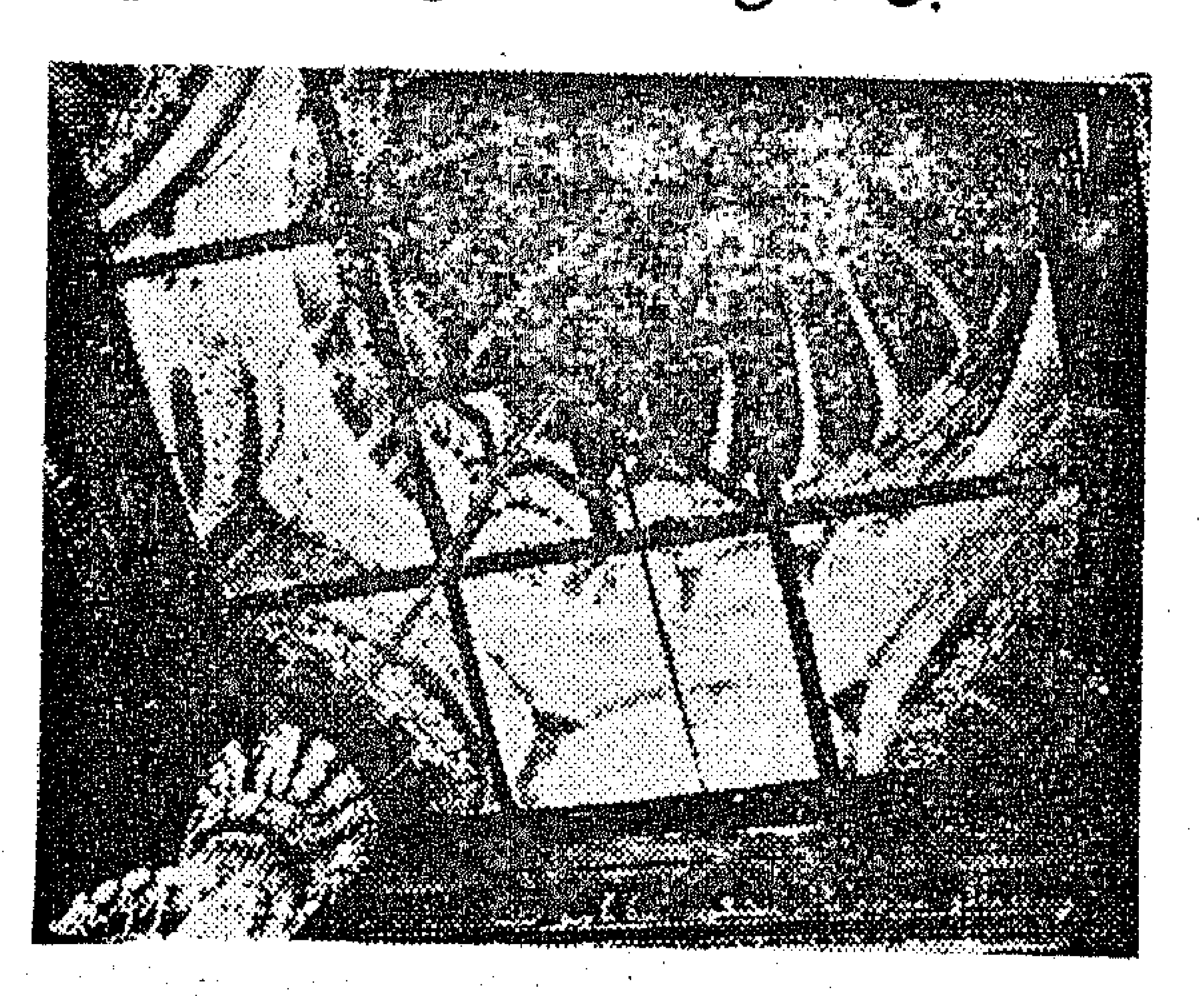


مقرنص من قبة البهو فى مسجد الزيتونة بتونس

القيروان كثيرا من عناصره ، مما يثبت وجود مجال للتأثيرات المتبادلة .

ويزدان صفا عقود بلاط المحراب من الداخل بثلاثة عناصر زخرفية مرتبة فى محور رأسى واحد ... فهناك حشوة عليها زخرفة محفورة فى الجص تشغل موضع التقاء منبتى كل عقدين ، ابتداء من قرمة الحدارة حتى نقطة انطلاق الشريط البارز المحيط بالعقد . وتعلو هذه الحشوة حشوة أخرى مربعة قائمة على رأسها ، تحتشد فيها زخرفة محفورة فى الجص . وتشغل هذه الحشوة بنيقتى كل عقد .

أما الطابق الأعلى فتشغله حشوة ثالثة مستطيلة ،

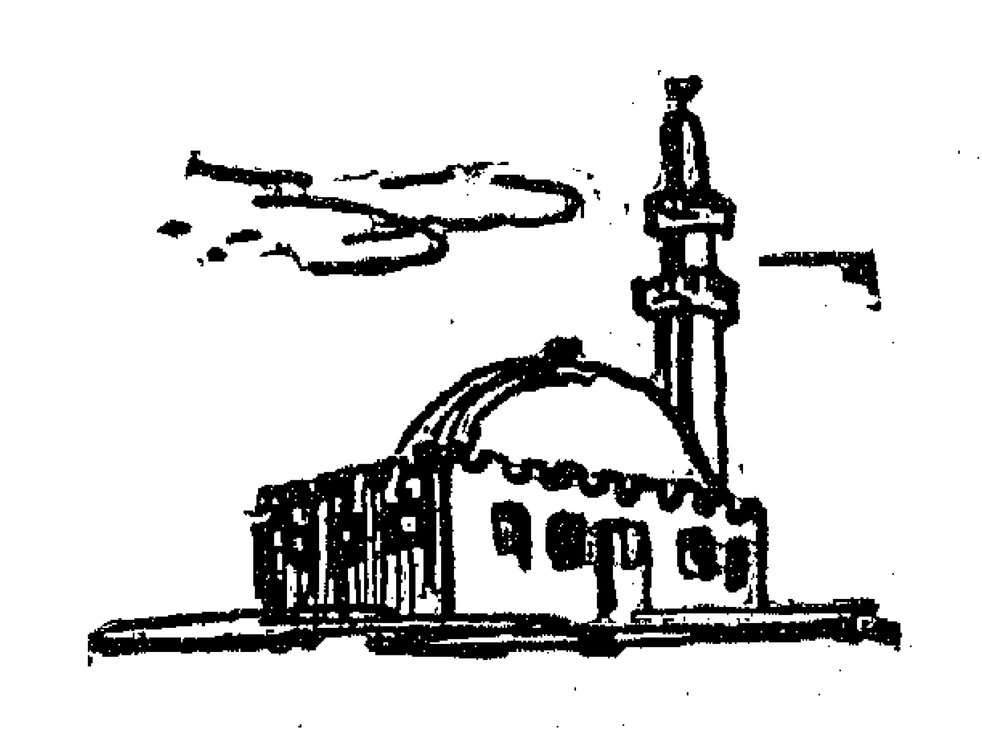


قبتا بيت الصلاة بمسجد الزيتونة بتونس

أكبر من الحشوتين السابقتين ، محفورة فى الجدار الذى يعلو العقد ، وتقع على محور الحشوتين السابقتين نفسه . وللأسف ضاع كثير من هذه الحشوات ، وحلت محلها حشوات أخرى فى القرن السابع عشر للميلاد . وبعض هذه الحشوات يرجع الى القرن التاسع للميلاد . ومعظم ما بقى من هذه الحشوات : العليا منها ، وتتكون من زخرفة تذكرنا بجوفة المحراب ، فهى تتألف من اطار مستطيل يضم جوفة على هيئة قوقعة ، يحيط بها عقد مزدوج متجاوز ، يقوم كل من منبتيه على عمودين صغيرين توأمين . والجزء الأدنى من الجوفة يزخر بزخارف كثيفة تتداخل فيها السيقان والتوريقات ، وتمتاز زخارف هذه الحشوات بأنها حفرت حفرا غائرا يظهر مسطحات الزخارف واضحة نتيجة للتباين الكبير بين الظلمة والضوء . وقد شاهدنا بعض أمثلة لهذا النوع فى قباب جامع القيروان ، ولكنها فى الزيتونة أكثر رقة ومرونة .

وبجامع الزيتونة منبر يرجع الى عام ٢٥٠ للهجرة يشبه الى حد كبير منبر جامع القيروان ، ولكنه أصغر منه حجما . ولم يتبق من حشواته الكثيرة التى كانت تؤلف كتفيه سوى ٢٢ حشوة مستطيلة فى كل من الكتفين . ولا توجد من بين هذه الحشوات واحدة تماثل الأخرى فى الزخرفة ، وتزدان هذه الحشوات بزخارف هندسية محفورة حفرا غائرا مفرغا من مربعات ودوائر ومعينات ، وزخارف بنائية من زهيرات متكررة ذات أربع ورقات تخضع للأسلوب الهندسى ، فتتحول الى زخرفة هندسية لا يذكرنا بأصلها النباتى الا عروق وقنوات تخترق خطوطها المنتظمة . ويحيط بهذه الحشوات طرز من زخارف نباتية قوامها سيقان تملؤها توريقات .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم



المسجد الجامع بالقيروان

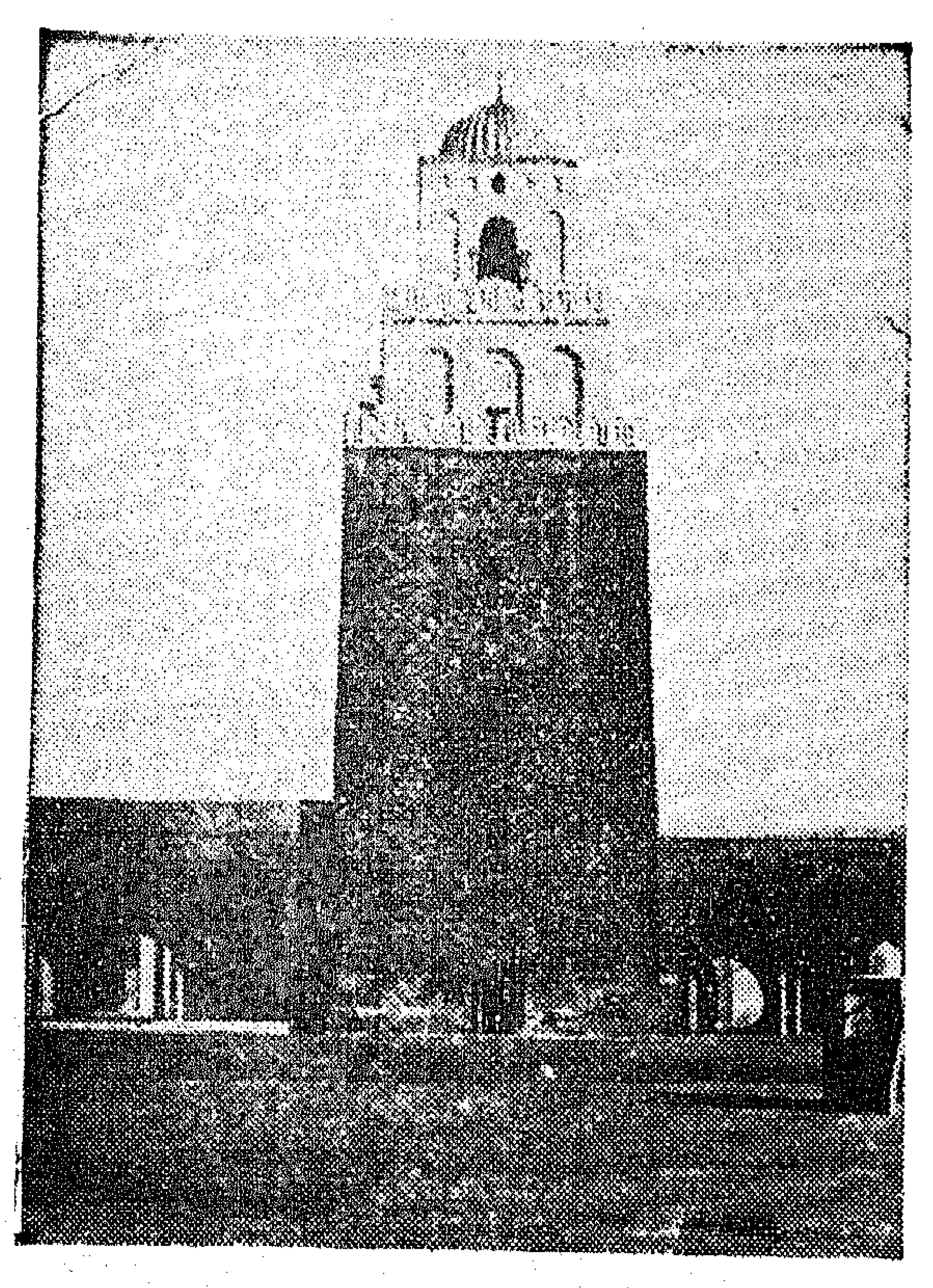
تاريخ بناء الجامع

شرع عقبة بن نافع الفهري فى بناء مدينة القيروان عام ٥٠ للهجرة ، وابتدأ بتخطيط دار الامارة ، ثم عمد الى موضع المسجد الأعظم فاختطه ، ولكنه لم يحدث فيه بناء .

ويذكر ابن عذارى أنه كان يصلى فى موضع هذا الجامع قبل أن يقوم ببنائه « فاختلف الناس عليه فى القبلة ، وقالوا ان جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد ، فاجهد نفسك فى تقويمها . فأقاموا أياما ينظرون الى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس . فلما رأى أمرهم قد اختلف ، بات مغموما ، فدعا الله — عز وجل — أن يفرج عنه . فأتاه آت فى منامه ، فقال له : اذا أصبحت فخذ هذا اللواء فى يدك ، واجعله على عنقك ، فانك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك ... فانظر الموضع الذى ينقطع عنك فيه التكبير ، فهو قبلتك ومحرابك ، وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه ، ويذل بها من كفر به ... فاستيقظ من منامه ، وهو جزع ، فتوضأ للصلاة ، وأخذ يصلى وهو فى المسجد ومعه أشراف الناس . فلما انفجر الصبح ، وصلى ركعتى الصبح بالمسلمين ، اذا بالتكبير بين يديه ، فقال لمن حوله : أتسمعون ما أسمع ؟ فقالوا : لا . فعلم أن الأمر من عند الله ، فأخذ اللواء فوضعه على عنقه ، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل الى موضع المحراب فانقطع التكبير . فركز لواءه وقال : هذا محرابكم . فاقتدى به سائر مساجد المدينة » .

ولم تلبث المدينة أن عمرت بعد تخطيط الجامع بالدور ومختلف الأبنية والمساجد ، وشد الناس اليها الرحال ، وعظم قدرها ، وتحقق الرجاء من بنائها ، وأصبحت بحق قاعدة للمسلمين فى بلاد المغرب .

ومنذ ذلك العهد أصبحت قبلة جامع القيروان موضع اجلال الناس وتعظيمهم ، فلم يتعرض لها أحد الأمراء بسوء فى الزيادات المتتالية التى أجريت



مئذنة المسجد الجامع بالقيروان

بالجامع عامة وببيت الصلاة خاصة . ولم يتغير موضع القبلة ، ولم يهدم جدار المحراب ، برغم انحراف هذه القبلة عن الاتجاه الصحيح . وما زالت القبلة على ما هي عليه من انحراف حتى يومنا هذا ، لما كان من تقديس الناس لبقعتها ولشرف انتمائها الى عقبة بن نافع التابعي الذي أورث اسمه الجامع ، فصار يعرف بجامع سيدي عقبة .

ومثل هذا حدث في قرطبة حيث أسس حنش بن عبد الله الصنعاني وأبو عبد الرحمن الحبلي التابعان قبلة جامعها بأيديهما ... فقد احتفظ المسجد الجامع — مع زياداته المتكررة من جهة القبلة — باتجاهها الذي حدده حنش الصنعاني . ولم يجسر أحد الأمراء أو الخلفاء من بني أمية على تغيير هذا الاتجاه . وقد روى أن الحكم المستنصر رغب في تعديل اتجاه قبلة الجامع عند زيادته له ، فتصدى له أحد الفقهاء ، وذكره بأن أول من نصبها حنش الصنعاني التابعي ، وصلى عليها خيار أهل هذه الأمة . فأخذ الخليفة برأيه ، وعدل عن تعديل اتجاه القبلة .

وكان جامع عقبة بن نافع فيما نظهر صغير المساحة ، بسيط البناء . ويغلب على الظن أن أسقفه كانت تقوم مباشرة على الأعمدة دون أن تحملها عقود ... لذلك لم يكد يمضي على بنائه عشرون عاما حتى هدمه حسان بن النعمان الغساني ، ما عدا المحراب ، ووضع في محرابه ساريتين موشاتين بصفرة كانتا في كنيسة . ثم شيد حسان على موضعه مسجدا جديدا فيما بين عامي ٧٨ — ٨٣ للهجرة (٦٩٣ — ٦٩٧ م) احتفظ فيه بمحراب عقبة . وتم بناء مسجد حسان من الجهة الشمالية المقابلة للقبلة تجنبا لتغيير جدار المحراب .

ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكري في كتابه عن جامع القيروان أن حسان قد زاد في عدد أروقة الجامع ، وأن بيت الصلاة الجديد كان يشتمل على أربعة أساكيب (أي أروقة عرضية) . ولم يكن للمسجد في ذلك الوقت مجنبات تطل على الصحن وتدور حوله

وفي عام ١٠٥ للهجرة (٧٢٤ م) ضاق الجامع بالمصلين ، فأمر الخليفة هشام بن عبد الملك عامله على القيروان وقتئذ ، بشر بن صفوان (١٠٣ — ١٠٩ هـ) ، بزيادة المسجد . فاشترى بشر أرضا محيطة بالمسجد من شماله ، وضمها اليه ، وبنى في الصحن ماجلا ، وأضاف الى بيت الصلاة ثلاثة أساكيب أخرى ، مد بهـا طول بلاطاته . ويمكننا أن نشاهد حدود هذه الزيادة اليوم في صف العقود التي تمتد بعرض بيت الصلاة في خط مستقيم ، عند نهاية الأسكوب السابع ابتداء من القبلة ، مما يدل على أن بيت الصلاة كان ينتهي عند هذا الحد . ثم بنى بشر مئذنة للمسجد في منتصف جداره الشمالي داخل الصحن ، على بئر كانت تعرف ببئر الجنان ، ونصب أساسها على الماء .

ويذكر ابن عذارى أن يزيد بن حاتم جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان عام ١٥٧ للهجرة (٧٧٤ م) ولكننا نعتقد أن أعمال يزيد لاتعدو اصلاحه ، وتجديد بعض زخارفه .

وظل المسجد على حالته بعد زيادة بشر ابن صفوان ... الى أن تولى زيادة الله بن ابراهيم ابن الأغلب الامارة بافريقية عام ٢٢١ للهجرة (٨٣٦ م) ، فبدأ بهدم أجزاء كثيرة من المسجد دون أن يغير كثيرا من نظامه ، أو يبدل من حدوده .

ويذكر البكري أن زيادة الله أراد هدم المحراب ، فقيل له : ان من تقدمك توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه . فألح في هدمه لئلا يكون في الجامع أثر لغيره ، حتى قال له بعض

البناة : أنا أدخله بين حائطين ، ولا يظهر فى الجامع أثر لغيرك . فاستصوب ذلك وفعله ، ولم يمسسه بسوء ، وبنى المحراب الجديد بالرخام الأبيض .

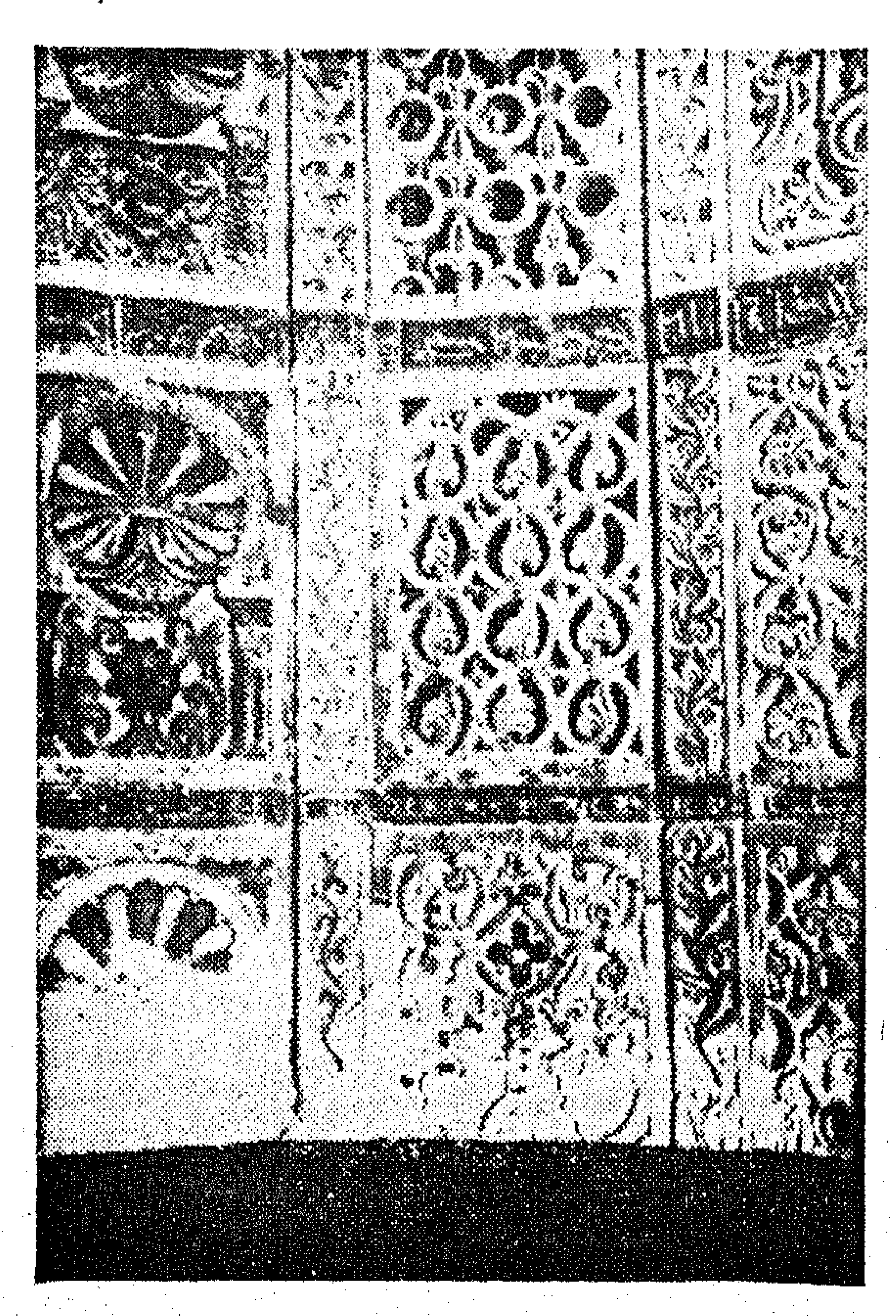
ويغلب على الظن أن بيت الصلاة فى عهد بشر بن صفوان كان يتألف من ١٨ رواقا ، فهدم زيادة الله الرواقين التاسع والعاشر ، وأقام بدلا منهما رواقا واحدا فسيحا ، فأصبح للمسجد ١٧ رواقا : الرواق الأوسط منها أكثر من بقية الأروقة اتساعا وارتفاعا . ويمكننا أن نفسر عبارة المؤرخين بأن زيادة الله هدم الجامع كله ، بأنه هدم أسقف الجامع وأقامها من جديد ، بعد أن رفعها عما كانت عليه ، وبنى قبة على أسطوان المحراب زخارفها على نمط زخارف اللوحات الرخامية التى كسا بها المحراب الجديد . أما أسوار الجامع ومحرابه وأعمدته فظلت كما كانت عليه أيام بشر ابن صفوان .

ويبدو أن زيادة الله أنفق على هذه الأعمال المعمارية بالجامع أموالا كثيرة ، وأنه زود الجامع بصورته الأخيرة التى نراها فى يومنا هذا ، وهى صورة لم تتغير على مر الزمن ... وهو الذى وضع للبلاطات نظامها الفريد الذى يشف عن أصالة وابتكار . وذكر ابن عذارى أنه قال : « ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات : بنيانى المسجد الجامع بالقيروان ، وبنيانى قنطرة أبى الربيع ، وبنيانى حصن مدينة سوسة ، وتوليتى أحمد بن أبى محرز قاضى افريقية » .

الواقع أن ما قام به زيادة الله من عمارة يعد بناء جديدا للجامع ، وهو ما كان يفخر به زيادة الله . وفى عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) تمت زيادة فى جامع القيروان . ولا ندرى ماذا قصد المؤرخون من ذكر هذه الزيادة ، ولكننا نعتقد أن المقصود بها تتمة أعمال البناء التى شرع فيها زيادة الله .

ولما تولى ابراهيم بن أحمد بن الأغلب الامارة زاد فى طول الجامع عام ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) ، وبنى القبة المعروفة بباب البهو على مدخل البلاط الأوسط . كذلك أقام ابراهيم بن أحمد المجنبات التى تدور حول الصحن . وظل المسجد على هذه الصورة دون أى تغيير حتى أضاف اليه بنوزيرى واجهات . وقد سجل تاريخ هذه الاضافات على أحد أعمدة المجنبة الغربية ، اذ نقشت عليه كتابة بالخط الكوفى نصها : « هذا ما أمر بعمله خلف الله بن غازى الأشيرى فى رمضان من عام اثنين وأربعمائة » .

كذلك أقام المعز بن باديس بالمسجد المقصورة



حشوات رخامية بمحراب جامع القيروان

الخشبية التى لا تزال منصوبة حتى اليوم بجوار المحراب . ويرى الأستاذ « جورج مارسيه » أن المسجد زود بأسقف خشبية وأبواب فى منتصف القرن الخامس للهجرة . وفى عام ٦٩٣ هـ أمر الخليفة أبو حفص بفتح بابين فى الجدارين الشرقى والغربى من بيت الصلاة . ثم تلا ذلك بعض أعمال اضافية بسيطة لم تغير نظام المسجد وبنيته .

تخطيط الجامع

جامع القيروان من أكبر المساجد الجامعة الباقية فى الاسلام ، وأعظمها مظهرا ، اذ يبلغ طوله ١٢٦ مترا وعرضه ٧٧ مترا ، وطول بيت الصلاة فيه ٧٠ مترا وعرضه ٣٧ مترا . وصحنه فسيح واسع طوله ٦٧ مترا وعرضه ٥٦ مترا . ولهذا الصحن مجنبات عرض كل منها نحو ستة أمتار وربع متر ، وتنقسم المجنبة الى رواقين . ويشتمل بيت الصلاة على ١٧ بلاطا عموديا على جدار القبلة ، تمتد على عشرة أساكيب أو بلاطات عرضية . وبلاط المحراب وأسكوبه أوسع من بقية البلاطات والأساكيب ، ولا تعترضهما أية عقـود ، فهما يؤلفان مجازين متعامدين على هيئة حرف T .

ونلاحظ أن تخطيط جامع القـيروان يتميز بظاهرة جديدة . فعلى بلاط المحراب ، أو البلاط الأوسـط ، قبتان : الأولى عنـد تقاطعه مع أسكوب المحراب أمام القبلة ، والثانية على مدخل البلاط الأوسط مما يلى الصحن . وتعرف القبة الأولى بقبة المحراب ، والثانية بقبة باب البهو . وقد أثر هذا النظام الجديد الذى ابتدعه بناء زيادة الله على أنظمة المساجد التونسية الأخرى ، فنراه فى جامع الزيتونة بتونس ، ونراه فى مساجد أخرى . كما قلده مهندسو الحكم المستنصر عند زيادتهم فى المسجد الجامع بقرطبة .

وتمتد فى بيت الصلاة صـفوف منتظمة من العقود ، تحملها أعمدة قـديمة اتخـذت من الكنائس المهدمة ، وأعيد استخدامها بالجامع . ونظرا لقصر هذه الأعمدة ، وتفاوتها فى الارتفاع ، توسـل المهندسون المسـلمون بوسيلتين لزيادة ارتفاع سقف المسجد وتسوية ارتفاع الأعمدة ، فاستعانوا بمكعبات حجرية مستطيلة أو مربعة ، محـاطة من أعلى بطنوف ومن أدنى بقـرم . ثم رفعوا فوق هذه الحدائر عقودا متجاوزة تشبه حدوة الفرس .

وعقود مجنبات الصحن تقوم على أعمدة مزدوجة يلتصق كل زوج منها بركيزة ضخمة ، وهـذه الركائز تكسب البناء قوة وثباتا . ومحراب الجامع جوفة فى جدار القبلة يرجع تاريخها الى أيام عقبة بن نافع . وقد ذكرنا أن هذه الجوفة تختفى وراء لوحات مخرمة من الرخام الأبيض .

ويرى الأسـتاذ « مارسيه » أن وجود هـذه الجوفة أمر طبيعى ، لأن هذه اللوحات الرخامية تتطلب أن يكون خلفهـا فراغ معتم حتى تتضح نقوشـها ، وأن هـذا الاحتيال البسيط أدى الى اختلاق الناس لأسطورة المحراب . ويؤيده الأستاذ « كريسويل » فى هذا الزعم ، فهو يستنكر أن تكون تلك الجوفة التى نشاهدها من بين خروم المحراب الجديد ، هى محراب عقبة القـديم . ويقول ان هذه الخروم التى تبطن لوحات المحراب وتملؤها ، قصد بها أن تكون ستارة قائمة لتوضيح الزخرفة الرخامية المخرمة . ولا يعتقد «كريسويل» أن جامع عقبة كان به محراب مجوف ... فالمحاريب المجوفة ، فى رأيه ، لم تظهر فى الاسلام حتى زمن الوليد .

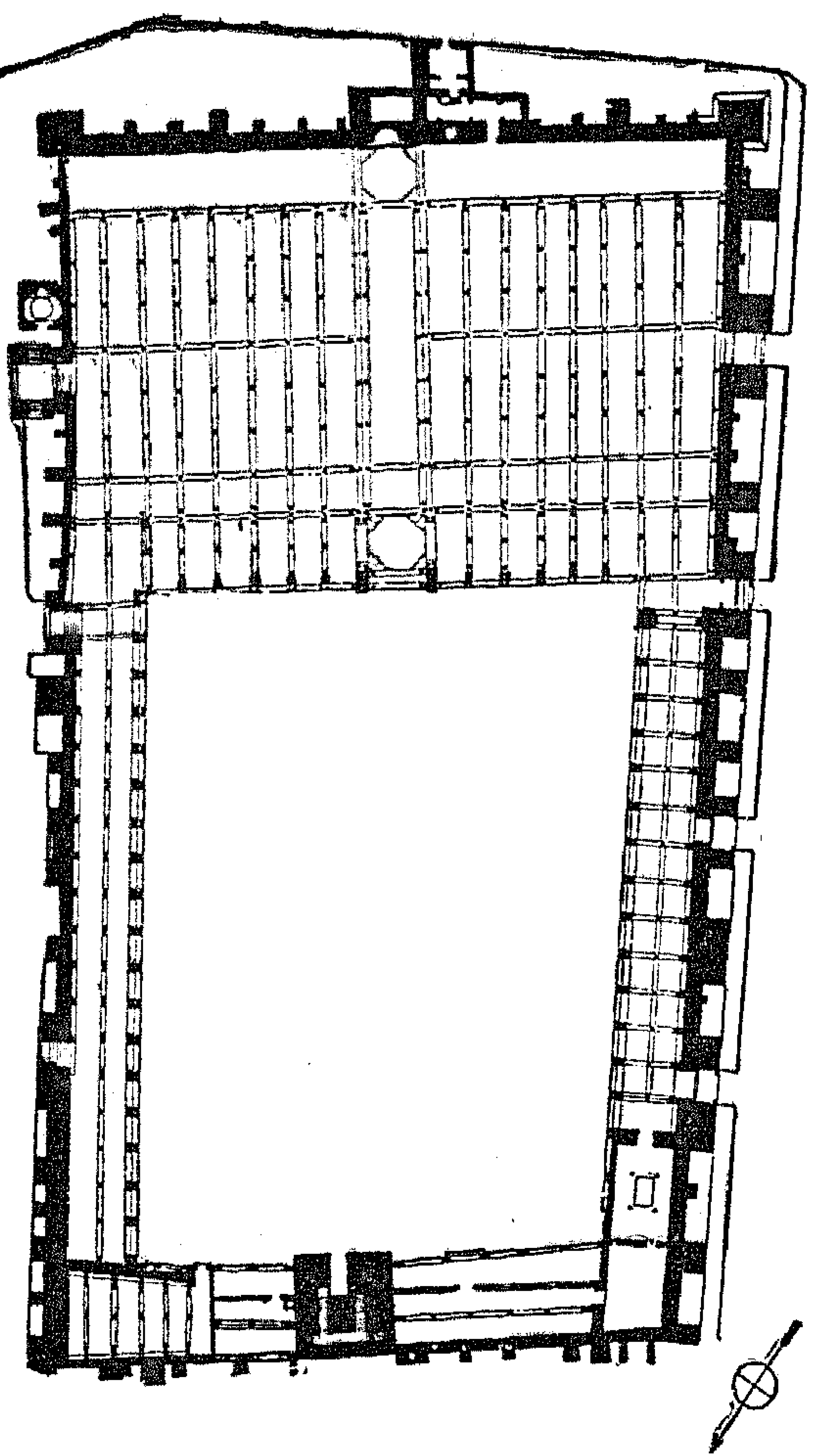
وقد اعترض الدكتور أحمد فكرى على هذه الآراء ، وفندها كلها ، وأدلى برأيه فى ذلك واضحا معززا بالأدلة والحجج والبراهين ، وأثبت أن هذه

الجوفة التى تظهر من خـلال لوحات الرخام هى محراب عقبة القديم .

ويدعم جدران المسـجد الشرقية والغربية من الخارج ركائز ضخمة تلتصق بالجدران ، وظيفتها ليست — كما قد يتبادر الى الذهن — دعم البناء ، وتحمل ضغط عقود بيت الصلاة ... لأن هـذه الركائز أقيمت فى مواضع بعيدة عن نقط امتداد العقود ومراكز اندفاعها ، وانما الغرض منهـا أن تتمشى فى مظهرها مع الدعائم البارزة التى تكتنفه أبواب المسجد فتضفى عليـه جمالا ، لأن هـذه الدعائم لو تركت بمفردها لظهرت كأنها زيادات منفرة تشوه المظهر الخارجى للمسجد .

أما المئذنة فتتوسط الجدار الشمالى للجامع ، وتتكون من ثلاثة طوابق تعلوها قبـة مفصصة . والطابق الأدنى مربع القاعدة ، تنحدر جدراله الى الداخل انحدارا خفيفا فيقل عرضها كلما ارتفعت مما يكسب المئذنة قوة وارتكازا وثباتا . وبنيت قاعدة هذا الطابق ، حتى ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف متر ، بقطع حجرية ضـخمة مصقولة ، أما بقيـة الطابق فمن كتل حجرية مستطيلة تشـبه قوالب الآجر . ويعلو هذا الطابق طابق آخر مربع ولكنه أصغر كثـيرا من الطابق الأدنى ، ويتراجع الطابق الثالث عن الطابق الثانى ، وتزدان جدران الطابق الثانى بطاقات ثلاث مسـدودة ، ومعقودة فى كل وجه من أوجهه ، فى حين يزداد كل وجه من أوجه الطابق الأعلى بنافذة تكتنفها طاقتان مسدودتان . ويعلو الجـدار الأعلى من كل طابق شرفات على هيئة عقود متصلة مفرغة فى وسطها .

ويدور بداخل المئذنة درج ضيق ، سـقفه على هيئة قبوات نصف اسطوانيـة ، وتتخلل جدران



الرسم التخطيطى للمسجد الجامع بالقيروان

المئذنة فتحات تبدو ضيقة من الخارج ، ولكنهـا تتسع كلما نفذت فى الجدران ، وظيفتها اضـاءة الدرج ، وتعلو هذه الفتحات من خارج المئـذنة عقود مخففـة للضغط تشـبه حدوة الفـرس .

وينسب الدكتور أحمد فكرى هـذه المئذنة الى بشر بن صفوان الذى بنـاها عام ١٠٥ هـ بأمر الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك . وقد اتخذت هـذه المئذنة نموذجا للمآذن الاسلامية ... لا فى المغـرب والأندلس فحسب ، بل فى بعض المآذن المصرية ، مثل مئذنة مسجد الجيوشى وضريحه ، ومئذنة مدرسة قلاوون وقبتها . وأصبحت مئـذنة جامع القيروان تؤلف طابعا مغربيا بحتا .

عنى زيادة الله بقبلة جامع القيروان عناية فائقة ، فجعلها محورا للجامع ، وركز فيهـا كل روائع زيادته ... اذ كانت العنصر الأساسى للجامع ، وأكثر أجزائه أهمية منذ أيام عقبة بن نافع . وقد رأينا كيف هدم الرواقين التاسع والعاشر من أروقة المسجد القـديم ، وأقام بدلا منهما رواقا فسيحا يزيد اتساعه عن بقية الرواقات الأخرى ، ويتعامد مع أسكوب المحراب المحاذى لجدار القبلة ... فأقام زيادة الله على أسطوان المحراب ، عند تقاطع هذين الرواقين الكبيرين أمامه ، قبة أودعها كل روائع الفن المغربى من زخارف ونقوش وهذه القبة هى أقدم قباب المسجد فى الوقت الحاضر ... بل أقدم قبة فى بلاد المغرب كلها ، وعلى مثالهـا أقيمت قباب المحراب بمساجد المغرب والأندلس .

وفى عهد ابراهيم بن أحمد أقيمت عام ٢٦١ هـ ، على مدخل البلاط الأوسط من جهة الصحن ، قبة أخرى تم بها تتويج هذا الرواق من جهتيه القبلية والجوفية ، واستكمل بها بيت الصلاة تناسـقه واتزانه . وأصبح بناء قبتين على البلاط الأوسط ببيت الصلاة ، منذ ذلك الحين ، قاعدة عامة اتبعتها المساجد الأندلسية والمغربية .

ولا شك أن بناة زيادة الحكم المستنصر فى جامع قرطبة أخذوا بهذا النظام المعمارى الفريد ، فطبقوه فى هذه الزيادة ، وأقاموا بلاطا للمحراب يتوسط بلاطات الزيادة المستنصرية ، وأسكوبا بحذاء جدار المحراب أكثر اتساعا من بقية الأسـاكيب . ثم أقاموا قبتين : الأولى على بلاط المحراب عنـد مدخل الزيادة ، والثانية على هذا البلاط ذاته عند منتهاه أمام المحراب . ثم أحاطوا هذه القبة الأخيرة بقبتين جانبيتين أكسبتا زيادة الحكم المسـتنصر تناسقها الشامل ، وعمارتها الفريدة .

ثم أقام الخليفة أبو حفص عام ٦٩٣ م قبتـين تعلوان مدخلى بيت الصلاة شرقا وغربا ، وهناك قبتان أخريان : احداهما تعلو المئذنة ، والثانية تتوج المدخل الأوسط بالمجنبة الغـربية . ويذكر الدكتور أحمد فكرى أنه بالرغم من اختلاف مظهر هذه القباب ، فانها تتشـابه جميعا فى البنيان ، وتتشعب من فكرة واحدة ... فكرة خصيبة متزنة وأصيلة .

وتتكون قبة المحراب بجامع القيروان من ثلاثة أجزاء : القاعدة المربعة ، والعنق الأوسط الدائرى ، والخوذة الكروية .

وتقوم القاعدة المربعة على أربعة عقود : الشرقى والغربى منها فى بلاط المحراب (عموديان على هذا المحراب) ، والشمالى فى أسكوب المحراب (مواز له) ، والرابع ملتصق بجدار القبلة فوق الطرة المربعة المحيطة بجوفة المحراب . ويعلو كل ركن من أركان هذه القاعدة المربعة مقرنص كبير يمثل جوفة مقوسة معقودة تشبه قوقعة رأسـها مفصص ، اذ ينقسم تكورها الى فصوص تتفرع من المركز الواقع فى ركن القاعدة ويشغل منتصف كل جانب من جوانب القاعدة عقد يتصل كتفاه بكتفى عقدين مقرنصين ، فيتألف من ذلك مجموعة من ثمانية عقود تحول مربع القاعدة الى مثمن ، وتترك هذه العقود الثمانيـة بين منحنياتها فراغا تشغله مقرنصات أخرى صغيرة معقودة على درجات ثلاث .

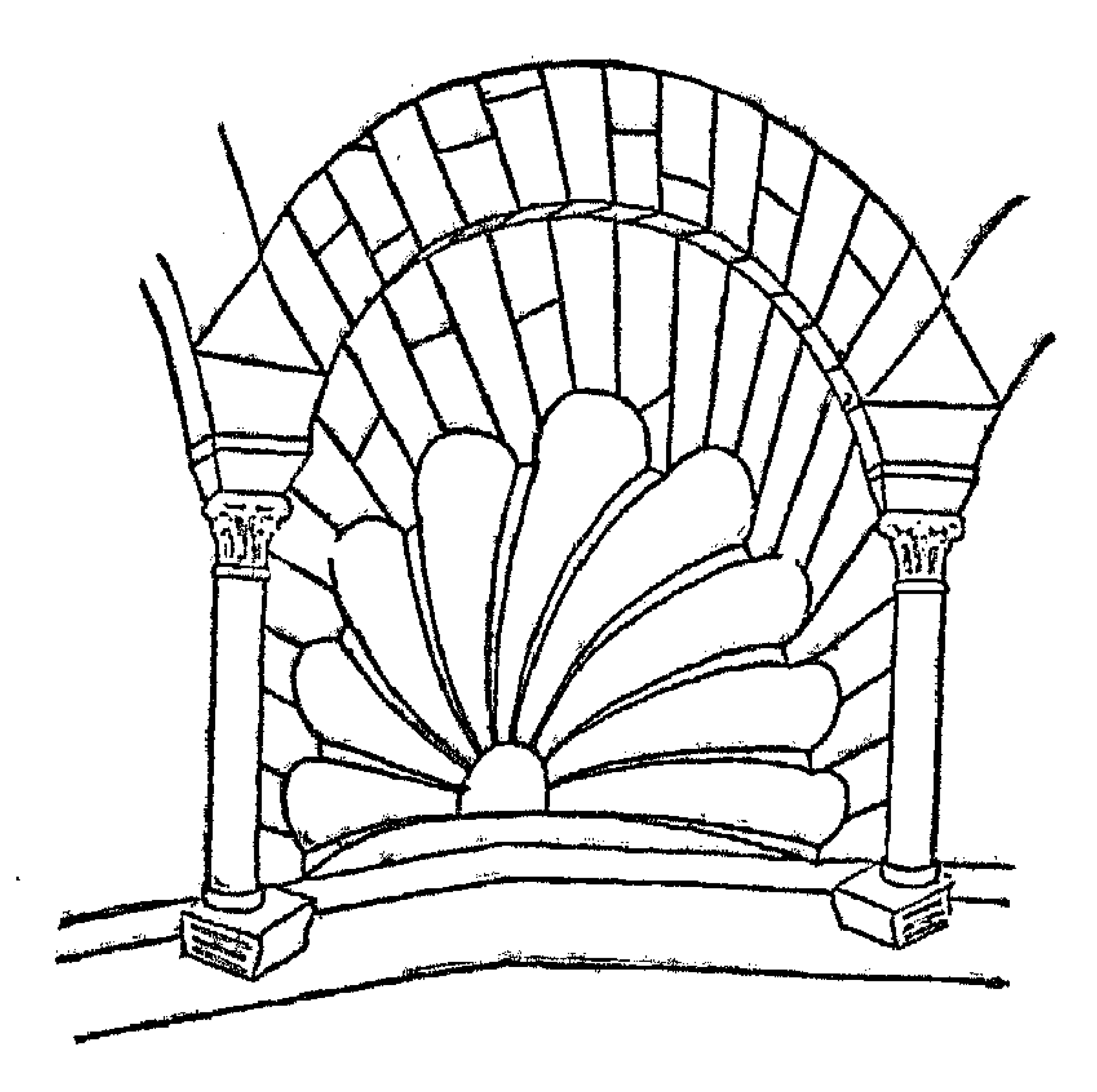
أما العنق فيشبه أسطوانة دائرية تزدان بأربع وعشرين طاقة معقودة ، منها ثمانى نوافذ يدخل

منها الضوء . وتستند هذه الطاقات جميعا على عمد صغيرة . أما الخوذة الكروية للقبة فترتكز على هذه الأسطوانة الدائرة . وتنقسم الخوذة الى أربعة وعشرين ضلعا بارزة متفرعة من رأس الخوذة وتحمل هذه الضلوع فصوصا عددها مثل عدد الضلوع .

وتشبه قبة باب البهو القبة السابقة ، برغم ما حدث فيها من تغيرات واصلاحات . فعناصرها كعناصر قبة المحراب : قاعدة مربعة فى أركانها مقرنصات معقودة تحول طابق المربع الى مثمن ، ثم طابق دائرى مؤلف من أربع وعشرين طاقة معقودة ، ثم طابق ثالث هو الخوذة ذات الضلوع البارزة . وقد تأثرت بقية قباب المسجد بقبتى المحراب وباب البهو ... فان قبة للا ريحانا تتكون من ضلوع ومقرنصات وأعمدة ، وتلك عناصر القبتين السابقتين .

ويرى الأستاذ الدكتور أحمد فكرى أن قبة المحراب التى أقامها زيادة الله على مثال قبة كانت قائمة بالمسجد قبل زيادة الله بن الأغلب . ثم جاءت قبة زيادة الله بالمحراب تطورا لها . ويرجح أن تكون هذه القبة القديمة هى قبة المدخل الغربى الى الصحن . وقد عزز هذا الرأى بأدلة مقنعة توصل اليها من عمارة القبتين .

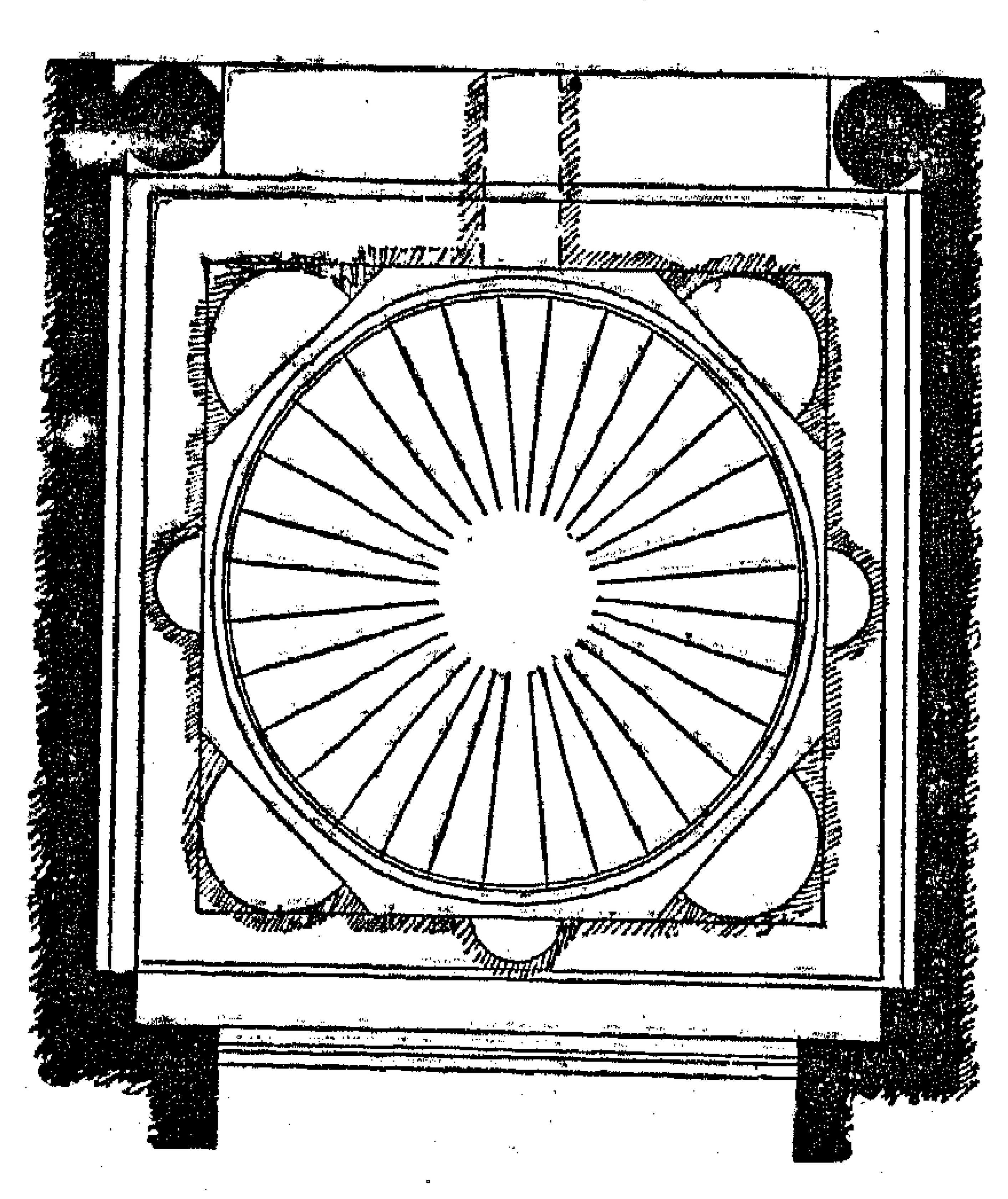
وانتشر نظام قباب القيروان فى المغرب والأندلس ، واتخذت نموذجا لقباب جامع الزيتونة بتونس الذى يشتمل بيت الصلاة فيه على قبتين تعلوان بلاط المحراب ، كما هو الحال فى جامع القيروان ، هما : قبتا المحراب وباب البهو . وعناصر قبة المحراب بجامع الزيتونة مثل عناصر قبة المحراب



رسم لقرنصة معقودة من مقرنصات قبة المحراب بالمسجد الجامع بالقيروان

بجامع القيروان ، وعدد العقود والأعمدة والضلوع فى القبتين متساو .

لذلك انتشر نظام قباب القيروان وتونس فى الأندلس فى صورة أكثر تطورا من الوجهة المعمارية . فان مهندس الحكم المستنصر لم يقلد نظام توزيع



تصميم قبة المحراب بالمسجد الجامع بالقيروان

القباب على بلاط المحراب فحسب ، بل اقتبس بناء قبابه من قباب القيروان وتونس . لقد أخذ من قباب القيروان وتونس فكرتها المعمارية ، وطبقها على قبابه مع شيء من الأصالة والابتكار ، فجاءت قبابه فى صورة حية جديدة . وقباب قرطبة قوامها هيكل من الضلوع المتقاطعة فيما بينها بحيث تؤلف أشكالا نجمية ، تقوم فى وسطها قبيبة مفصصة . وكسيت هذه الضلوع من أعلاها بحشو من البناء ، وطبقت فى الفراغ الحادث من تقاطع العقود أو الضلوع البارزة زخارف جميلة من قواقع ونجوم وفصوص .

ويرى الدكتور فكرى أن فكرة تصميم قباب قرطبة تتفق مع قبة مسجد القيروان . واتفاق هذه الفكرة ، فى اعتقاده ، يرجع الى وحدة تفكير رجال الفن المسلمين ، وارتباطهم بعوامل واحدة . وتتمثل عناصر هذه الفكرة متجمعة فى قبة المحراب بجامع قرطبة وان كانت تطورت كثيرا ، فتعددت الخطوط الهندسية ، وزاد تجزؤ الفضاء ، واتخذت العقود والأقواس والضلوع والأعمدة رسما أكثر وضوحا . أما المقرنصات فبدت فى مظهر زخرفى بحت .

أما الأستاذ لامبير فيرى أن ضلوع قبة محراب القيروان مرتبطة كل الارتباط بفصوص الخوذة الكروية ، أما ضلوع قبة المحراب بجامع قرطبة فمستقلة كل الاستقلال عن الغطاء الذى يكسو هيكل الضلوع . ولكنه يرى أن ضلوع قبة المحراب بجامع الزيتونة بتونس تبدو مختلفة اختلافا يسيرا عن ضلوع قبة المحراب بجامع القيروان ، وأن فصوص الخوذة بقبة الزيتونة تبدو منفصلة عن هيكل من العقود البارزة المستقلة ، قطاعها مستطيل يشبه فى حد ذاته ضلوع قبة المحراب بجامع قرطبة .

ويبدو أن مهندس جامع قرطبة استغل هذه الفكرة فى بناء قبة المحراب بزيادة الحكم المستنصر ، وابتكر عليها فكرة تقاطع هذه العقود البارزة التى استلهمها من شبكات العقود المتقاطعة والمتداخلة والمتراكبة فى البلاط الأوسط وأسكوب المحراب . وقد توج الفراغ الحادث من تقاطع هذه العقود بقبيبة ذات ثمانية فصوص . أما القبيبة الوسطى بقبة الضوء — وهى القائمة على مدخل البلاط الأوسط من زيادة الحكم — فتتكون من اثنى عشر فصا ، وتذكرنا بقبة المحراب بجامع القيروان .

وانتقل نظام التقبيب القائم على تقاطع الضلوع من قرطبة الى طليطلة ، فنراه ممثلا فى صور مختلفة بمسجد باب مردوم ، ومن قبابه ما يبدو رباعيا منحرفا ذا أقطار ، كأنه قبوتان من الطراز القوطى احداهما داخل الأخرى ، ومنها ما يبدو مثمنا ، ومنها ما يقلد تقاطع ضلوع قبة المحراب بقرطبة . ثم انتشر هذا النوع من القباب منذ ذلك الحين انتشارا كبيرا يشهد به ذلك العدد الهائل الذى نراه فى الكنائس المسيحية بطليطلة والمزان بقشتالة وتوريس دل ريو ودير موساك وأولورون وسان بليز . ومن هذه القبوات الأخيرة استلهم الفنانون الفرنسيون فكرة قبواتهم القوطية .

فكأن الفكرة بدأت من جامع القيروان وانتهت بالقبوات القوطية الفرنسية . وخلال هذه الرحلة الطويلة فقدت القباب الاسلامية فكرتها المعمارية الأصيلة ، واتخذت مظهرا زخرفيا بحتا نراه بارزا فى أوضح صورة بقبة المسجد الجامع بتلمسان ، وقبة البروديين بمراكش ، وقبة جامع تازة .

زخاف الجامع

يغلب طابع البساطة على بناء الجامع بوجه عام ، ويتجلى ذلك فى عقوده الملساء بجدرانها وقرمها وطنفها وتيجانها ، ولكن هذه الصورة البسيطة ما لبثت أن دخلتها بعض الحليات ، فعلا العقود صف من عقود زخرفية صغيرة فى صورة رواق مصغر

ـ كما هو الحال فى عقد باب المقصورة القديمة ـ أو أحاط بالعقد افريز مستطيل نقشت فيه مربعات موضوعة على رءوسها ، كعقد باب الميضـأة . ثم تطور المظهر الزخرفى بمرور الزمن ، وازدان بعض عناصر الجـامع بزخارف آية فى الأناقة والجمـال كزخارف المحراب وقبته وبلاطه .

وتكسو جوفة المحراب غلالة رقيقة من الرخام نقشت فيها زخارف نباتية مخرمة ، يتسرب الضوء من بين خرومها ، وينفذ الهـواء من بين فتحاتها الرشـيقة ، ويلمع الرخام الناصع بين ظل الفراغ المعتم الذى يتخلل الزخارف . ولقد اصطفت هذه اللوحات الرخامية صفوفا أربعة فى كل صف سبع حشـوات عرض كل منها ٤٤ سنتيمترا . ويزدان الشريط الأفقى العلوى الذى يفصل الصف العلوى من الحشوات عن السفلى بكتابة كوفية منقوشة فى الرخام نقرأ فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد . محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وتزدان الحشوات الرخامية بزخرفة نباتية تقوم على التوريقات ، وهندسـية تكثر فيها المربعات والدوائر والخطوط المتقاطعة . وقوام هذه الزخارف ورقة العنب وسعف النخيل . وتبدو ورقة العنب فى صور مختلفـة ، فهى مقصوصة أو ملفوفة أو ممتدة أو منكمشة . وكثيرا ما يتفرع من السيقان الملتفة أوراق وزهور تملأ الفراغ ، أو تتفرع هذه الأوراق النباتية من سـاق متوسـطة منحنية فى تموجات .

وبعض هذه الحشوات الرخامية يزدان بزخرفة فى صورة قواقع ، ولكن العدد الأكبر منها يشغله فرعان منحنيان متناسقان ، يتشابكان أحيانا على امتداد المحور ، وتبرز وسط هذا التشابك زهرة .

وبجانب هذه الحشوات تبدو الشبكات الزخرفية التى تغطى نوافذ القبة ، وتتكون زخارفها عامة من ساق متوسطة تشبه شجرة الحياة الفارسية ، أو من فروع متموجة تتدلى منها أغصان بها أوراق العنب وعناقيده ، وتشبه هذه الزخارف ، الزخارف التى نشاهدها على واجهة مسـجد الأبواب الثلاثة بالقيروان ، الذى أقامه محمد بن خيرون المعافرى الأندلسى عام ٢٥٢ للهجرة (٨٦٦ م) . ويكسو الجدران التى تعلو البلاط الأوسط بجامع القيروان زخرفة هندسية ونباتية تمتد الى بنيقات العقود ، وتعد من أروع أمثلة الزخرفة فى هذا العصر .

وتزين عقد المحراب وما يحيطه من جدار المحراب تربيعات من الخزف ذى البريق المعدنى (قراميد) ، تنسب الى أبى ابراهيم أحمد بن محمد ، ٢٤٢ — ٢٤٩ للهجرة (٨٥٦ — ٨٦٣ م) ، وقد اسـتقدم أبو ابراهيم هذه القراميد من العراق ، وينعكس ذلك على زخارفها المتأثرة بالتقاليد الساسانية .

أما أعمدة المسـجد وتيجانه ، فأغلبها وثنيـة أو مسيحية استخرجها المسلمون من الأطلال القديمة بقرطاجنة وتيبسا وتمجاد . وكانت عادة استعمال الأعمدة الرومانية شائعة فى افريقية فى ذلك الوقت . وكان الأمراء يشترون التيجان الجميلة ، ويرصعون بها مساجدهم وأبنيتهم . وقد قيل ان عمودين من الرخام الأخضر دفع فيهما يزيد بن حاتم مبلغا كبيرا من المال . وهناك أعمدة وتيجان أخـرى اشتراها أفراد وتبرعوا بها للمساجد رغبة فى ثواب الله . وفى جامع القيروان عمودان عليهما نقش كتابى نقرأ فيه كلمة « للمسجد » مما يقطع بأنهـما من بين الهبات التى وهبها بعض الناس للمسجد .

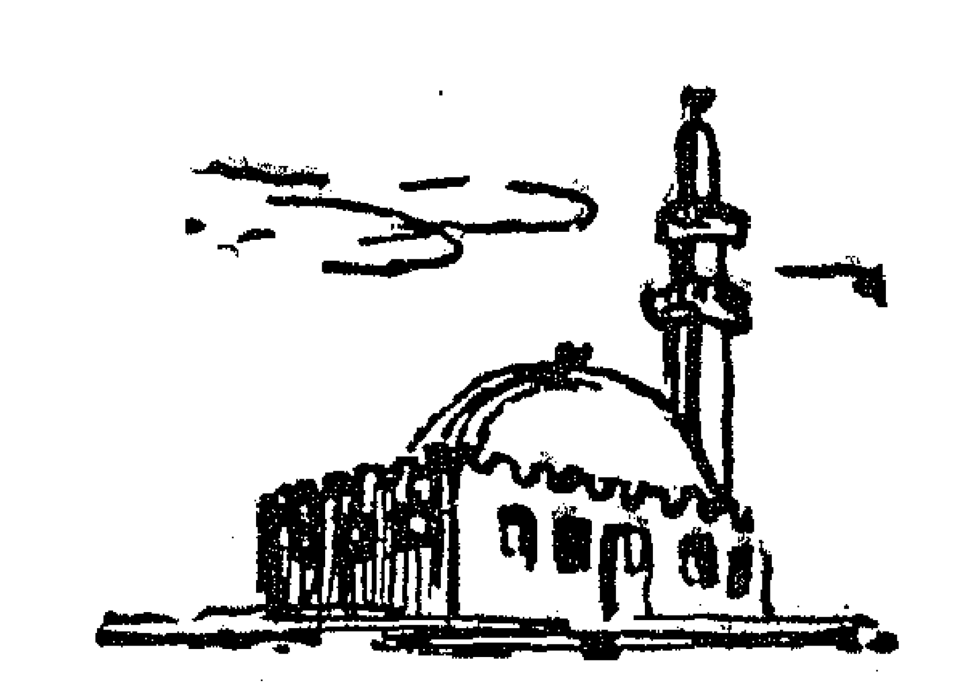
وبقية المحراب اثنان وثلاثون عمودا صغيرا ، تيجانها الصغيرة من الطراز الكورنثى تمثل ورقتى أكنثس عريضتين ملساوين ملتحمتين فى أدنى التاج ،

ثم تتفرعان وتبتعد احداهما عن الأخرى فتبدوان على هيئة « ٧ » ، وتبرز فى الفراغ الناشىء بينهما ورقة بسيطة بيضية ترى أحيانا فى القرمة .

ومنبر جامع القيروان يعد أروع أمثلة الحفر فى الخشب فى بلاد المغرب ، وينسب هذا المنبر الرائع الى أبى ابراهيم أحمد عام ٢٤٨ للهجرة (٨٦٢ م) ، وزخارفه هندسية تقوم على الدوائر والخطوط ، ونباتية تتمثل فيها أوراق العنب . وبالجامع مقصورة خشبية صنعت عام ٤٣١ للهجرة على يدى المعز بن باديس ، أبوابها غنية بالزخرفة والكتابة .

وجامع القيروان هو أقدم مساجد المغرب الاسلامى ، والمصدر الأول الذى اقتبست منه العمارة المغربية والأندلسية عناصرها ، ومنه انبثقت الأفكار المعمارية والزخرفية وتطورت فى العصور المختلفة . ومن قبابه انبعثت فكرة القباب ذات الضلوع المتقاطعة ، ومن مئذنته اتخذت المآذن المغربية والأندلسية طابعها الذى تتسم به حتى اليوم ، ومن عقوده المتجاوزة والمفصصة وتوريقاته الزخرفية ، نشأت التوريقات الأندلسية التى تتجلى فى أروع صورة بجامع قرطبة ... وهكذا لعب هذا الجامع دورا هاما فى الفن الاسلامى عامة ، والفن الأندلسى المغربى بوجه خاص .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم



مسجد القرويين بفاس

بناء الجامع

جامع القرويين أهم المساجد الجامعة فى بلاد المغرب ، وأكثرها شهرة باعتباره جامعة اسلامية قديمة يمكن مقارنتها بجامعة الأزهر فى القاهرة .

وقد كان لهذا الجامع أثر بالغ فى مساجد فاس كلها ، اذ كان نظامه الفريد يؤلف طابعا انتشر فى كثير من مساجد فاس ومكناس ومراكش حتى وقتنا هذا . وقد وصل الينا تاريخ هذا المسجد كاملا بفضل روايات « الروض القرطاس » لابن أبى زرع ، و « زهرة الآس » للجزنائى .

مر بناء جامع القرويين بثلاث مراحل : المرحلة الأولى عند تأسيسه عام ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، والمرحلة الثانية عند الزيادة فيه عام ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) ، أما المرحلة الثالثة فعندما زيدت مساحته فى عصر المرابطين عام ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م). ومن الثابت أن الزيادات التى تمت ، ألحقت بالجامع القديم ، أى التفت به من الشمال والجنوب والشرق والغرب .

يذكر ابن أبى زرع أن الخطبة لم تزل « بجامع الشرفاء الذى بناه ادريس بعدوة القرويين ، وبجامع الأشياخ من عدوة الأندلس طول أيام الأدارسة » . فلما اتسعت مدينة فاس ، ووفد اليها العرب والبربر من أنحاء المغرب والأندلس ، ضاق كلا الجامعين بالمصلين ، واستلزم الأمر بناء مسجدين جديدين . وتطوعت سيدتان قدمتا من القيروان ببناء الجامعين من مالهما الخاص ، هما : فاطمة القروية أم البنين ، وأختها مريم ، بنتا محمد الفهرى ، فبنت فاطمة جامع القرويين ، وبنت مريم جامع الأندلسيين .

وكان موضع جامع القرويين أرضا فضاء يعمل فيها أصناف الجص ، فشرعت فاطمة فى حفر أساسه وبنائه عام ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) . وتذكر الرواية أن جميع مواد بنائه استخرجت من أرض المسجد نفسه . وفى ذلك يقول ابن أبى زرع : « فبنته بالطبنة والكذان [1] ، وحفرت فى وسطه ، فصنعت كهوفا ، واقتطعت الكذان ، وأخرجت منها التراب والحجر والرمل الأصفر الطيب ، فبنت به الجامع المذكور كله حتى تم ، ولم تدخل فيه شيئا من تراب وغيرها ، وحفرت البئر التى فى الصحن » .

وكان هذا المسجد الأول يتألف من قسمين : بيت الصلاة ، والصحن . وكان بيت الصلاة يشتمل على أربعة بلاطات عرضية من الشرق الى الغرب ، يتوسطها بلاط أوسط أكثر ارتفاعا من البلاطات العرضية الأخرى . وكان طول بيت الصلاة من الشرق الى الغرب — وفقا لرواية الجزنائى وابن أبى زرع — مائة وخمسين شبرا (أى ما يقرب من ثلاثين مترا) ، وجعلت فاطمة محرابه فى موضع الثريا الكبرى الموجودة بالمسجد فى الوقت الحاضر ، وأقامت صومعة

(١) الكذان : نوع من الحجر الجيرى .

(مئذنة) غير مرتفعة فى موضع القبة التى تعلو العنزة [1] الحالية .

ويذكر الأستاذ « جورج مارسيه » أن هذه المعلومات ، التى زودنا بها المؤرخان السابقان ، على جانب كبير من الأهمية ، لأنها أتاحت لنا تحديد المكان الذى كان يشغله بيت الصلاة القديم من جامع القرويين فى صورته الحاضرة . ويؤكد الأستاذ مارسيه ، ويؤيده فى ذلك الأستاذ لامبير ، أن طول بيت الصلاة القديم كان يمتد من بداية البلاط الرابع من الصحن حتى نهاية البلاط السابع من المسجد الحالى ، وكان عرضه يشتمل على العقود الاثنى عشر الوسطى المحصورة بين البلاطات المذكورة ، ويحدد هذا العرض صفان من العقود تقطع بيت الصلاة من البهو حتى جدار القبلة . أما البهو القديم فكان يشغل الأروقة الثلاثة الأولى ابتداء من العنزة ، فى حين كانت المئذنة تقوم على الواجهة الشمالية للمسجد فى محور المحراب ، شأنها فى ذلك شأن مئذنتى جامع القيروان ، وجامع قرطبة ، ومئذنة العروس بجامع دمشق .

وظل المسجد على هذه الصورة القديمة حتى دالت دولة الأدراسة . ولما تولى بنو زناتة حكم البلاد ، واستقام أمرهم بالمغرب ، بنوا الأسوار حول أرباض العدوتين ، وزادوا فى جامع القرويين زيادة كبرى حدودها ظاهرة حتى اليوم ... وذلك حين كثر الناس بفاس ، وانتابوها من كل صوب ، وأصبح جامع الشرفاء القديم الذى أسسه ادريس الثانى ضيقا ، فنقلت منه الخطبة الى جامع القرويين بعد توسعته والزيادة فيه .

وتفصيل ذلك أنه لما خضعت بلاد العدوة (اقليم طنجة وما يحيطه من بلاد ، كسبته وفاس ومكناس) للخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله عام ٩١٨ م ، بايعته مدينة فاس بين المدن التى بايعته . فولى عليها عاملا من قبله يعرف بأبى العباس أحمد بن أبى بكر الزناتى . فكتب الى عبد الرحمن الناصر « يستأذنه فى اصلاح جامع القرويين واتقانه والزيادة فيه ، فأذن له فى ذلك ، وبعث اليه بمال كثير من أخماس غنائم الروم ، وأمره أن يصرفه فى بنائه . فأصلح جامع القرويين ، وزاد فيه من ناحية الشرق وناحية الغرب والجوف ، وهدم صومعته القديمة التى كانت فوق العنزة ، وبنى الصومعة التى به الآن » .

ويمكننا تحديد هذه الزيادة بالنسبة للمسجد الحالى على النحو التالى :

مد الأمير أحمد بن أبى بكر البلاطات العرضية الأربعة مسافة خمسة عقود شرقا وأربعة عقود غربا ، ثم أضاف لبيت الصلاة ثلاثة بلاطات عرضية جديدة شمالا ، فشغلت هذه البلاطات الجديدة الصحن القديم ، وبطبيعة الحال أقام لبيت الصلاة هذا بعد اتساعه صحنا جديدا .

أما المئذنة فأقامها فوق منتصف الرواق المطل على الصحن من المجنبة الغربية . وقاعدة هذه المئذنة مربعة ، طول كل ضلع منها نحو خمسة أمتار ، وارتفاعها أربعة أضعاف طول قاعدتها أى

---

(1) العنزة فى الأصل : الحربة الطويلة المزودة فى طرفها بعلمين ، والتى أهداها نجاشى الحبشة الى الزبير ، فاعطاها بدوره الى الرسول صلوات الله عليه . ولقد غرسها بلال فى العام الثانى للهجرة (٦٢٤ م) أمام الرسول عند صلاته فى عيد الفطر لتحديد اتجاه القبلة . وقد أصبح استخدامها تقليديا ، وأصبح الامام يمسك بيده عصا أو رمحا أو سيفا للاعتماد عليها . وقد حل المحراب محل العنزة ، ولكنها اتخذت فى المغرب كمحراب رمزى محفور فى واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن ، فى محور المحراب نفسه . وكانت تستخدم كمحراب ثانوى للمصلين فى الصحن ومجنباته . وعنزة القرويين من خشب الصنوبر .

عشرون مترا — وفقا للنظام المتبع فى بناء المآذن بالأندلس فى ذلك الوقت — وجعل بابها جهة الجنوب مثل مئذنة جامع القيروان . وقد علق ابن أبى زرع على ذلك بقوله : « كذلك يجب أن تكون من جهة البناء والنظر الهندسى » .

ولقد شرع الأمير أحمد فى بنائها وتشييدها عام ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) ، وفرغ منه فى ربيع الآخر عام ٣٤٥ هـ . وبنيت من الحجر المنجور (المعدل المصقول) المحكم ، وترك فى جدرانها ثقوب اتخذت منها الطيور أوكارا لها ، وركبت على رأسها تفاحات صغيرة مموهة بالذهب ، وفى أعلاها سيف الامام ادريس بن ادريس الذى بنى عدوة القرويين ، تبركا به .

ونلاحظ أن هذه المئذنة تشبه الى حد كبير مآذن قرطبة واشبيلية فى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وان كانت تغلب عليها البساطة . وفى داخلها درج حلزونى يدور حول دعيمة مربعة ، وبجدرانها من الخارج فتحات ضيقة تشبه منافذ السهام كان الغرض منها مد الدرج بالضوء ، وقرب أعلاها نافذة على هيئة عقدين توءمين متجاوزين ، يستندان على عمود مشترك ، ويحيط بهما اطار مستطيل على النحو الذى نراه فى مآذن الأندلس كلها ، وفى أعلى نهاية جدار المئذنة شرفات هرمية . أما سطح المئذنة فتعلوه قبة ركبت بها التفاحات المذكورة .

ولم يبق مظهر هذه المئذنة كما هو فى العصر الأموى ، وانما كسيت بطبقة من الجص عام ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) ، اذ أمر السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق المرينى ، قاضيه أبا عبد الله ابن أبى الصبر ، باصلاحها وتبييضها من أموال أعشار الروم . فشرع فى تبييضها ، وكسا المئذنة بالجص والجيار ، وسمر المسامير الكبيرة بين أحجارها ليثبت التلبيس والبناء ، ثم صقلها بعد ذلك حتى أصبحت كالمرآة .

ولم يطرأ على المسجد تغيير يذكر الى أيام الخليفة الأموى هشام المؤيد ، والحاجب المنصور ابن أبى عامر ... فبنى بالمسجد قبة هى التى تعلو العنزة الحالية ، أى فى الموضع الذى كانت تشغله المئذنة القديمة ، ونصب على رأسها أعمدة من حديد ركبت فيها تماثيل وطلاسم . ولقد أجريت بالمسجد أعمال كثيرة فى عهد المظفر عبد الملك بن المنصور ، « فبنى السقاية والبيت المستظلة بازاء باب الحفاة » ، وهو باب مفتوح فى منتصف الجدار الشمالى للمسجد ، وجلب اليها الماء من وادى حسن خارج المدينة ، وأقام بالمسجد منبرا من خشب القنب والأبنوس عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) .

وازدهرت فاس فى عصر المرابطين ، وكثر العمران بعدوة القرويين ، حتى ازدحمت المدينة ، واكتظت بسكانها ، وضاق جامع القرويين بالمصلين حتى كان الناس يصلون فى الأسواق والشوارع والطرق المحيطة بالجامع أيام الجمع ، وكانوا يلاقون متاعب كثيرة لتعرضهم لحرارة الشمس أيام الصيف . فاجتمع الفقهاء والأشياخ ، وخاطبوا قاضى القضاة فى هذا الأمر ، فاستأذن القاضى أمير المسلمين على بن يوسف فى اجراء زيادة بالمسجد ، فأذن له بالشروع فيها عام ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) .

وابتدأ القاضى بنزع ملكية الدور الملاصقة للجامع من جهة قبلته وهدمها ، وأقام مكانها ثلاثة بلاطات عرضية أضيفت الى البلاطات السبعة القديمة ، وزود المسجد بمحراب جديد ومنبر ، وأعاد بناء الباب الغربى الكبير المعروف بباب

الفخارين ، فسمى بباب الشماعين . وكان يشرف على البناء بنفسه ، وأقام على الباب قبة بداخلها نقش ذكر ابن أبى زرع نصه كالآتى : « صنعت هذا الباب والقبة وكلف بالبناء والتركيب فى شهر ذى حجة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة » . وبنيت الزيادة بحجر الكذان ، وتأنق فى بنائها غاية التأنق ، وكسيت أبواب المسجد جميعها بالنحاس الأصفر ، وأقيمت على كل منها قبة . وأقيمت على المحراب قبة آية فى الروعة والجمال ، زينت هى والمحراب بنقوش الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة ، فبهرت الناس بحسنها ولألائها .

وبهذه الزيادة اكتملت عمارة المسجد ، واشتمل على حدوده التى نشاهدها اليوم ويمثل محور المسجد من الداخل بلاط أوسط فسيح ، تعلوه خمس قباب من المقرنصات والضلوع البارزة ، ومن الخارج يقطع صفوف الأسقف المنشورية الشكل ، الموازية لجدار القبلة ، جوسق منشورى الشكل عمودى على جدار القبلة ، يزيد ارتفاعه على ارتفاع هذه الأسقف وتمت هذه الزيادة عام ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) . وكلف الشيخ أبو يحيى العتاد صنع المنبر وفتح باب الجنائز [1] ، ولكنه مات ، فأكمله أبو مروان عبد الملك بن بيضا القيسى . وفرش الفقيه أبو عبد الله بن داود صحن الجامع ، وصنع بكرا وأشرطة غليظة ركبها فى قلاع من شقاق الكتان على قدر الصحن ، ونصبها بأعلى الصحن ، فاذا اشتدت حرارة الصيف ، شدت البكرات فنصبت القلاع وظللت الصحن كله .

ولقد تخلف من عصر المرابطين منبر يعد من أجمل منابر الاسلام ، صنع من الأبنوس والصندل والعاج والنارنج والعناب عام ٥٣٨ هـ . ويشتمل هذا المنبر على تسع درجات كبيرة ، ويزدان جانباه بتشابكات رائعة متعددة الضلوع ، قوامها أشكال نجمية ذات ثمانية رءوس ، ويشبه فى ذلك منبر جامع الكتبية بمراكش ، ويحدد هذه التشابكات شريط من العاج ، وتزين الحشوات النجمية توريقات نخيلية معروقة ومحزمة وفقا للأسلوب الأندلسى المغربى . أما ظهر المنبر وعقده الأمامى فمرصعان بالعاج والأخشاب الثمينة ذات الألوان الهادئة . وما زال هذا المنبر محفوظا الى يومنا هذا بجامع القرويين .

ولما دخل الموحدون مدينة فاس فى ١٥ من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، خاف فقهاء المدينة وأشياخها أن يأخذ الموحدون عليهم هذا الاسراف فى النقش والزخرفة والتذهيب بالمحراب وقبته « فأتى الحمامون الجامع تلك الليلة ، فنصبوا على ذلك النقش والتذهيب الذى فوق المحراب وحوله بالكاغيد ، ثم لبسوا عليه بالجص ، وغسل عليه بالبياض ودلك » . فاختفت هذه النقوش ، وأصبحت بياضا .

وفى عام ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) أقيم بوسط الصحن حوض من الرخام الأبيض الناصع ، بداخله خصة من النحاس الأحمر المموه بالذهب ، صنعها أبو عمران موسى بن حسن بن أبى شامة ، وكان مهندسا بارعا عارفا بأحوال البناء ، حاذقا لأصوله . ولما شرع فى صنعها شق أرضية الصحن من شرقيه وغربيه بقادوس من الرصاص ، وأجرى فيه الماء الى الحوض والنافورة .

وفى عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) فتح القاضى أبو يعقوب يوسف بن عمران باب الوراقين بالجامع ،

(١) جامع الجنائز ، هو بناء مربع ملحق بالجامع من قبلته ، تعلوه قبة من المقرنصات فائقة الجمال ، وتحف جدرانه عقود توامية متجاوزة ، تتكىء اطرافها اللولبية على اعمدة تيجانها قرطبية من عصر الخلافة . وقد استلزم وجود جامع للجنائز ملحق بالجامع الكبير فتح ابواب فى جدار القبلة ، وعقود هذه الابواب توامية متجاوزة هى الاخرى وتيجانها من الطراز الخلافى الشائع بقرطبة مما يشهد بأن المرابطين اعادوا استخدام كثير من المواد البنائية القرطبية فى ابنيتهم .

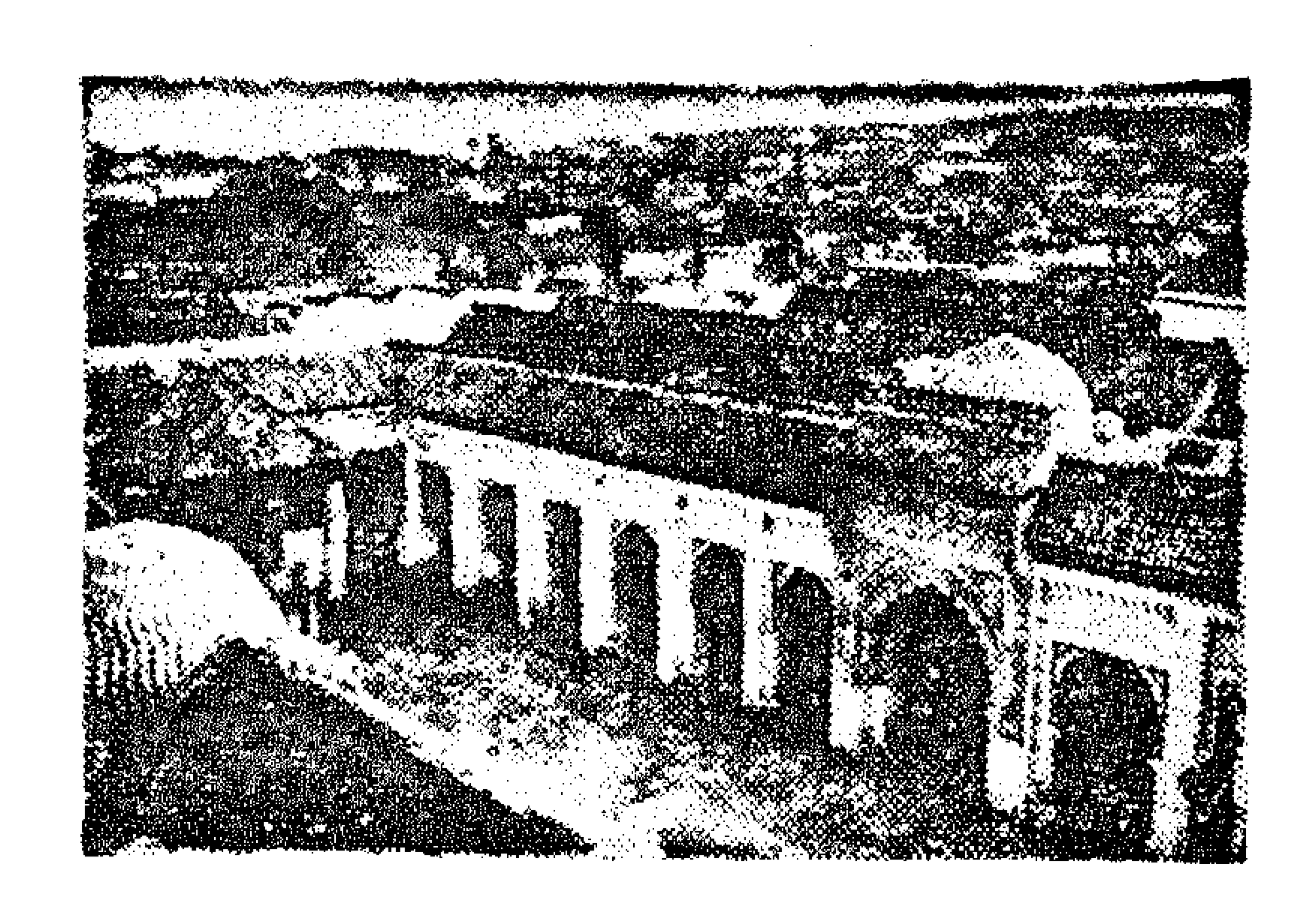
وأقام عليه القبة العظيمة المقربصة بالجص . وفى عام ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) شرع القاضى أبو عبد الله ابن أبى الصبر ، الذى كسا المئذنة بكسوة الجص ، فى صنع عنزة الجامع ، وأتمها فى ٥ من شهر ربيع الأول عام ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) .

ثم أدخل الشرفاء السعديون فى جامع القرويين عدة تحسينات اضافية ... ففى عام ٩٩٦ هـ (١٥٨٧ م) نصب مولاى أحمد المنصور ٩٨٦ — ١٠١٢ للهجرة (١٥٧٨ — ١٦٠٣ م) بالجامع حوضا من الرخام أدنى المئذنة ، وأقام على منتصف رواق المجنبة الشرقية المطلة على الصحن ، جوسقا بارزا محمولا على أعمدة تقوم عليها فى كل من جهاته الثلاث عقود ثلاثة ، أوسطها أكثر ارتفاعا واتساعا . ويعلو هذا الجوسق سقف هرمى من القراميد ، يبرز فوق افريز عريض ذى مساند خشبية . أما الجوسق الغربى فقد أقامه مولاى عبد الله بن الشيخ عام ١٠٢٢ — ١٠٣٤ للهجرة (١٦١٣ — ١٦٢٤ م) فوق حوض الرخام الذى نصبه مولاى أحمد المنصور بأدنى المئذنة .

ولا شك أن مهندسى فاس استلهموا بهو السباع بقصر الحمراء فى تقسيم صحن جامع القرويين ، وتوزيع المياه الى الحوض المركزى ، واقامة الجوسقين على الحوضين الجانبيين ... وان كانت الأعمدة التى يستند عليها جوسقا القرويين أقل رشاقة منها فى غرناطة ثم ان أعمدة غرناطة تقوم فى مجموعات من ثلاثة أعمدة ، وهى لا تعدو فى فاس عمودا واحدا .

بلاطات الجامع ونظامها

يتألف جامع القرويين من عشرة بلاطات موازية لجدار القبلة ، أو من عشرة صفوف من العقود تمتد من شرق المسجد الى غربه ، كل صف منها يتكون على واحد وعشرين عقدا ، ويقطع هذه البلاطات



صحن جامع القرويين بمدينة فاس

العرضية بلاط أوسط يتجه عموديا على القبلة ، تزدان جدرانه الجانبية بزخرفة نباتية فى عقود متصلة تشبه زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة ، والمسجد الجامع بتلمسان . على أن الظاهرة التى تسترعى الاهتمام فى بلاطات هذا الجامع ، أنها تتجه فى محاذاة جدار القبلة على مثال بلاطات جامع الشرفاء وجامع الأندلسيين الأول بفاس . ويعد هذا الاتجاه شذوذا بالنسبة لمساجد المغرب والأندلس .

وينبغى أن نستعرض هنا أصل هذا النظام حتى تتمكن من تفسير هذه الظاهرة بجامع القرويين ... لقد أدى غرس صفوف الأعمدة فى بيوت الصلاة بالمساجد الى انقسام هذه البيوت الى عدة بلاطات أو أروقة ، على نحو المجازات فى الكنائس والبازيليكيات . وكانت هذه البلاطات تتوزع فى بيت الصلاة فى طرازين مختلفين : اما عمودية على جدار القبلة ، واما فى محاذاة هذا الجدار . ويمثل الطراز الأول جامع دمشق ، والطراز الثانى جامع بيت المقدس (المسجد الأقصى) . فكان بيت الصلاة بجامع دمشق يتألف من ثلاثة بلاطات تتجه عرضا من الشرق الى الغرب ، يتوسطها بلاط طولى أكثر ارتفاعا من هذه البلاطات ، يفضى مباشرة الى المحراب وتعلو منتصفه قبة ، فيبدو الجامع كما لو كان منقسما الى بازيليكيتين ، كل منهما تتألف من ثلاثة أروقة تؤدى الى مجاز مشترك . وقد اتبع

هــذا النظام فى كثير من مساجد الشام مثل جامع الرصـــافة ، وجامع حران ، وجامع حلب ، وجامع حماة .

أما الطراز الثـــانى من البلاطات فيمثله المسجد الأقصى ببيت المقدس الذى أسسه الوليد بن عبد الملك عام ٧٠٦ م . وتتبع بلاطات هذا المسجد نظام البازيليكيات ، اذ تتجه عمودية على جدار القبلة بعكس جامع دمشـــق . ولم تكن لطراز الجـــامع الأقصى مدرســـة بالمشرق — اذا استثينا الجامع المعروف بتارى خان بمدينة دمغان ، جنوب بحر قزوين (٧٥٠ — ٧٨٦ م) ، والمســـجد الجـــامع بسامراء ، وجامع أبى دلف بهذه المدينة — ولكنه انتشر انتشارا كبيرا فى بلاد المغرب والأندلس ،فنراه فى جامع قرطبة فى عهد عبد الرحمن الداخل ، وجامع سيدى عقبة بالقيروان ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع سوسة فى عهد الأغالبة . وانتشر هذا الطراز البازيليكى فى مساجد المغرب والأندلس حتى يمكننا أن نسميه بالطراز القرطبى .

ولكن المغرب الأقصى ، الذى كان خصما سياسيا للمغرب الأدنى ، ســـاد فيـــه الطراز الدمشـــقى للبلاطات ... فظهر أول ما ظهر فى جامع الشرفاء ، ثم طبق فى جامع القرويين ، وتولى هذا الجامع مهمة نشر الطراز الدمشقى فى مساجد فاس ومراكش . ويذكرنا بناء جامع القرويين ببناء جامع دمشق ، اذ تتجه فيـــه البلاطات بمحاذاة جدار القبلة ، ويتوسطها بلاط أوسط يتجه عموديا الى المحراب .

ولقد وقف المرابطون حيال هذين الطرازين موقفا محايدا ، فطبقوا الدمشقى منهما فى زيادتهم لجامع القرويين ، وطبقوا القرطبى فى جامعهم بتلمسان . ثم فضل الموحدون الطابع القرطبى ، وابتكروا فيه أنظمة جديدة نشاهدها فى مساجدهم بتازة وتنمال والكتبية والقصبة بمراكش ومكناس واشبيلية ورباط . الا أن هزيمة الخليفة الموحدى محمد الناصر فى موقعة العقاب (لاس نافاس دى تولوزا) فى عام ١٢١٢ م ، سببت الانفصال السياسى بين المغرب والأندلس ، وسجلت فاس انتصـــارا آخر للطراز الدمشقى ، فقد بنى جامع الأندلسيين بأكمله وفقا لهذا الطراز ... بل ان هذا الطراز ساد فى كثير من مساجد المغرب ، مثل الجامعين الجنائزيين بمدينة شالة (أسسهما أبو الحسن المرينى عام ١٣٣٩ م) ، وبيت الصلاة بالمدرسة البوعنانية بفاس (١٣٥٠ م) . ومسجد للا زهر (١٣٥٧ م) . وساد هذا النظام فى مدن فاس ومكناس وتازة ، وما زال ســـائدا فى مساجد المغرب حتى وقتنا هذا .

قباب الجامع

معظم قباب جامع القرويين قباب مقرنصـــة ، أى تقوم على مقرنصات ، والمقرنصات أو المقربصات — حسب تعبير أهل المغرب — حليـــات معمارية تشبه خلايا النحل ، اســـتخدمت باديء ذى بدء للتدرج من مسطح مربع الى مسطح تقوم عليـــه القباب ، وذلك بوضعها فى الأركان الأربعة لقاعدة القبة ، فتحول المربع الى مثمن . ثم تطورت فتعددت حطاتها ... كذلك كانت تتخـــذ كمساند للأسطح البارزة أو لشرفات المآذن . وقد أقبـــل عليهـــا المســـلمون اقبالا عظيمـــا ، وأصـــبحت من أهم خصائص العمارة الاسلامية .

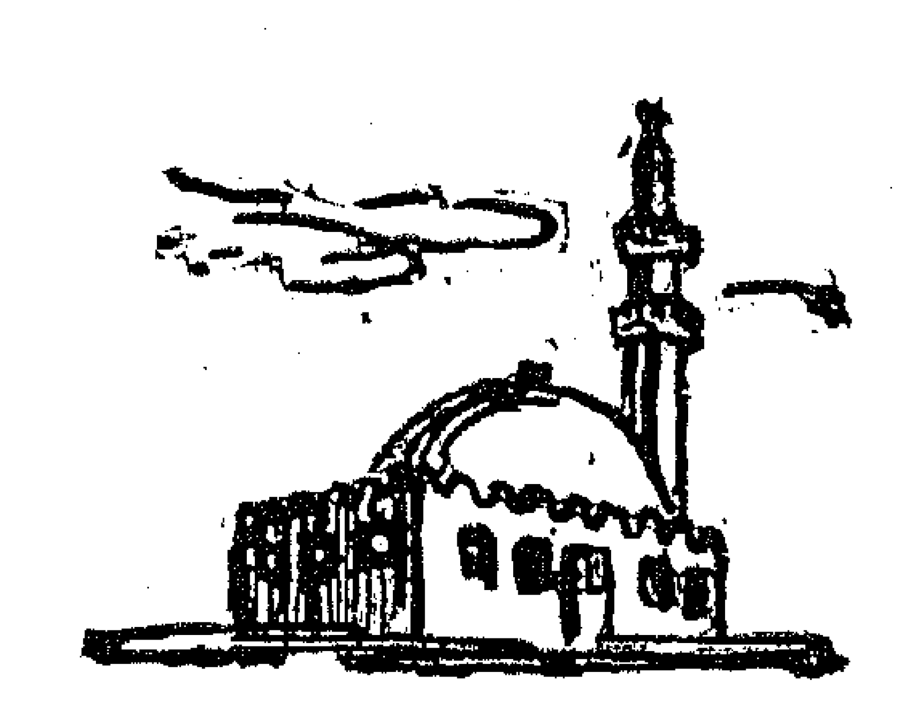
ويرى العدد الأعظم من مؤرخى الفن الاسلامى أن المقرنص ظهر أول ما ظهر فى فارس (ضريح يزد عام ١٠٣٥ م) لســـهولة استعماله فى الأبنية المتخذة من الآجر ، وهو أهم مواد البناء فى هذه البلاد . وانتشرت المقرنصات فى العمائر السلجوقية ، ووصلت الى بلاد المغرب فى عصر مبكر ، ونشهدها فى صورة بدائية بقصور قلعة بنى حماد التى ترجع

الى أواخر القرن الحادى عشر ، وذلك لتأثر هذه القصور بالفن العراقى الذى ساد فيه هذا النوع من الزخرفة المعمارية (قصر الرقة) .

ثم ظهرت المقرنصات فى صورة أكثر تطورا بقبة المحراب بالمسجد الجامع بتلمسان (١١٣٥ م) ، وجامع القـرويين بفـاس (١١٤٣ م) . وتفنن الموحدون فى استخدامها فى قبابهم ، فأقاموا قبابا مقرنصة بأكملها ، من أمثلتها : قبة جامع اشبيلية ، وقباب جامع الكتبية بمراكش . ثم بلغت المقرنصات ذروة تطورها فى عمائر بنى نصر ، فنراها فى قاعة الأختين ، وقاعة بنى سراج بقصر الحمـراء ، كما نراها فى بواطن العقود وفى زخارف التيجان وغير ذلك .

وقبـاب جامع القرويين تعـرض نموذجا من المقرنصات أكثر تطورا من مقرنصـات قبة جامع تلمسان ، وذلك لأنها بنيت بعدها بثمانى سنوات . وقبة جامع الجنائز الملحق بجـامع القرويين قبـة مقرنصـة رائعـة ، وتتميز مقرنصاتها بخطوطهـا الواضحة الثابتة ، تصلها فيما بينها ضلوع بارزة على هيئة مثلثات أو أقواس . وترصع هذه الشبكة من المقرنصات قبيبات صغيرة مفصصة ، فى حين تزين المثلثات زخرفة من أوراق الأكنثس محفورة فى الجص .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم



جامع الأندلسيين

تاريخ بناء الجامع

بنى هـذا المسجد الجـامع عام ٢٤٥ للهجـرة (٨٥٩ م) فى العام الذى بنى فيه جامع القرويين . ويذكر ابن أبى زرع فى « روض القرطاس » ، والجزنائى فى « زهـرة الآس » ، أن مريم بنت محمـد بن عبد الله الفهرى تولت بنيـان جامع الأندلسيين ، وأن أختها فاطمة القروية أم البنين بنت جامع القرويين .

ولقد سمى هذا الجامع « جامع الأندلسيين » ، لا لأنه أقيم فى عـدوة الأندلسيين — فقد كان بهـا غيره من المسـاجد — ولا لأنه المسـجد الجامع بهذه العدوة ، اذ أنه لم يكن بها سوى مسجد جامع واحد ، هو جامع الأشياخ الذى بناه ادريس بن عبـد الله بن الحسن . . وانمـا لأن جماعة من أهل الأندلس ، كانوا يعيشون حوله ، ساهموا فى الانفاق على بنائه .

وظل جامع الأندلسيين كما هو منذ تم بناؤه الى أن رفعت الخطبـة من جامـع الأشـياخ ، وانتقلت اليه عام ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) بأمر حامد بن حمدان والى فاس من قبل عبيد الله الفاطمى الذى استولى على فاس فى العام ذاته . ولا ندرى كيف كانت صورة الجامع فى ذلك الوقت ، فقد صمت ابن أبى زرع والجزنائى عن ذكـر التفاصيـل . وأفاد جامع الأندلسيين من النزاع السياسى بين الفاطميين بالقـيروان والأمويين بسبتة ، ويتجلى هذا النزاع بصورة واضحة فى المنبر الذى وصل الينـا من هذا العصر ، وعليه نقشـان كتابيان يسـجلان تاريخين مختلفين ولكنهما متقاربان . وسنتناول هذا المنبر بالدراسة فيما بعد

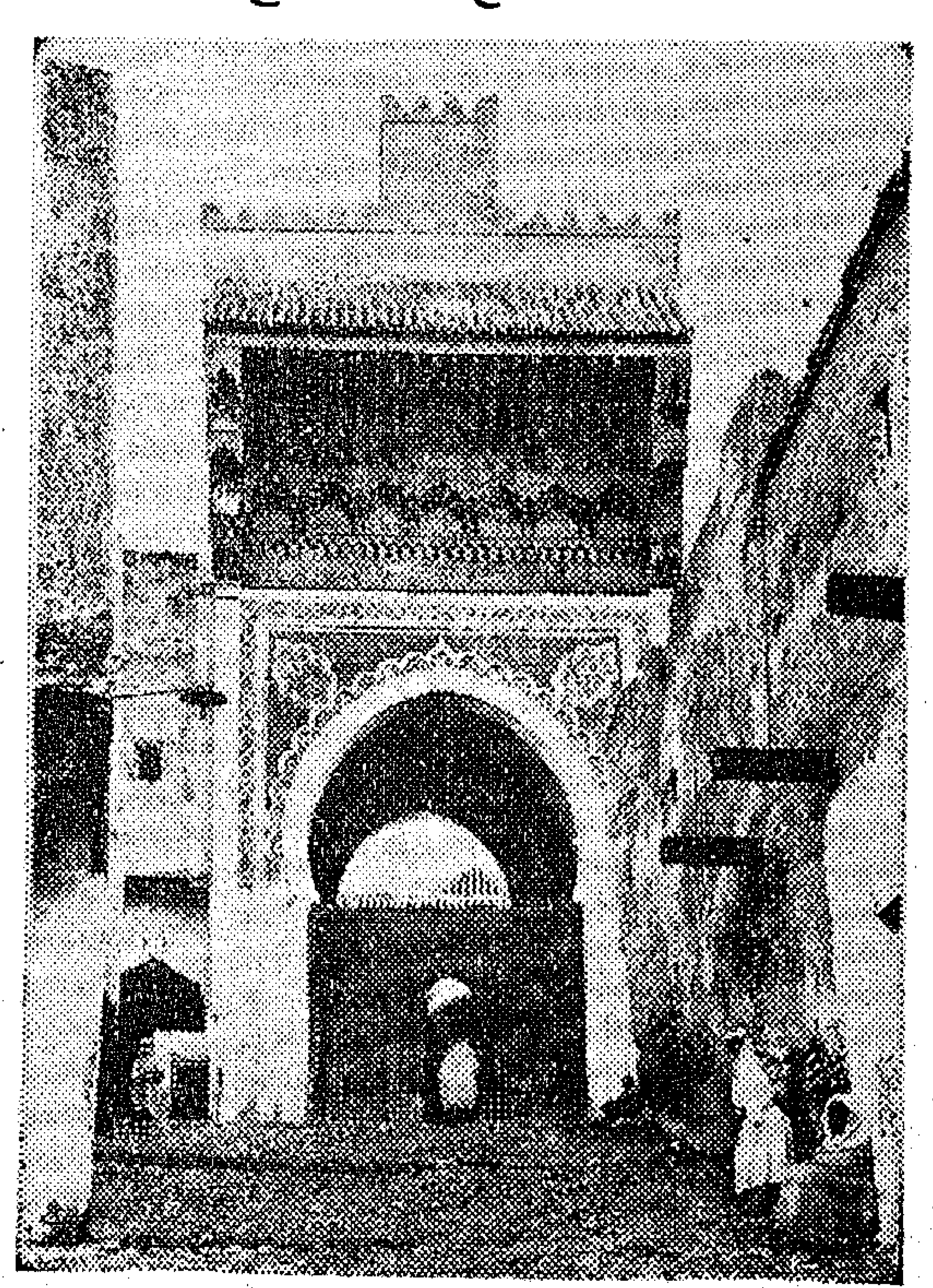
وفى عام ٣٤٥ للهجـرة (٩٥٦ م) زود جـامع الأندلسيين ، مثل قرينه جامع القرويين ، بمئذنة مربعـة ... وقد ذكر ابن أبى زرع أن الخليفـة عبد الرحمن الناصر أرسل الى عامله على فاس ، أبى العباس أحمد بن أبى بكر الزناتى ، مبلغـا كبيرا من المال من أخماس غنائم الروم ، وأمره أن ينفقه فى بنـاء مئذنة جامع القـرويين . ويضيف الجـزنائى الى ذلك أن عامل فاس ، من قبـل عبـد الرحمن الناصر ، أقام مئذنة أخرى بجامع الأندلسيين أسوة بجـامع القـرويين وذلك فى جمادى الأولى عام ٣٤٥ هـ (أغسطس ٩٥٦ م) ، وهى المئذنة التى نشاهدها اليوم بالجامع .

ويبدو أن عامل فاس أنفق المال الذى بعث به اليه عبد الرحمن الناصر كله فى بنـاء مئـذنة جامع القـرويين دون أن يبقى منه جزءا لبنـاء مئذنة لجامع الأندلسيين ، وأنه اضطر الى بنـاء مئذنة جامع الأندلسيين من ماله الخاص ... وهذا يفسر لنا السبب فى أن هذه المئذنة تبدو أقل ثراء من مئذنة القرويين . ولقد زاد هذا الوالى فى الجامع زيادة كبـيرة يقول صـاحب روض القرطاس ان حدودها كانت باقية الى عهده .

ومن الصعب أن نقطـع بطول هـذه الزيادة أو بما كانت عليه ، اذ أن جامع الاندلسيين بنى من جديد فى عهد الخليفة محمد الناصر بن أبى يوسف يعقوب المنصور ... الا أنه يبدو مما كتبه البكرى

عام ١٠٦٨ م أن الجامع كان يشتمل على ستة بلاطات تتجه من الشرق الى الغرب ، وأن عقود هذه البلاطات كانت تقوم على أعمدة من الحجر الجيرى ، وأن صحن هذا الجامع كان مغروسا بأشجار الجوز وغيرها ، وأن المياه الجارية كانت تصل اليه بوفرة عن طريق ساقية مصمودة . أما الجزنائى فيذكر سبعة بلاطات بدلا من ستة . وأيا كان عدد بلاطات الجامع ، بعد زيادته فى عام ٩٥٦ م ، فان الذى لا يقبل الشك هو أن هذه البلاطات كانت تمتد من الشرق الى الغرب موازية لجدار القبلة ، أى أنها كانت مثل نظائرها فى جامع القرويين محاذية لهذا الجدار .

ويمكننا تحديد صحن هذ الجامع الأول بعدوة الأندلسيين بخط يمتد غربى الواجهة القبلية للمئذنة الحالية ، وكانت تشغل وقتئذ الزاوية الشمالية الشرقية للجامع . ونستنتج مما ذكره



منظر خارجى للباب الجوفى الكبير بجامع الأندلسيين بفاس



عقود بجامع الأندلسيين بفاس

البكرى أن أعمدة الجامع كانت حجرية ، وهى ظاهرة غريبة ، لأن معظم المساجد الأندلسية والمغربية كانت مغروسة بغابة من الأعمدة الرخامية . وربما أوحى هذا الجامع لأبى يوسف يعقوب المنصور فكرة بناء أعمدة جامع حسن بالرباط بأقراص الحجارة الضخمة . وعلى أى حال فقد استبدلت بهذه الأعمدة الحجرية دعائم من الآجر فى الزيادة الأخيرة التى قام بها الخليفة الموحدى محمد الناصر عام ٦٠٠ ه (١٢٠٣ م) .

ويذكر الجزنائى أن المسجد ظل على هذه الحالة حتى كانت أيام الخليفة محمد الناصر بن أبى يوسف المنصور ، رابع خلفاء الموحدين ، الذى هزمه القشتاليون فى موقعة العقاب عام ١٢١٢ م . ونستنتج من ذلك أن جامع الأندلسيين لم يتعرض لأى زيادة فى عهد المرابطين الذين أضافوا الى جامع القرويين عام ٥٢٨ ه (١١٣٣ م) ثلاثة

بلاطات ، وأكملوا عمارته التى نشاهدها اليوم . والواقع أن أمير المرابطين يوسف بن تاشفين كان يهدف من وراء ذلك الى هدفين : أولهما أن يفض المنافسة التقليدية بين هذين الجامعين بانتصاره لجامع القرويين ، وخاصة أن عدوة القرويين كانت قد تفوقت عمرانيا على عدوة الأندلسيين . والهدف الثانى ، كما يذكره الأستاذ تراس ، هو أن تعادل الميزان بين هذين الجامعين كان مضادا لسياسة المرابطين الدينية القائمة على التوحيد ، وأن يوسف بن تاشفين بادر من أجل ذلك بهدم الأسوار التى كانت تفصل بين العدوتين ، وردهما مصرا واحدا .

وهكذا ينقضى عصر المرابطين دون أن يحظى جامع الأندلسيين باهتمام أمرائه وحكامه . ويفتتح الخليفة عبد المؤمن بن على مدينة فاس عام ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، ويأمر بهدم سورها ، ويفتتح فيه ثلمات كبيرة ، ويختار مدينة مراكش حاضرة لدولته ، وينقضى الشطر الأعظم من عصر الموحدين دون أن يعنى أحد من خلفاء الموحدين بهذا الجامع .

ولما ولى الخلافة محمد الناصر ، زار مدينة فاس ، وأقام فيها زمنا طويلا ، وتولى فى أثناء اقامته اعادة بناء أسوار المدينة الحالية ، كما أعاد بناء جامع الأندلسيين بأكمله ، ولم يترك من الجامع القديم سوى المئذنة الأموية والمنبر ... وسنرى أنه لم يترك هذا المنبر القديم على حالته ، بل كسا كتفيه بجانبين جديدين .

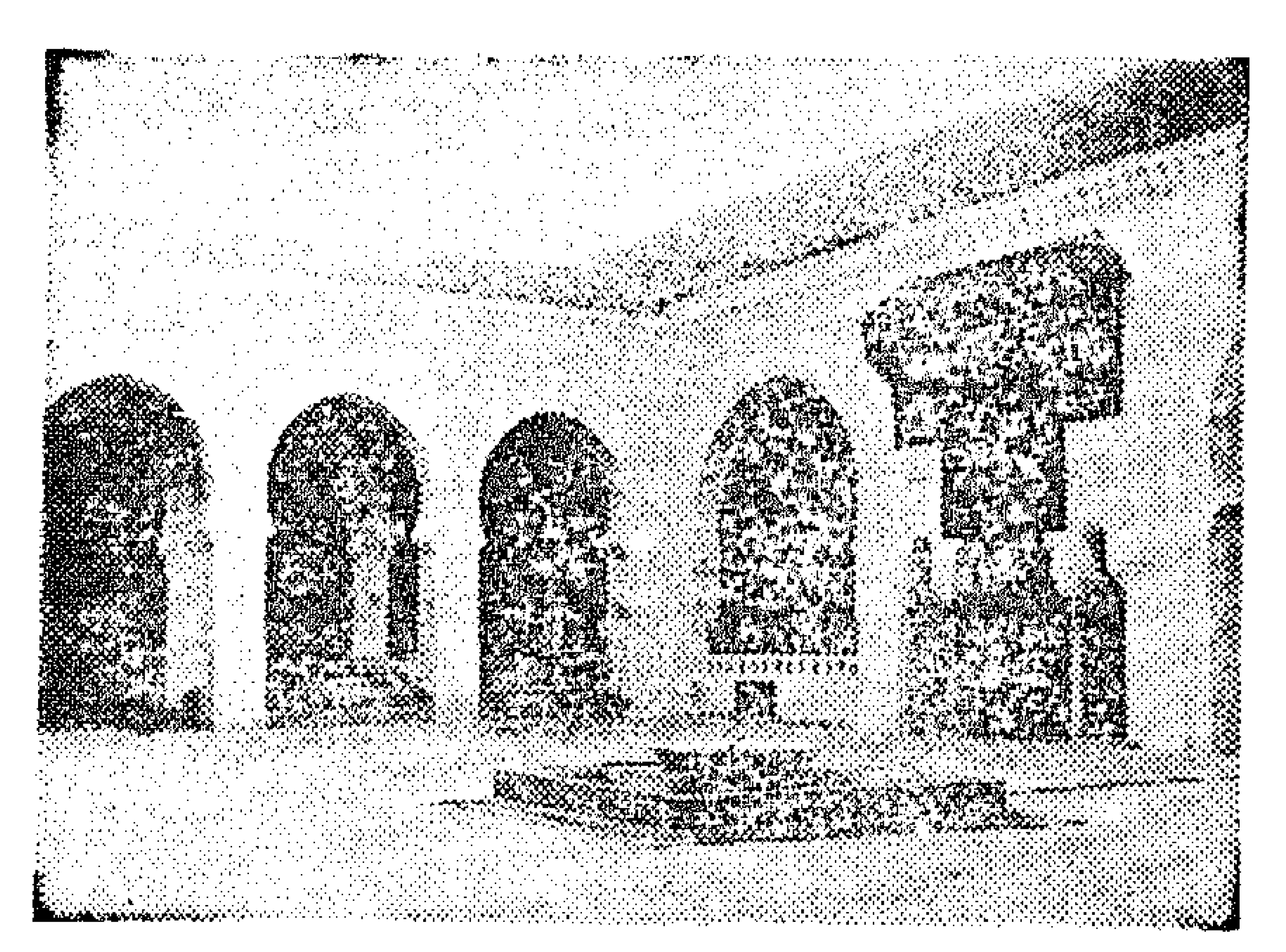
يقول ابن أبى زرع فى أعمال هذا الخليفة : « وأما جامع عدوة الأندلس فلم يزل على ما بنى عليه أولا ، لم يزد فيه أحد زيادة الى سنة ستمائة ، فأمر أمير المؤمنين أبو عبد الله الناصر ببنائه واصلاحه وتجديد ما تهدم منه ، وأمر بفتح الباب الكبير الجوفى المدرج الذى بصحنه ، وجعل بأسفله بيلة من رخام أحمر ، وأمر بعمل السقاية والميضآت » . ويحدثنا الجزنائى عن هذه الأعمال بشىء من التفصيل ... فيتحدث طويلا عن الباب الجوفى الكبير ، وعن البيلة التى أقامها الخليفة بجوار هذا الباب ، وعن الباب الذى فتحه الى مقصورة النساء ، وعن المصرية [1] التى أقامها أعلى هذا الباب لأئمة المسجد ، وعن دار الوضوء التى بناها على الجانب الآخر من الشارع المقابل للباب الكبير .

ولكن الجزنائى لم يحدثنا عن تفاصيل ما أجراه الناصر فى بيت الصلاة من تغيير ، ويتساءل تراس : « هل نفهم من ذلك أن محمد الناصر احتفظ فى زيادته بالمسجد القديم ؟ ان ذلك لا يستند على دليل ، بل على العكس من ذلك فان الجامع الحالى جامع مبنى بالدعائم وليس بالأعمدة ، وعدد بلاطاته لا يتفق مع العدد الذى ذكره البكرى . ثم ان بيت الصلاة الحالى يضم المئذنة الأموية ، ويمتد الى ما وراء ذلك نحو الشمال ، ومقصورة النساء التى ذكرها الجزنائى تقع فيما وراء الحد الشمالى للمسجد القديم ، واتجاه البناء الحاضر يختلف عن اتجاه المئذنة الأموية » ... ذلك كله يدل دلالة قاطعة على أن جامع الأندلسيين بنى من جديد .

ويضيف تراس سابقة لهذا الجامع ، وهى أن تاريخ جامع الكتبية بمراكش كشف لنا أن الموحدين لم يترددوا فى هدم جامع الكتبية القديم وبناء جامع منحرف الاتجاه . والدراسة الأثرية لجامع الأندلسيين تشير الى أننا بصدد بناء مماثل لجامع

---

(1) المصرية : غرفة مطلة على الشارع تقوم فى الطابق الاعلى من أى بناء . وقد تخربت هذه المصرية الموحدية فى عصر متأخر



نافورة جامع الأندلسيين بفاس

الكتبية ، ثم ان الزمن الذى استغرقه البناء يكفى للاعتقاد بأن المسجد أعيد بناؤه بأكمله [1] ... اذن فجامع الأندلسيين بفاس يرجع كله الى عصر الخليفة الموحدى الرابع محمد الناصر ، باستثناء مئذنته الأموية ، وبعض ملحقاته التى أضيفت فى عصر متأخر .

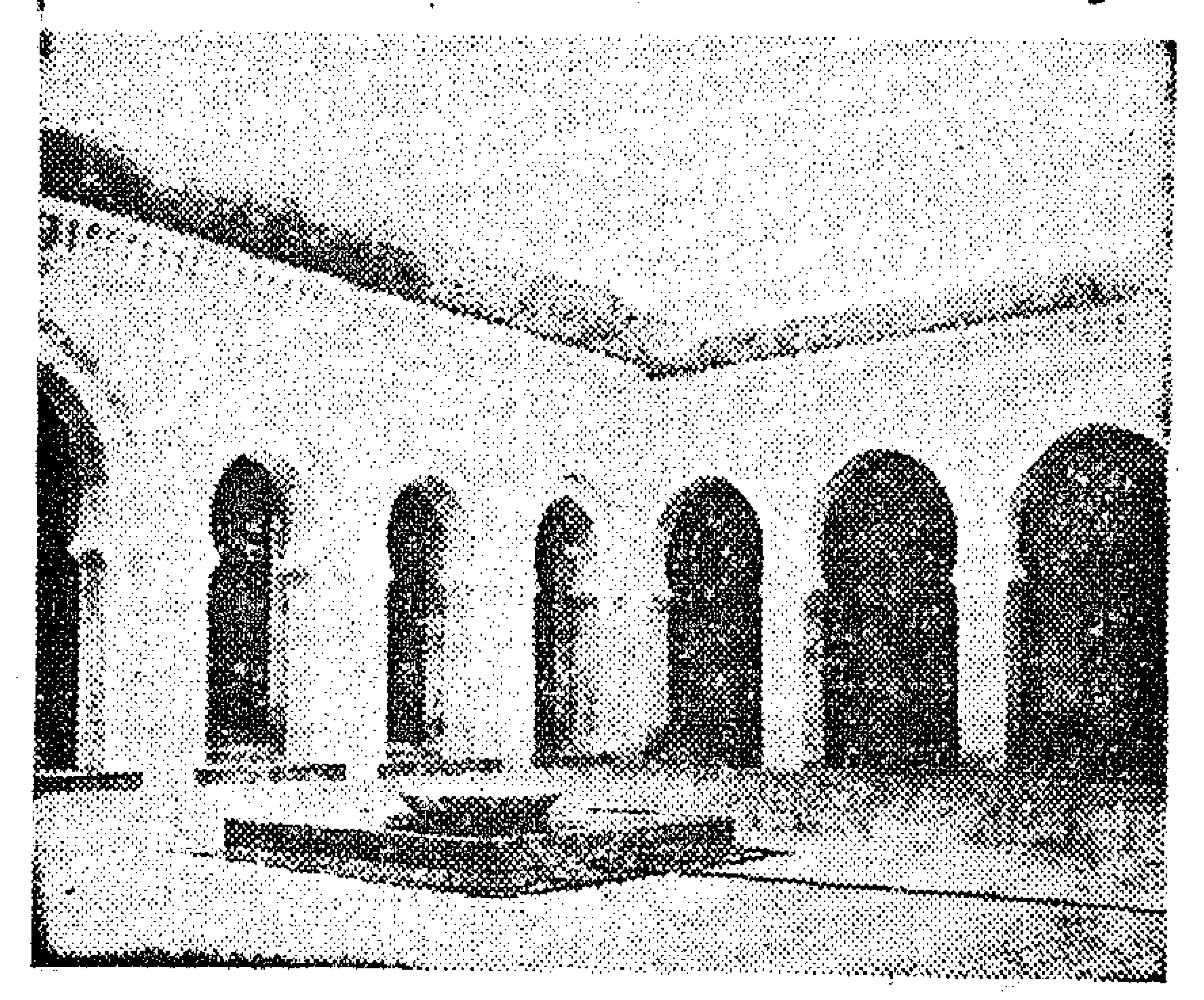
وينبغى أن نشير هنا الى ميضأة الجامع التى ورد ذكرها فى حديث الجزنائى . وتقع هذه الميضأة ، أو دار الوضوء ، الى الشمال الشرقى من المسجد ، ويفصلها عنه شارع ضيق مواجه لشماله الشرقى . ويعلو فتحة الباب الخارجى للميضأة عقد متجاوز منكسر مبنى من الآجر ، يحيط به عقد زخرفى بارز ، تتناوب فيه فصوص كبيرة نصف دائرية مع فصوص صغيرة مدببة ، ويحيط بالعقد الزخرفى اطار مستطيل يعد امتدادا للشريط الذى يؤلف الفصوص . وتعلو رأس هذا العقد جامة بارزة تربط العقد بالاطار .

أما الميضأة من الداخل فتصميمها بسيط للغاية ، فهى قاعة يتوسطها حوض حجرى مستطيل ، ويعلوها سقف على هيئة هيكل مسنم ، وتتوزع فى الجدران الأربعة لهذه القاعة ثلاثة عشر

(1) استغرق بناء الجامع اربع سنوات من عام ٦٠٠ الى عام ٦٠٤ للهجرة (١٢٠٣ - ١٢٠٧ م) . وذكر ابن أبى زرع تاريخ الشروع فى البناء ، أما تاريخ الفراغ منه فمسجل فى عنزة الجامع .

مرحاضا ، أبوابها معقودة على حنايا منكسرة نصف دائرية ، يعلوها طابق أول من طاقات متعددة معقودة عقودا نصف دائرية ، ثم طابق ثان من طاقات على هيئة عقود منكسرة نصف دائرية ، ومازالت بنيقاتها تحمل آثار زخرفة جصية . ويبدو أن هذه الطاقات فتحت فى أعلى الجدران لتهوية القاعة .

ومواد البناء التى استخدمت فى الجامع فقيرة جدا ... فأغلب جدران الجامع مبنية من الطابية (التراب) . أما الدعائم والعقود وعضادات الأبواب فكلها من الآجر . ويبدو أن بناء الجامع نفسه فى عهد الناصر كان غير سليم من الوجهة المعمارية ، فقد تعرضت أسقفه ودعائمه لأضرار كثيرة منذ نهاية القرن الثالث عشر للميلاد . وأثبتت أعمال الترميم



صحن جامع الأندلسيين

التى أجريت بالجامع منذ عهد قريب أن هذا البناء الموحدى كان من نوع ردىء ، ويرجع الفضل فى بقاء هذا الجامع الى الأرضية المتماسكة التى حفظته من الاهتزازات ، كما يرجع الى كثرة الاصلاحات التى أجريت به ، والتى تم معظمها فى عهد سلاطين بنى مرين [1] .

ولقد قام السلطان أبو ثابت بكثير من أعمال

(1) فى عهد السلطان ابى يعقوب يوسف المرينى عام ٦٩٥ هـ (١٢٩٦ م) ، وفى عهد السلطان أبى ثابت من بعده .

الاصلاح والتحسين فى هذا المسجد ، فأصلح القناة التى كانت تحمل المياه من ساقية مصمودة ، وأقام البيلة الرائعة التى نشاهدها اليوم الى يمين الباب الجوفى الكبير . وهناك أعمال أخرى ترجع الى سلاطين بنى مرين ، منها الزخارف الجصية الرائعة التى يزدان بها باب المجنبة الشرقية ، ويرجح تراس أن هذا الباب من بين أعمال السلطان أبى ثابت .

وأضيف فى هذا العصر خزانة للكتب تقع الى يسار جدار المحراب مما يلى القبلة ، ونجارة هذه الخزانة بمصراعيها عادية ، ولكن الذى يسترعى الأنظار لوحة عليها نقش كتابى بالخط النسخى تعلو هذه الخزانة . ونستدل من هذا النقش على أن هذه الخزانة أقيمت عام ٨١٦ للهجرة (١٤١٥ م) فى عهد السلطان أبى سعيد عثمان الثالث ابن أبى سالم ، أحد سلاطين بنى مرين فى عهدهم الأخير . والى يمين المحراب باب يفضى الى جامع الجنائز ، ويقوم على نشز من الأرض أكثر ارتفاعا من مستوى بيت الصلاة .

وتصميم جامع الجنائز غير منتظم على الاطلاق ، وبناؤه ردىء ، وينقسم الى أربعة بلاطات عرضية تتجه من الشرق الى الغرب ، ويصله بالشارع الشرقى بابان . ولا نجد فى هذا الجامع القبة المقرنصة الرائعة ذات الأعمدة الرشيقة التى تعلو جامع الجنائز بالقرويين . وقد أصلحت بيلة الباب الشمالى المطلة على الصحن فى عهد الأشراف السعديين ، على يدى مولاى اسماعيل عام ١٠٩٣ للهجرة (١٦٨٢ م) ، وسجل ذلك على افريزها الخشبى بأبيات شعرية نصها ما يلى :

مولاى اسماعيل ألبسنى البها

فسحبت ذيلى فوق كل نفيس

زهوى ببيت الله حسبى مفخرا

اذ صرت أجلى فيه جلو عروس

فرفعت فوق السلسبيل سرادقا

فى عام «يجمل شاهد» تأسيس

كذلك جدد المحراب بأكمله فى القرن الثامن عشر ، وكسى بزخارف جصية ، ولم يبق من المحراب القديم سوى أربعة تيجان ينبت منها عقد المحراب القديم .

تخطيط الجامع

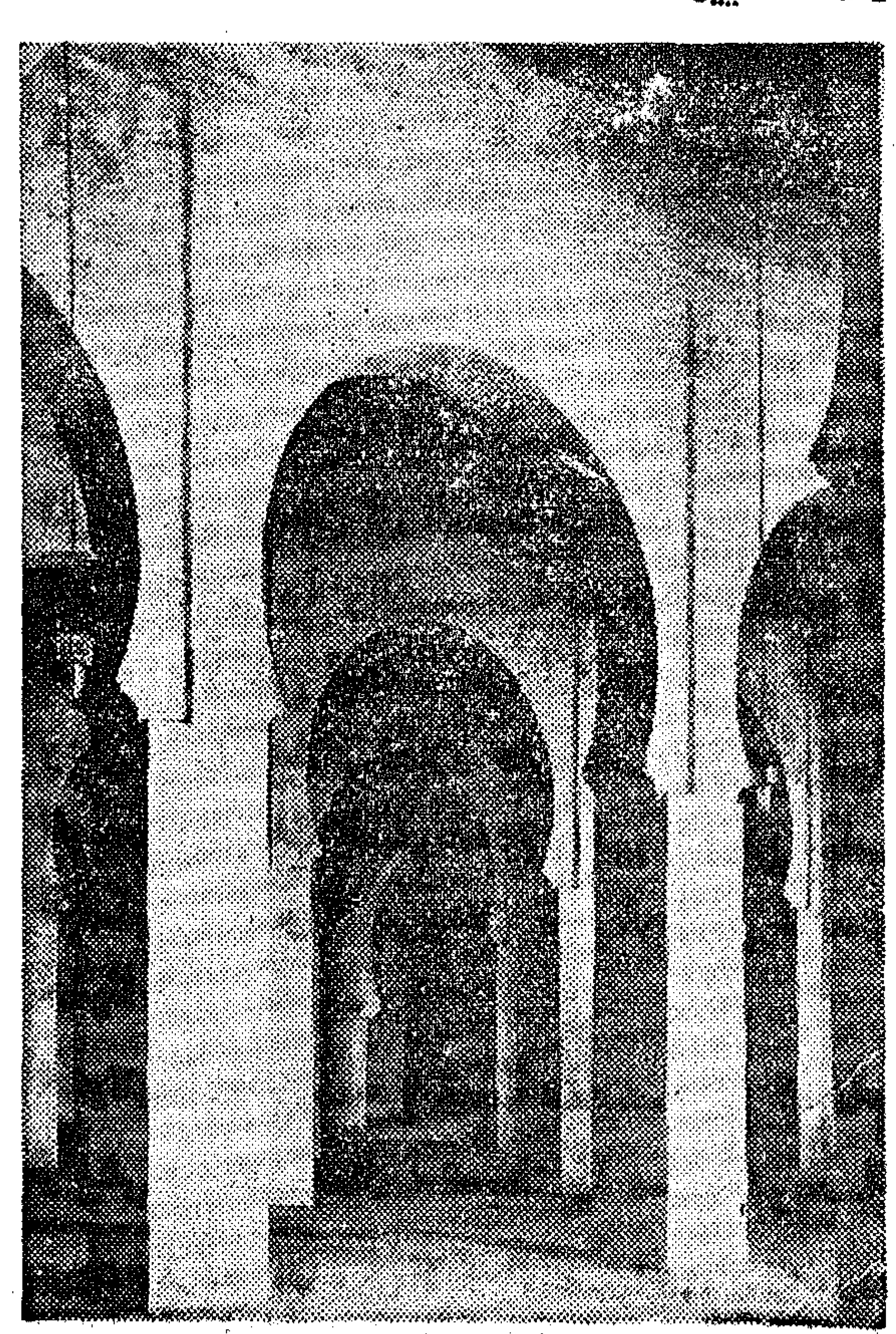
يدل تخطيط جامع الأندلسيين على أنه من بناء المرابطين . وان من يرى بلاطات الجامع بعقودها ودعائمها لا يخطر بذهنه قط أنها من بناء الموحدين ... فالتصميم غير متناسق ، والبناء غير منتظم [1] ، وبلاطات المسجد غير عمودية على جدار القبلة كمساجد الموحدين ، وأسقفه غير متناسقة ، ولا تقوم على بلاطه الأوسط قباب مقرنصة كمساجد الموحدين كلها ... لا شىء يربطه بهذه المساجد الا نسبة الصحن بالنسبة لمسطح بيت الصلاة ، فانها تخضع الى حد ما للقاعدة التى تسير عليها مساجد الموحدين بمراكش وتنمال .

ويتألف بيت الصلاة من سبعة بلاطات عرضية ، تمتد من الشرق الى الغرب على خمسة عشر عقدا فى كل بلاط . ويخترق هذه البلاطات جميعا بلاط أوسط مثلها ارتفاعا وأكثر منها اتساعا ، بعكس البلاط الأوسط بجامع القرويين الذى يعوق سائر بلاطات الجامع اتساعا وارتفاعا . ويتجه هذا البلاط اتجاها عموديا على جدار القبلة ، ويميزه من الخارج سقف يختلف عن بقية أسقفه بيت الصلاة التى تتبع الاتجاه العام فى موازاة جدار القبلة : اذ يعلوه فوق البلاطات الثلاثة

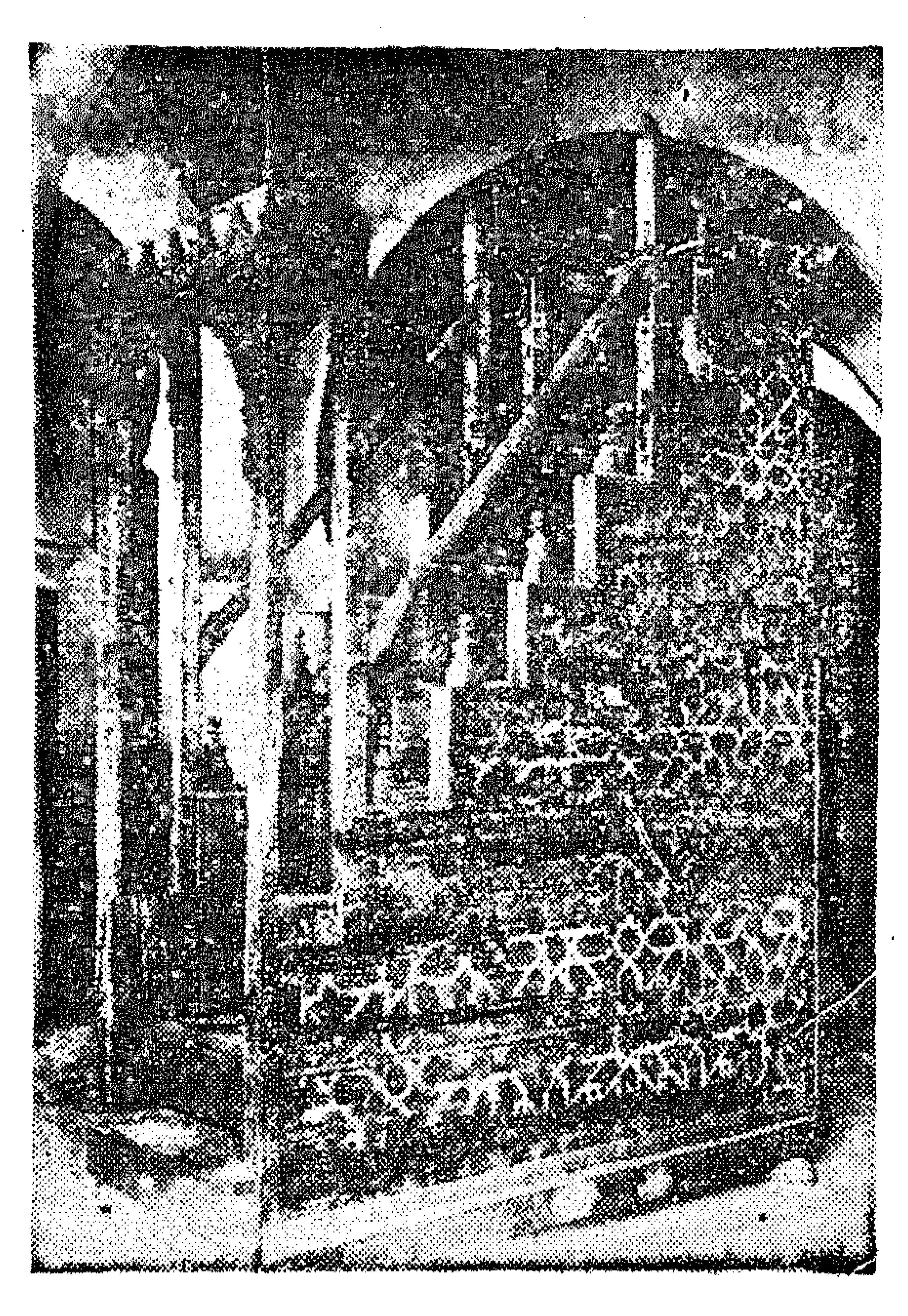
(١) ذلك لان المسجد اقيم على قطعة من الارض غير منتظمة ، فجاء بناؤه غير منتظم ، واملت الشوارع المحيطة بالمسجد نظامه الشاذ .

الأخيرة من جهة المحراب ، والبلاط الأول من جهة الصحن ، هيـاكل خشـبية تبـدو من الخـارج كالقباب . ويعلوه فوق البـلاط العرضى الرابع « برجلة » ، أى سقف منشورى الشكل ، مستقل عن الأسقف التى تعلو بقية أجزاء هـذا البلاط الرابع . وتتجه أسقف مجنبتى الصحن الشرقيـة والغربية اتجاها عموديا على جدار القبلة ، وتتجه فى المجنبة الشمالية اتجاه بلاطات بيت الصلاة .

ولقد اتبع جامع الأندلسيين نظام جامع القرويين وهو النظام الذى ساد فى المسـاجد الفاسـية فى العصور التالية ، وعلى الأخص فى عصر بنى مرين وعصر الأشراف العلويين ... فبينما كانت المساجد المرينية الكبرى تنحو نحو النظام القرطبى ، كانت مساجدهم الصغرى تتبع نظـام جامعى القرويين والأندلسيين .



منظر جانبى لأروقة جامع الاندلسيين



المنبر الوحدى بجامع الاندلسيين

وعلى الرغم من انعدام روح التناسق فى تخطيط الجـامع ، فانه لايخلو من أصالة معمارية تتجلى بأوضح صورة فى الباب الشمالى الكبير القائم فى منتصف الجدار الشمالى للجامع ، وهو باب فتحه الخليفة الموحدى محمد الناصر . ويشف بناء هذا البـاب عن براعة فى الهندسة وحذق فى الزخرفة ، اذ يفوق فى ارتفـاعه أسقف الجامع ، ويطل على منظر خارجى آية فى الروعة والجمال .

وقد نجح مهندس هـذا الباب فى الجمع بين العمارة والمنظر الطبيعى ، وهى الخطة التى اتبعها مهندسو قصر الحمراء ، ونجحوا فى تطبيقهـا على قصور بنى نصر كلها . ويبدو هذا الباب من عدوة القرويين كقوس نصر فخم ، فتتضـاءل بجانبـه

مئذنة الجامع مع ارتفاعها عنه . كذلك أثر هـذا الباب الكبير فى أبواب مساجد بنى مرين ، فنرى له مثيلا فى مسجدى سيدى الحلوى وسيدى بو مدين بتلمسان ، كما قلد نظام وضع بيلتين على جانبى هذا الباب من الداخل فى مساجد بنى مرين جميعها .

بيت الصلاة

لا يحدد البلاط الأوسط فى داخل بيت الصلاة سوى صفين من العقود التى تتجه اتجاها عموديا على جدار القبلة . ومعظم صفوف العقود ببلاطات الجامع الأخرى لا تتعامد مع الجدران الشرقية والغربية لبيت الصلاة ، وانما تصل اليها منحرفة ، لأن هـذه الجدران تخضع لتخطيط الشوارع المحيطة بالجامع من هاتين الجهتين . وينفتح فى الجدار الشرقى لبيت الصلاة بابان ، ويضطر الداخل اليه من الباب الجنوبى منهما الى صعود عدة درجات لارتفاع مستوى الأرض فى هـذه المنطقة . وتضىء الجانبين الشرقى والغربى من بيت الصلاة نوافذ مستطيلة توزيعها غير منتظم .

وعقود بيت الصلاة كلها متجاوزة منكسرة ، ما عدا عقود البلاط الأوسط فمتجاوزة على هيئة حدوة الفرس . وتتميز العقود المنكسرة فى بلاطات الجامع بأن رءوسها مخففة بانحناءة خفيفة تجعلها تبدو كما لو كانت عقودا ذات خمسة مراكز . وكان هذا الطراز من العقود مقدمة للعقود المرينية والنصرية . وتتكىء هـذه العقود على مناكب بسيطة تتوج دعائم أكثر ارتفاعا من العقود ، وتحيط العقود طرر مستطيلة بارزة . أما العقود المتجاوزة بالبلاط الأوسط فأكثر تجاوزا من عقود جامع قرطبة ، لأنها عقود ذات ثلاثة مراكز ، وتتكىء على دعائم قطاعها يشبه زهرة ذات أربع ورقات نصف دائرية ، وهو طراز من الدعائم كان شائعا فى العمائر المسيحية باسبانيا .

وليس معنى هذا أن بناة هذه العقود قد تأثروا بالعمائر المسيحية ، وانما استعاضوا بهذه الدعائم عن الأعمدة الحجرية التى كانت مفروشة فى بيت الصلاة قبل زيادة محمد الناصر عام ٦٠٠ للهجرة (١٢٠٣ م) . وكان لابد أن يقيموا على جانبى البلاط الأوسط صفين من الدعائم المصلبة لتتلقى العقود من كافة الجهات . ويبدو أنهم أضافوا الى أذرع هـذه الدعائم المصلبة أنصاف دوائر من الحجارة المتراكبة التى كانت تؤلف أعمدة المسجد القديم ، رغبة فى التبرك بها فى مسجدهم .

أما أسقف بيت الصلاة فمن القراميد غير المزججة ، ويبدو من تعدد أنواعها أنها جددت عدة مرات . أما المحراب فأكثر أجزاء المسجد تنميقا وزخرفة . ولقد أعيدت زخرفة هـذا الجامع كما ذكرنا عند الكلام عن تاريخ بناء الجامع .

صحن الجامع

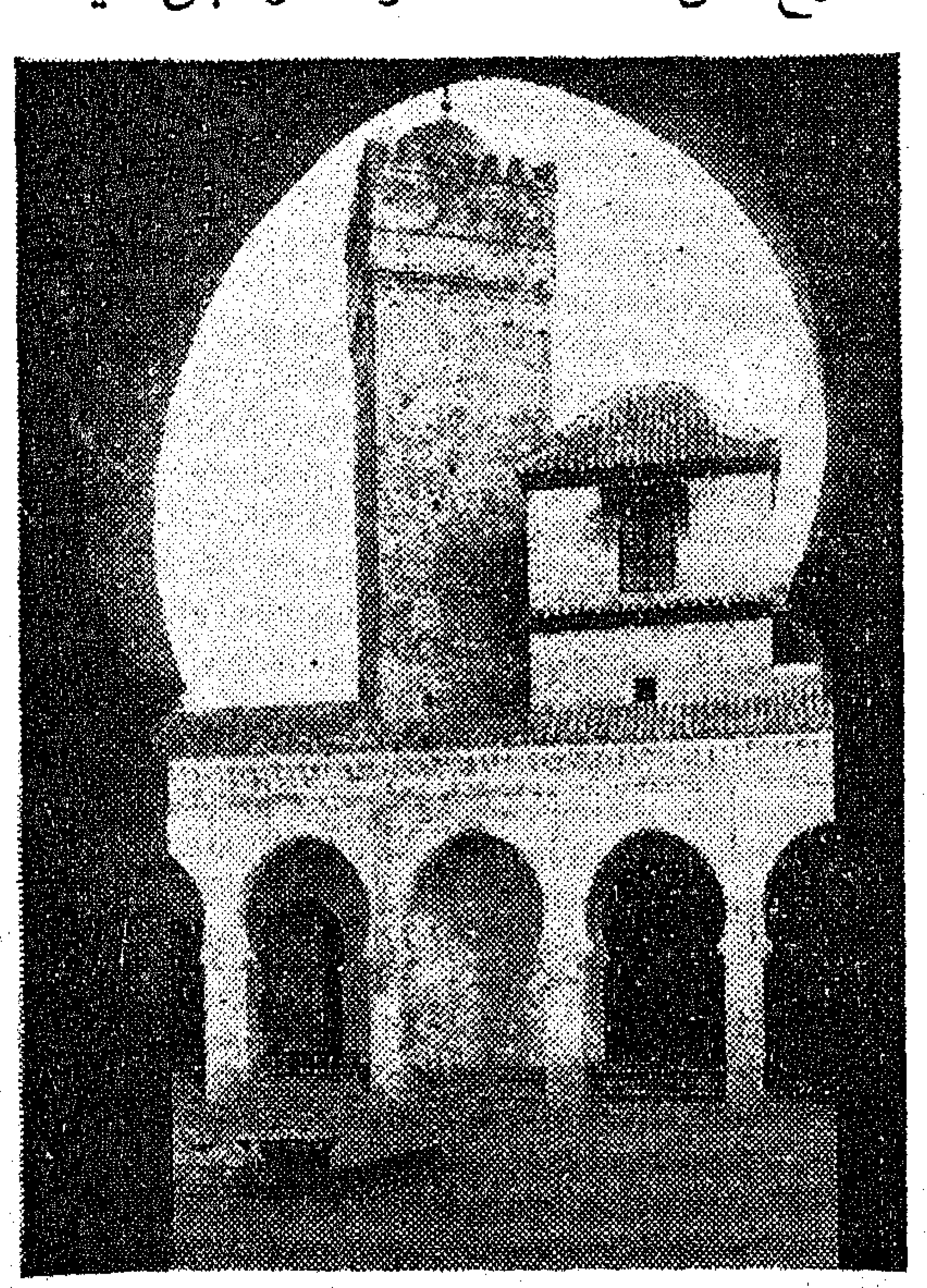
صحن الجامع شبه منحرف . وتطل عليه من جهة الجنوب واجهة بيت الصلاة بعقودها السبعة المزدوجة ، فى حين أن العقود المطلة عليه من الجهة الشرقية والغربية والشمالية مفردة . وينفتح فى الجدار الشمالى للجامع باب [1] تكتنفه على اليمين وعلى اليسار بيلتان تطلان على الصحن . وأرضية الصحن ودرجات السلم الذى يفضى اليه من الباب الكبير مرصوفة بتربيعات من الزليجى صنعت حديثا .

وتتوسط الصحن خصة مفصصة من الرخام الأبيض رائعة الجمال ، تحيط بها فسقية مربعة

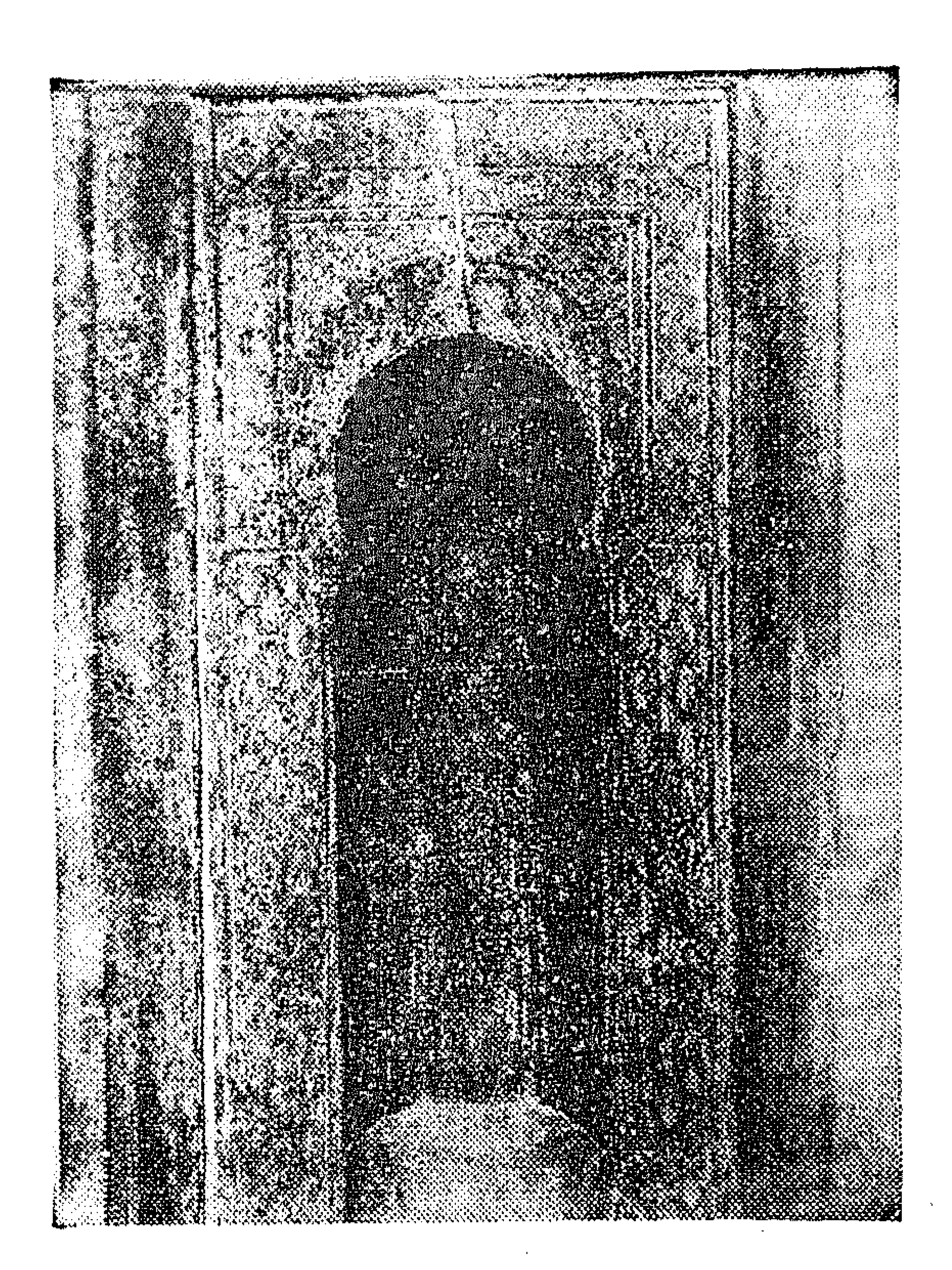
(١) يبدو هذا الباب من الخارج فى صورة رائعة ، وزخارفه من عهد الأشراف العلويين ، أما ظلته فقد جددت فى بداية عصر الحماية .

المئذنة . وتنتهى هذه الجدران من أعلى بجدار عريض بارز عن جدارها الأدنى ، يتكىء على شريط حافته مائلة (نازلة) . ويحدد مستوى سطح المئذنة شريط رفيع من الآجر يمتد أفقيا فى الجدارين الغربى والشمالى للمئذنة بين الشريط المائل وشرفات المئذنة ، وتستند هذه الشرفات التى تشبه أسنة المنشار على شريط مماثل ينتهى به جدار السطح . وتشبه هذه المئذنة نظيرتها بجامع القرويين .

وتتوسط المئذنة من الداخل دعيمة مركزية صماء مربعة ، يدور حولها سلم تعلوه قبوات نصف أسطوانية . وتتألف عند تقاطع هذه القبوات فى كل دورة قبوة متقاطعة من نوع ردىء . ويعلو سطح المئذنة بناء مستدير قليل الارتفاع ، أقيمت عليه قبة نصف كروية . ويتمثل فى هذه المئذنة نوعان من التأثيرات : تأثيرات أندلسية بحكم خضوع فاس فى هذه الفترة لنفوذ بنى أمية ،



مجنبة الصحن والمئذنة بجامع الاندلسيين



عنزة جامع الأندلسيين بفاس

مزينة بالفسيفساء ، وتدور حول هذه الفسقية قناة رفيعة . وتندمج المئذنة فى المجنبة الشمالية الغربية المطلة على الصحن ، وعقود مجنبات الصحن غير متساوية الاتساع والارتفاع . ويتوسط واجهة المجنبة الشمالية عقد خشبى كبير يرتكز على عمودين من الرخام ، ويحيط بهذا العقد الكبير عقدان صغيران يستند كل منهما على عمودين من الرخام كذلك . وفوق العقود الثلاثة عتب خشبى منقوش يحمل ظلة خشبية قائمة على كوابيل خشبية . ويسود المجموع طابع أندلسى خالص .

أما المئذنة فهى الأثر الأموى الوحيد فى عمارة الجامع ، ولم يطرأ عليها أى تغيير منذ بنائها عام ٩٥٦ م . ولقد بنيت هذه المئذنة من قطع الحجارة غير المهذبة (دبش) ، وكسيت جدرانها بملاط رمادى اللون . والمئذنة من الخارج على هيئة برج مربع القاعدة أوجهه ملساء ، وتتوزع فى جدرانها فتحات ضيقة يتسرب منها ضوء شاحب الى داخل

وتأثيرات تونسية بسبب تغلغل الغزو الفاطمى فى شـمال المغرب ، واستيلائهم على فاس فترة من الوقت .

زخارف الجامع

يشتمل الجامع على عـدد من التيجان القديمة ترجع الى عصر الموحدين : أربعة منها تحمل عقد المحراب ، ويزين جزءها الأدنى « السـلة » صف دائرى من أوراق الاكنتس ، اطرافها العليا شديدة الانحناء ، تجثم فوقها قرمة تشبه المكعب ، وتتألف زخارف هذه القرمة من مراوح نخيلية ملساء ذات توريقات بارزة ولاشك أن هـذه التيجان ترجع الى عهد محمد الناصر ، وتمثل طابعا وسـطا بين تيجان القرن الثانى عشر وتيجان بنى مرين .

أما تاجا الباب الجوفى الكبير الخارجيان فأقدم من التيجـان السـابقة ، وسلتاهما رشـيقتان مزخرفتـان بأوراق الأكنتس الملسـاء فى أطرافها لفائف حلزونية بارزة بروزا خفيفا . ويرتكز العقد الأوسط للبيلة المطلة على الصحن على تاجين يتألف كل منهمـا من سـلة مثمنـة تكسو أوجهـا الثمانية توريقات تختلط فى بعضها كتابات كوفية . ويعلو السـلة صف دائرى من العقود ، أما القرمة فتكسوها مقرنصـات تتدرج فى الاتسـاع كلما ارتفعت .

أما الزخـرفة المعمارية للجـامع فهى فقيرة فى مجموعها ، ومعظم عقود الجامع عار من الزخرفة ، مما يدل على أن بنى مرين عنوا بجامع القـرويين أكثر من عنـايتهم بجامع الأندلسـيين ... لذلك نقتصر فى دراسـتنا لزخرفة الجامع على زخـرفة العنزة والمنبر والثريات البرنزية .

وزخارف العنزة بجوفتها واطارها هى أقـدم أمثـلة الزخرفة المحفورة فى الخشب بالجامع ، اذ يرجع تاريخها الى عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) . ونقرأ هذا التاريخ منقوشا بالعنزة فى العبـارة الآتية : « وكان الفـراغ منها فى شهر محـرم عام ستة وستمائة » ولقد أصيب هذا المحراب الخشبى بأضرار جسيمة نتيجة لدهانه بطبقـة سميكة من طلاء أخضر اللون . ويقوم عقد العنزة على عمودين رشيقين نحتا فى الخشب ، والعقـد متجاوز يشبه حدوة الفرس ، ويحيط به عقـد زخرفى متجاوز منكسر ، يتألف من أقواس متصلة بارزة ، وتغطى بنيقتى العقد مراوح نخيلية ذات توريقات دقيقة ، ويلتف حول العقد وبنيقتيه اطار مستطيل ، ويشغل عضادتى هـذه العنزة شبكة زخرفية من معينات تمثل زهرة الزنبق .

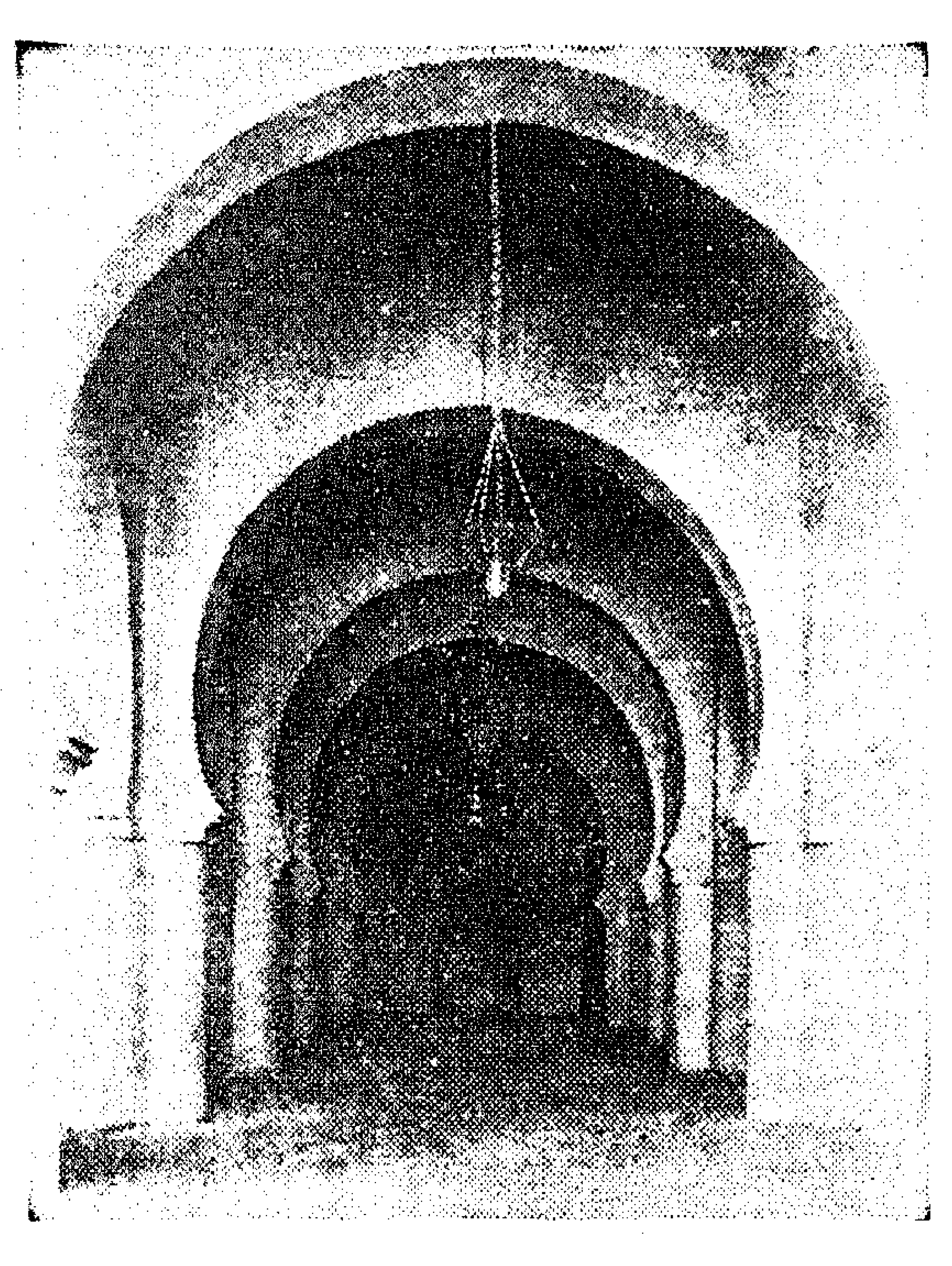
وزخرفة جوفة العنزة نفسها رائعة فى تكوينها ، فالجزء الأعلى منهـا تغطيه قبة مفصصـة تنتهى فصوصها عند مستوى مركز عقـد المحـراب . ويزدان جدار الجوفة ، أدنى هذه القبة مباشرة ، بعقود مفصصة جميـلة ، وتذكرنا هذه الزخارف بزخارف جامعى تنمال والكتبية بمراكش .

وكان المنبر القـديم للجامع يتكون من ست درجات ، ويكتنفه من الجانبين كتفـان خشبيان منقوشان فى حشوات أفقية ، ويتمثل فى العقـد الأمامى وكتفى المنبر جميـع خصائص الزخـرفة الأندلسية المغربيـة فى القرن الثالث عشر ، لذلك ننسـبها الى عصر محمـد الناصر فى الوقت الذى أعاد فيه بناء الجامع (١٢٠٣ — ١٢٠٧ م) . ولكن لهذا الجزء الذى نسبناه الى عصر الموحدين ظهر خشبى أسلوب زخارفه يختلف كل الاختلاف عن بقية زخارف الكتفين وعقـد المدخل ، مما يجعلنا نقطع بأنها من عصر آخـر . ومن أسـلوب هذه الزخرفة ، التى تبدو متـأثرة بالزخارف العباسية بسامرا والطولونية بالقطائع ، يتضح لنا أنهـا من عمل الصنهاجيين أتباع الفاطميين .

ومع ما أصاب النقش الكتابى الذى يدور بأعلى الظهر من تشويه ، آمكننا قراءة اسم المنصور محمد ابن آبى عامر ، حاجب الخليفة هشام المؤيد بالله . وقد آدهش ذلك رجال الآثار فأجروا الفحص فى هذا المنبر ، وقاموا بمجسات فى كتفيه اللذين نسبناهما الى عصر الموحدين ، فثبت أن هذين الكتفين كانا يكسوان كتفى المنبر القديم الذى يرجع الى القرن العاشر الميلادى فاستخرجوا كتفى المنبر الموحدى ، وركبوهما فى منبر حديث صنع خصيصا لذلك ، فأصبح هنالك منبران : المنبر الموحدى بكتفيه وعقده ، والمنبر القديم بكتفيه وظهره .

ويحمل المنبر القديم نقشين من الكتابة الكوفية : أحدهما بالظهر نقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما آمر بعمله الحاجب المنصور ، سيف دولة الامام عبد الله هشام المؤيد بالله ، أطال الله بقاه ، أبو عامر محمد بن أبى عامر — وفقه الله — فى شهر جمادى الآخرة سنة خمس ... وثلاث مائة » . ويرجح أن هذا التاريخ الناقص هو ٣٧٥ للهجرة .

ولم تنته المفاجآت فى هذا المنبر الى هذا الحد ، فقد عثر على نقشين آخرين من الكتابة الكوفيه فى حشوتين زخرفيتين بأعلى كتفى هذا المنبر نفسه . نص النقش الأول : « بسم الله الرحمن الرحيم . فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال » . ونص النقش الثانى : « بسم الله الرحمن الرحيم . عمل هذا المنبر فى شهر شوال سنة تسعة وستين وثلاث مائة من التاريخ » . اذن فهذا المنبر القديم يحمل تاريخين مختلفين . فكأن كتفى المنبر صنعا عام ٣٦٩ هـ ، فى حين صنع ظهره عام ٣٧٥ هـ . فكيف يمكننا التوفيق بين هذين التاريخين ؟ وكيف يمكن تفسير هذه



البلاط الاوسط بجامع الاندلسيين بفاس

الظاهرة : منبر واحد يحمل تاريخين متقاربين ؟

ولقد شرح الأستاذ تراس فى كتابه « جامع الأندلسيين » هذه الظاهرة شرحا وافيا ، نلخصه فيما يلى : كانت الجيوش الفاطمية تغير على المغرب الأوسط والغربى غارات متعددة منذ عام ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) ، وتعرضت مدينة فاس مرات كثيرة لهذه الغارات ، وأدى ذلك الى استيلاء الفاطميين عليها ، فعهدوا بولايتها الى أحد عمالهم ، فى حين خضعت أجزاء من شمال المغرب للأدراسة . ثم تعرض الفاطميون لعدوين جديدين : الزناتيين الذين يمتلكون المغرب الأوسط ، والأمويين الذين استولوا على مليلة وسبتة وطنجة ، وتحالفوا مع الزناتيين ضد الفاطميين ، ثم أصبح الأمويون حماة للزناتيين فى الوقت الذى اشتد فيه خطر بلكين بن زيرى الصنهاجى ، أكبر أتباع الفاطميين فى بلاد المغرب .

وبدأ الصراع الحقيقى عامى ٣٦٨ ، ٣٦٩ هـ ...

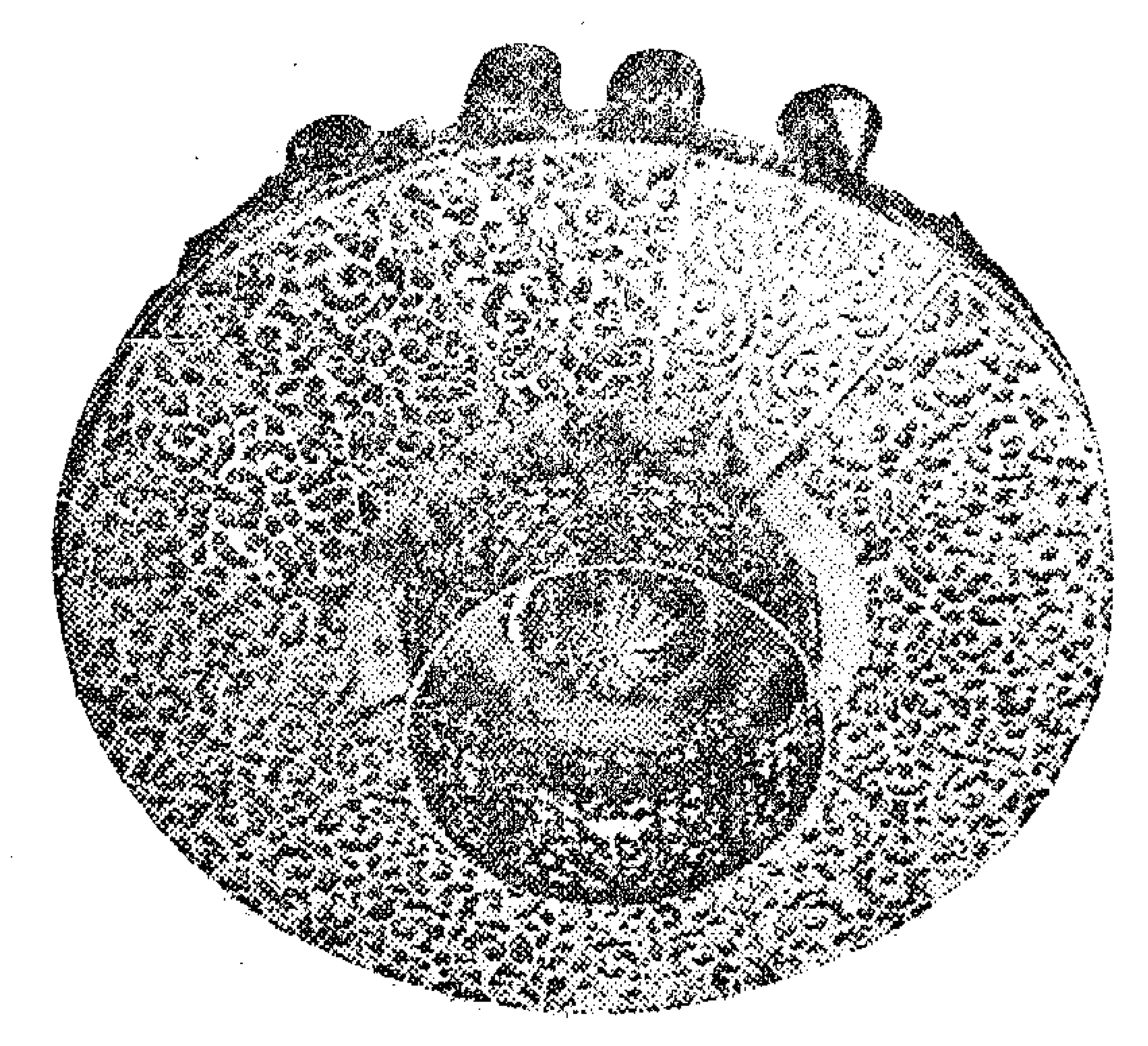
ففي عام ٣٦٤ هـ (٩٧٦ م) أحس الأمويون ضرورة مؤازرة حلفائهم الزناتيين الذين قاسوا من حملتي بلكين عامى ٩٧٠ ، ٩٧٢ م . وسجلت حملة القائد الأندلسى غالب تفوق الأندلس السياسى على هذا الجزء الشمالى من المغرب ، كما سجلت بداية عهد من النشاط السياسى استمر حتى نهايه هذا القرن . ولكن رد الفعل الصنهاجي قضى مدة سنين على هذا النجاح الأموى ففى عام ٣٦٨ هـ (٩٨٠ م) دخل بلكين الصنهاجي فاس ، وقتل عامليها ، وظل مسيطرا على هذه المنطقة من بلاد المغرب حتى عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) ... اذن فالمنبر الذى يحمل تاريخ عام ٣٦٩ هـ (٩٨٠ م) منبر صنهاجى أو فاطمى .

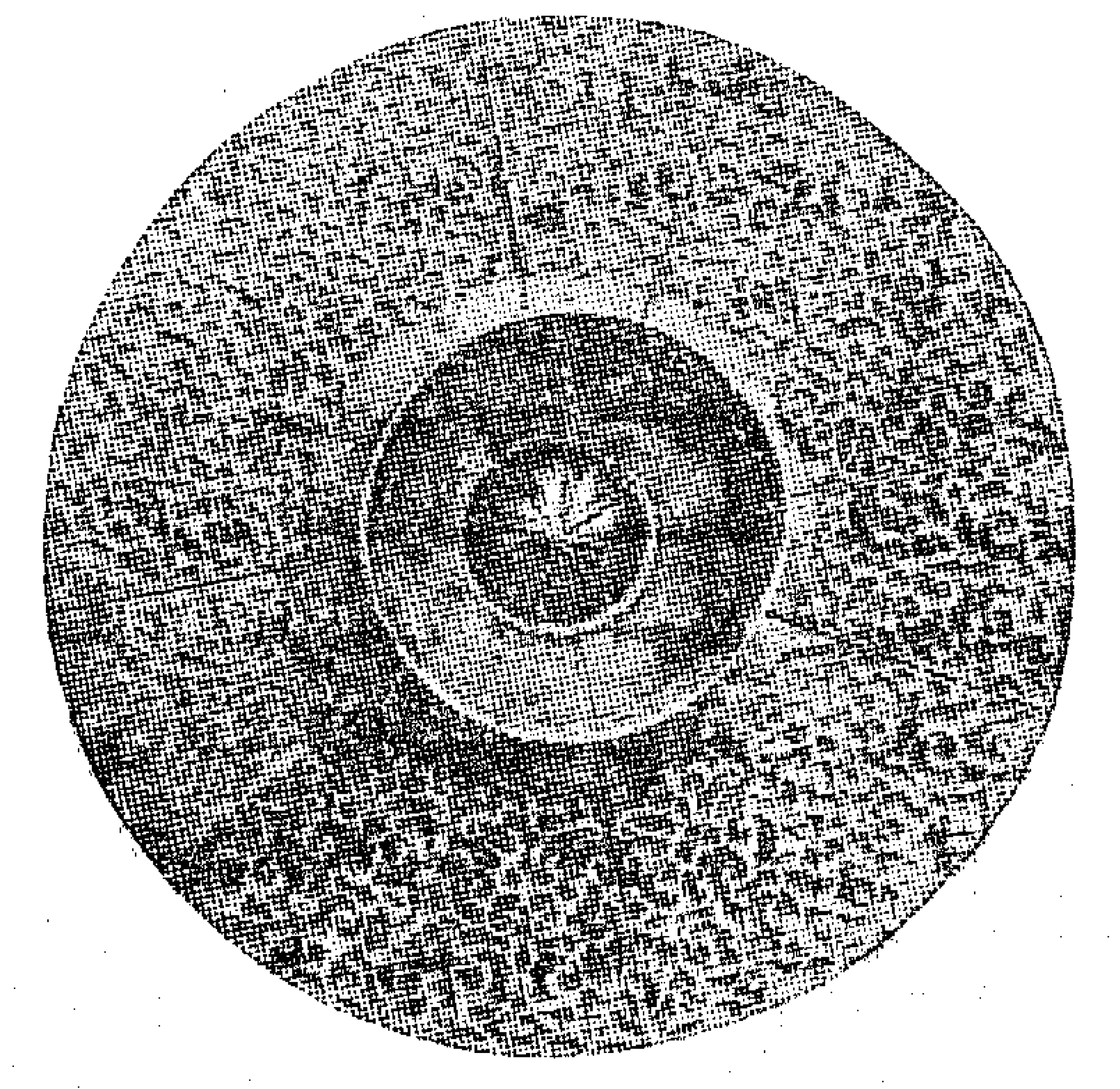
وفى عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) اضطر ابن أبى عامر الى التدخل أمام محاولة صنهاجية لغزو سبتة . فأرسل الى المغرب جيشا آندلسيا استعاد به فاس فى هذا العام . ومن هنا نفسر النقش الكتابى الأموى على ظهر المنبر نفسه ولعل والى فاس من قبل المنصور رأى أن يقتصد فى الانفاق على منبر آخر ، فقنع بالنقش على ظهر المنبر الصنهاجى نفسه ، مسجلا تفوق الأمويين سياسيا على الفاطميين .

فلما جاء محمد الناصر عام ٦٠٠ هـ ، وعاين الحالة السيئة التى وصل اليها هذا المنبر عامة ، وكتفاه بوجه خاص — لأن هذين الكتفين أصيبا بأضرار بعد استرجاع الأمويين لفاس — قرر أن يصنع منبرا آخر . ولكنه تأثر بالروح الاقتصادية السائدة ، فاكتفى بعمل كتفين جديدين كسا بهما الكتفين المتآكلين ، وزود المنبر بعقد أمامى على النجو المتبع فى المنابر الموحدية ... ويمضى تراس بعد ذلك فى وصف التفصيلات الزخرفية لكل من حشوات هذه المنابر الثلاثة .

أما الثريات البرنزية الباقية فى الجامع فلا تعدو أربعا يزدان بها البلاط الأوسط . وقد أصيبت هذه الثريات بأضرار جسيمة ، وجددت قواعدها وأقراصها المستديرة ، وزودت بكئوس حاملة للمصابيح فى عصور مختلفة .

وأقدم هذه الثريات واحدة علقت فى سفود ، ركبت به كرتان من البرنز عاريتان من الزخرفة ، بينهما كرة ثالثة حفرت عليها خطوط متموجة . وبدن الثريا شبه مخروط ، رأسه من أعلى وقاعدته من أسفل ، ويزدان رأسه بزخرفة نباتية مخرمة ، أما قاعدته فقرص يحمل الأكاليل ، تدور به من

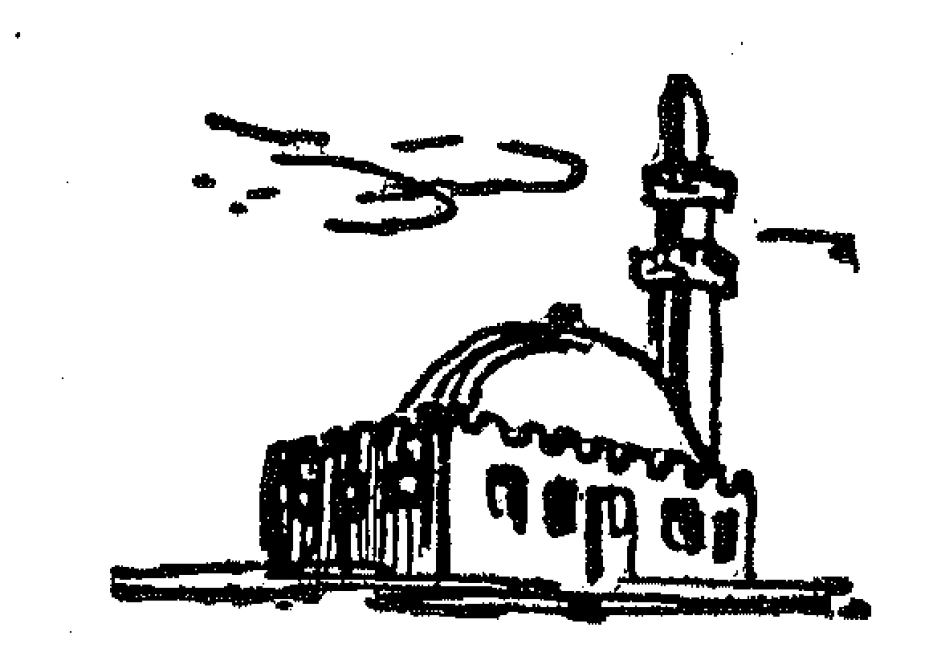




قرص احدى ثريات جامع الاندلسيين

أعلاه شرفات مسننة ، فى حين زين وجهه الأسفل بتوريقات رائعة مزدحمة ، يقسمها اثنا عشر شريطا نحاسيا بارزا آقساما مماثلة فى العدد . وتذكرنا التوريقات النباتية بتوريقات جامع تنمال ، وبالزخارف المزدحمة التى يزخر بها باب قصبة أودية بالرباط . ولهذه الثريا قاعدة مسدسة بداخلها قبة مفصصة . ومن زخارفها القديمة يمكن ارجاع تاريخ هذه الثريا الى عصر الناصر رابع خلفاء الموحدين .

أما الثريتان الثانية والثالثة فترجعان الى عصر بنى مرين ، وتتميزان بقرصبهما الجميلين ، وقاعدة احداهما سداسية حفرت فى وسطها قبيبة صغيرة مفصصة ، تحيط بها توريقات نخيلية مخرمة تخريما دقيقا تبدو فيه فروع الأوراق كالخيوط الدقيقة الملفوفة ، تتفرع منها الأوراق تفرعات بديعة رائعة : متوجة أطرافها حينا ، ومفروقة الى وريقتين متنافرين حينا آخر . وتكسو الوجه الأدنى من هذا القرص توريقات بارزة على أرضية صماء ، وتتألف التوريقات من أوراق نخيلية تخرج منها سيقان ملتفة لفائف دقيقة ، آية فى الأناقة والروعة . والقرص الثانى يماثل هذا القرص فى كثير من زخارفه ، وان كان يتميز عنه بأن قاعدته مستديرة جوانبها مخرمة على شكل توريقات . وترجع هذه الثريا الى القرن الخامس عشر . أما الثريا الرابعة فترجع الى القرن السابع عشر ، وان كانت تتبع الأسلوب القديم ذاته .



مدارس فاس

تعريف المدرسة وذكر المعاهد العلمية السابقة عليها

المدرسة مؤسسة يأوى اليها الطلبة لتلقى العلوم الدينية والفقه ، ويتولى التدريس لهم فيها كبار العلماء والمحدثين . والمدارس مما حدث فى الاسلام ، ولم تكن تعرف فى العصر الاسلامى الأول ؛ ولكنها ظهرت أول ما ظهرت فى خراسان ، حوالى عام ٣٩٠ للهجرة (١٠٠٠ م) .

وأول من أثر عنهم بناء المدارس فى الاسلام أهل نيسابور . ثم امتد مجال انتشار المدارس الى بغداد حوالى عام ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ م) ، فأسس الوزير السلجوقى العظيم نظام الملك المدرسة النظامية ببغداد . وفى عام ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) ، أقيمت أول مدرسة فى دمشق . ومنها انتقلت فكرة بنائها الى مصر على يدى صلاح الدين ، وذلك منذ ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) . ثم ظهرت فى شمال افريقيا بعد ذلك بما يقرب من قرن . ولكى نفهم المقصود بالمدرسة ينبغى أن نلم بنبذة عن المعاهد العلمية التى مهدت لظهور المدارس .

يعد المأمون العباسى أول من أقام معهدا للعلم فى بغداد ، سماه بيت الحكمة (١٩٨ هـ) ، على غرار جامعة جنديسابور . كذلك أقام المعتضد بالله ، أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أبى أحمد طلحة ، دورا ومساكن ومقاصير : رتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، وأجرى عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه .

وفى الموصل أسس جعفر بن محمد الموصلى دارا للعلم ، زودها بمكتبة تزخر بعدد ضخم من الكتب فى جميع فنون المعرفة . وأسس الفاطميون فى مصر دورا مماثلة لنشر الدعوة الفاطمية ، وكان فى قصرهم مكتبة ، يقال انها كانت أعظم مكتبة فى الاسلام ، كانت تشتمل على نحو أربعين غرفة مليئة بالكتب من جميع فروع المعرفة والعلوم . كما أنشأ يعقوب بن كلس ، وزير العزيز بالله نزار ، فى داره مجلسا للعلم كان يتردد عليه فيه طائفة من العلماء والفقهاء .

ثم أقام الحاكم بأمر الله فى القاهرة عام ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ، دار الحكمة شمالى القصر الفاطمى الغربى . وكان داعى الشيعة يجلس فيها ، ويجتمع اليها من التلاميذ من يتكلم فى العلوم المتعلقة بالمذهب الشيعى . وجعل الحاكم لها جزءا من أوقافه التى وقفها على الجامع الأزهر وجامع المقس وجامع راشدة . وغلبت شهرة هذه الدار على شهرة دور العلم السابقة كلها ، وألحقت بها مكتبة كانت تحتوى على قاعة للمطالعة ، ومجلس للاجتماعات ، وغرف للتدريس . كما بنى الحاكم دورا مماثلة فى الفسطاط وحلب . وأنشأ الحسن ابن عمار فى طرابلس الشام دارا للحكمة تشبه دار الحكمة بمصر . وكانت هذه المعاهد وأمثالها تقوم بوظيفة من أكبر وظائف الدولة هى اعداد الدعاة ، وتزويدهم بالعلوم الخاصة بالمذهب الشيعى .

نشأة المدارس في المشرق وانتقالها الى المغرب

وبينما كانت دار الحكمة وغيرها من المراكز العلمية تقوم بوظيفتها ، كانت المدرسة تنمو وتترعرع فى الدول السنية بالمشرق . وقامت المدرسة بمحاربة المذهب الشيعي فى فارس (مذهب بني بويه) ، وعنيت بنشر المذاهب السنية . وكان تأسيس المدرسة باديء ذي بدء من صميم أعمال الخير والبر ، لذلك ساهم عدد كبير من الناس فى بنائها ، كما بنى كثير من الفقهاء مدارس على نفقتهم الخاصة ... فأسس أبو حاتم البستي المتوفى عام ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) مدرسة فى مرو ، كانت بها مكتبة وغرف لايواء الطلبة الغرباء .

وفى عهد السلطان محمود الغزنوى ظهرت أربع مدارس هى : المدرسة البيهقيه التى أسسها البيهقى ، والمدرسة السعيدية التى أسسها الأمير نصر بن سبكتكين حاكم نيسابور ، ومدرسة أبو سعد اسماعيل بن على بن المثنى الاستراباذى الصوفى الواعظ ، ومدرسة رابعة بناها ابن اسحق الاسفراينى . وهكذا شهدت فارس مولد هذا النظام الجديد ، وهو المدرسة . ومنها انتشر الى الأقطار الاسلامية الأخرى .

وبدأت الحكومات تشترك ، منذ النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة ، اشتراكا فعليا فى حركة تأسيس المدارس . فأصبحت المدرسة منظمة رسمية من منظمات الدولة ، يتخرج فيها عمال الدولة وموظفوها ... وذلك حين بعث الوزير نظام الملك : أبو علي الحسن بن علي بن اسحق ابن العباس الطوسي — وزير طغرلبك وألب أرسلان وملكشاه — هذه الحركة التي ما كادت تزدهر محليا مدة خمسين عاما حتي ماتت علي أيدى وزراء طغرلبك .

ويعد « نظام الملك » أول من حقق استخدام المدرسة فى الأغراض التى أنشئت من أجلها ، وهى : الدعاية للمذاهب السنية ، ومحاربة المعتقدات الشيعية . فأنشأ عدة مدارس فى خراسان وفى بغداد والبصرة وأصفهان . وكان أشهر هذه المدارس كلها المدرسة النظامية ببغداد التى أسسها عام ١٠٦٥ م . وشرع نظام الملك فى بنائها عام ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) ، وفرغ من عمارتها وأعدها عام ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) ، أى فى عامين . وقام بالتدريس فيها الشيخ أبو اسحق الشيرازى الفيروزبادى صاحب كتاب التنبيه فى الفقه على مذهب الامام الشافعى . واقتدى الناس بنظام الملك فى بناء المدارس ، فانتشرت المدارس فى جميع أنحاء الدولة السلجوقية فى بغداد ونيسابور ومرو .

ثم أنشأ الخليفة المستنصر بالله العباسى المدرسة المستنصرية ، وخصصها للمذاهب الأربعة ، وجعل لكل مدرس خمسة وسبعين طالبا ، ومعلما للقرآن ، وآخر للحديث . وكان بها مكتبة وحمامات ومارستان ومطابخ . وأفلتت هذه المدرسة ، لحسن الحظ ، هي والمدرسة النظامية ، من تخريب هولاكو .

وذكر ابن بطوطة هاتين المدرستين فى رحلته فى بداية القرن الثامن للهجرة ، فقال : « ان أعظم أسواقها (يعني بغداد) سوق الثلاثاء ، وفى وسط المدينة المدرسة النظامية وفى آخره المستنصرية ، ونسبتها الي أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر أمير المؤمنين الظاهر بن أمير المؤمنين الناصر . وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب ايوان فيه المسجد ، وموضع التدريس ، وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة ، على كرسى عليه البسط ... وهكذا ترتيب كل مجلس من المجالس الأربعة . وفى داخل المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء » .

وانتشرت حركة بنـاء المدارس فى سوريا فى القرن الخامس للهجرة ... اذ أخـذها السـلطان نـور الدين محمود بن زنكى عن السـلاجقة ، ونشرها فى الشام والجزيرة ، وأقيمت فى عهد هذا السلطان مدارس فى دمشق وحلب وحماة وبعلبك وحمص والرقة والبصرة . ويرجع السبب فى كثرة انشاء المدارس فى الشام والجزيرة الى أن هـذا السلطان كان سنيا من غلاة السنيين ... بل كان زعيم السنيين فى هذه البلاد .

وكان العلماء يفدون الى هـذه المدارس من نيسابور وبغداد ومن قرطبة وغرناطة ومراكش . وأقدم المدارس التى تبقت لنا منها آثار المدرسة المجاورة لجـامع أورفا بتركيا ، ويرجع تاريخهـا ـ وفقـا لنقش كتـابى ـ الى عـام ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) . وفعـل الأمراء الأتابكة ما فعـله السلطان نور الدين محمود ، فكثر عدد المدارس فى بلاد الشام . وأسست دار الحديث النورية ، والمدرسـة الصـالحية ، والمدرسة العصرونية ، والمدرسة العمادية ، ومدرسة الكلاسة ، والمدرسة العادلية ، والمدرسة الأسدية .

ومن مدارس الشام انتقل نظام المدرسة الفارسية الى مصر على يدى صـلاح الدين . والواقع أنه كان بمصر مدرستان قائمتان قبـل قدوم صلاح الدين ... ذلك أن مصر ، فى الفترة الأخـيرة من الخلافة الفاطمية ، كانت قد تأثرت تأثرا ما بحركة العـودة الى المذهب السنى . ففى عـام ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) أنشـأ رضـوان بن ولخش ـ وزير الخليفة الحافظ لدين الله ـ مدرسة بالاسكندرية ، كما أنشأ العادل أبو الحسن على ابن السلار ـ وزير الخليفة الظافر ـ مدرسة أخرى بالاسكندرية عام ٥٤٦ هـ (١١٥٢ م) .

وكان ابن السلار فى نزاع متواصـل مع وزير شيعى هو نجم الدين بن مصال . وكان فى أول أمره شيعيا ، ثم نبذ المذهب الشـيعى ، واعتنق المذهب السـنى ومن هنـا نشـأت بينه وبين نور الدين محمود ـ زعيم السنيين فى الشام ـ علاقة من المودة ، فأنشأ ابن السلار مدرسـة عام ٥٤٦ هـ ، وقام على التدريس فيهـا امام من أعظـم الأئمة فى الفقه والحديث ، هو الحافظ السـلفى الذى أدركه صـلاح الدين ، وكان يتوجـه الى الاسـكندرية لسماع حديثه مع أولاده وأهله .

وكان سبب بناء هاتين المدرستين بالاسكندرية فى أواخر العصر الفاطمى ، ميل أهلها الى المذهب السنى . ونجد مصـداق ذلك فى الحوادث التى جرت فى نهاية الدولة الفاطمية ... ففى عام ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) اسـتولت جيوش شـيركوه عـلى الاسكندرية ، وترك جزءا من جيشه فيها وسار هو فى الجزء البـاقى الى قوص لجمـع الخراج والمئـونة . وأسرعت جيـوش الصـليبيين الى الاسكندرية ، وحاصرتها حصارا شديدا ، وكان عدد جند صلاح الدين قليلا ، ومع ذلك فقد صمد أمام الصـليبيين ، وأبدى من ضروب البسـالة والاقدام ما أهله بعد ذلك للمنصب الكبير الذى شـغله ، والدور الأعظـم الذى قام به ... وذلك بفضل معونة أهل الاسكندرية له ، ولذلك لم تكن الاسكندرية فى حاجة ماسة الى جهود صلاح الدين لمحـاربة الشيعة ، وحفظ لأهلهـا هـذا الصنيع .

ولكن مدرستى الاسكندرية فى العصر الفاطمى كانتا فريدتين فى نوعهما ، كمـا أن المدارس التى أدخلهـا صـلاح الدين كانت تصطبغ بالصـبغة السنية ، وتتبع النظام الدينى الذى وضـعه نظام الملك ... لذلك يعد صـلاح الدين أول مؤسس للمدارس فى مصر ، وأول من أدخل فيها هـذا

النظام . وبينما كان جنده يخوضون المعارك فى الشام وفلسطين ، وينتقلون من نصر الى نصر ، كان العلماء والفقهاء فى الداخل يغزون الناس دينيا ، ويحاربون المذهب الشيعى ... فكثر انشاء المدارس فى مصر والشام ، وأقيمت المدرسة الصلاحية بجوار ضريح الامام الشافعى عام ٥٧٥ هـ ١١٨٠ م ، وعهد صلاح الدين ببنائها الى الشيخ الفقية الامام أبو البركات بن الموفق الجنوشانى ، وكان فارسى الأصل ... فلا نعجب اذن أن نقيم أولى مدارس صلاح الدين فقيه من فارس موطن المدارس السنية الأولى . كذلك أقام صلاح الدين عام ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) المدرسة السيوفية ، ومدرسة زين التجار أو المدرسة الشريفية ، والمدرسة القمحية .

وأسست مدارس أخرى بمصر فى عهده مثل : المدرسة القطبية أسسها الأمير قطب الدين حسرو، عام ٥٧٠ هـ (١١٧٥ م) ، والمدرسة الأرسوفية أسسها عفيف الدين عبد الله محمد الأرسوفى . ولم تحرم بلاد الشام من المدارس الأيوبية ، فقد أسست المدرسة العادلية بدمشق فى عهد سيف الدين أبو بكر عام ٦١٥ هـ ، والمدرسة الظاهرية بحلب عام ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ، والمدرسة السلطانية بحلب فى عهد الملك العزيز غيث عام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ومدرسة الفردوس بحلب فى عهد الملك الظاهر غازى عام ٦٣٣ هـ ، والمدرسة الشرفية بحلب (٦٤٠ — ٦٥٠ هـ) ، والمدرسة الكاملية بحلب ، وغيرها من المدارس .

وكانت مدارس الشام مخصصة غالبا لتدريس مذهب واحد وفى بعض الأحيان لتدريس مذهبين ، هما الشافعى والحنفى ، وفى هذه الحالة كانت تشتمل على ايوانين متقابلين يحف بهما من الجانبين غرف للطلبة . أما فى حالة المذهب الواحد فكانت تشتمل على بيت للصلاة ، وبهو مستطيل بواجهته ثلاث بوائك ، ويتوسط البهو نافورة ، وقلما يوجد فى جهة من جهات البهو أكثر من قاعة واحدة متسعة (ليوان) . أما فى مصر فكانت معظم المدارس الأيوبية التى أدخلها صلاح الدين مخصصة لتدريس مذهب واحد : الشافعى أو المالكى أو الحنفى ... ما عدا المدرسة الكاملية التى كان يدرس بها الحديث ، والمدرسة الصالحية التى كانت تدرس بها المذاهب الأربعة .

ثم انتقل نظام المدارس السنية من مصر الى المغرب الأدنى ، ومن هناك انتشرت فى كافة أنحاء المغرب ، ولكنها وصلت الى المغرب الأقصى متأخرة ثلاثين سنة عن ظهورها فى المغرب الأدنى . وكانت مدارس المغرب تشتمل على مساكن للطلبة تتوزع حول الصحن المركزى الذى يقوم فى أحد جوانبه بيت الصلاة وغالبا ما كانت تزود بمئذنة ، شأنها فى ذلك شأن المدرسة المصرية .

ولكن المدرسة تخضع عادة للتقاليد المحلية ... ففى فارس أثرت الايوانات الساسانية على بناء المدارس العراقية والشامية والمصرية ، فأصبحت قاعاتها ألونة تنفتح على الصحن ، وتعلوها قبوات ضخمة نصف اسطوانية متكسرة . وكانت بعض مدارس مصر تتألف من ايوانين متقابلين بينهما فناء ، ويرتبط الايوانان معا عن طريق غرف متصلة ، ويعلو مدخل المدرسة عادة مئذنة ، مما يجعلنا نعتقد أن المدرسة المصرية تأثرت حتما بنظام المسجد .

ثم تعددت الألونة بتعدد المذاهب التى تدرس فى المدرسة . وأصبحت معظم مدارس مصر فى العصر المملوكى مدارس لتدريس المذاهب الأربعة ، فأضحى تخطيط المدرسة يشبه تخطيط الكنائس ، اذ تعامدت الايوانات على مربع

الصحن . ويتجلى هذا النظام فى مدرسة السلطان حسن ، ومدرسة زين الدين يوسف . غير أننا نعتقد أن هذا التخطيط المتعامد فى المدرسة المملوكية ما هو الا تطور لتخطيط الجامع ، فقد استبدلت بالمجنبات التى تدور بالصحن ثلاثة ألونة تضاف الى ليوان المصلى أو المسجد .

أما فى بلاد المغرب فقد اشتقت المدرسة نظامها من نظام الأربطة [1] ، وهو نظام معمارى قديم ... اذ كانت المدرسة تتألف من صحن مركزى يتوسطه حوض ، وتحيط به — من الشمال والشرق والغرب — غرف صغيرة ضيقة أعدت لاقامة الطلبة . وكان يشغل الجهة القبلية — قبالة المدخل الرئيسى عادة — بيت للصلاة ، أسقفه هرمية . وتختلف المدرسة المغربية عن المدرسة المصرية أو الشامية فى أنها لم تكن مدارس وقبورا ، أى أنها لم تكن تشتمل على ضريح ملحق ببنائها ، فى حين كانت المدارس المصرية والشامية لا تكاد تخلو من هذا الجزء الاضافى .

وبنو مرين هم أعظم بناة المدارس فى بلاد المغرب ، وأكثرهم نشاطا ، وأوفرهم همة . وكان ذلك مظهرا من مظاهر حماستهم الدينية التى تجلت بحق فى جهادهم بالأندلس مع اخوانهم الغرناطيين ، وفى محاربتهم للمعتقدات الموحدية ... فانتصروا للسنة ، وشجعوا العلوم الفقهية التى أنكرها أتباع المهدى بن تومرت . وقد اهتم بنو مرين اهتماما خاصا بمدينة فاس ، العاصمة الدينية والفنية لبلاد المغرب ، فأحضروا اليها الرخام من تلمسان ، واستخدموه فى كسوة أرضيات مدارسهم وصناعة أعمدتها وتيجانها ، وافتنّوا فى كسوة جدرانها بالزخارف الجصية الدقيقة ، وتغطية أزرها بالفسيفساء المعروف بالزليجى ، فجاءت مدارسهم أروع وأجمل وأزهى من القصور التى أقامها بنو الأحمر بغرناطة . ومن بين هذه المدارس التى أقيمت : مدرسة الصفارين ، ومدرسة الصهريج ، ومدرسة العطارين ، ومدرسة بوعنانية .

مدرسة الصفارين [1]

هى أقدم مدارس مدينة فاس قديم (فاس بالى) وهى الأثر الوحيد الذى تبقى لنا من مدارس القرن الثالث عشر الميلادى . أسسها السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى (٦٥٧ — ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ — ١٢٨٦ م) عام ٦٧٠ هـ (١٢٧١ م) . ولقد تعرضت هذه المدرسة منذ بنائها لاصلاحات وتجديدات متعددة ، أفقدتها شيئا فشيئا زخارفها الرائعة ، فاختفت الكسوات الجصية التى كانت تزين الغرف الموزعة حول الصحن . ولحسن الحظ تبقت أجزاء قليلة من الزخارف المحفورة فى الجص فى بيت الصلاة الملحق بالمدرسة . ومدخل المدرسة على هيئة مرفق منحن فى تخطيطه ، شأنه فى ذلك شأن مدخل الدور المغربية . ويؤدى هذا المدخل الى صحن

---

(١) الرباط : حصن دينى أعد لاقامة المسلمين الذين وقفوا حياتهم على الدفاع عن بلادهم ، والجهاد فى سبيل الله ضد أعداء الاسلام فترة من الزمن قبل الجهاد أو بعده . ويكون فى نفس الوقت مكانا لمن تفرغ لعبادة الله فيدفع بدعائه البلاء . والرباط معهد ذو صبغة دينية وحربية ويبدو أن فكرة الرباط فكرة اسلامية . ويشبه الرباط فى ذلك الاديرة التى يعيش فيها الفرسان المترهبنون . وكان يتألف من صحن مركزى تحيط به غرف فى جهاته الشرقية والغربية والشمالية ، ومزود فى الجهة القبلية بمسجد صغير . وكان للرباط مئذنة تؤدى وظيفتين : الاولى للأذان ، والثانية للمراقبة وارسال الاشارات التى تنذر بالخطر .

ولقد انشأ هرثمة بن اعين اول رباط بافريقية عام ١٧٩ هـ (٧٩٣ م) هو رباط المنستير . وكان القرن الثالث الهجرى هو القرن الذهبى لبناء الاربطة . فقد اقامت اسرة بنى الاغلب عددا كبيرا منها على السواحل : منها رباط سوسة الذى اقامه زيادة الله بن الاغلب عام ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) .

(١) الصفارين : من الصفر ، وهو نوع من النحاس الأصفر او اللاطون الذى تصنع منه الاوعية والقدور ، وقد سميت هذه المدرسة بهذا الاسم نسبة الى حى الصفارين الذى اقيمت فيه . وهذا الحى كحى النحاسين فى القاهرة .

مستطيل يتوسطه حوض مربع . ويدور حول هذا الصحن غرف للطلبة تتوزع مباشرة على جهاته الثلاث : الشرقية والغربية والشمالية ، دون أن تطل على ممرات جانبية مسقوفة (أروقة) مثل بقية المدارس المغربية .

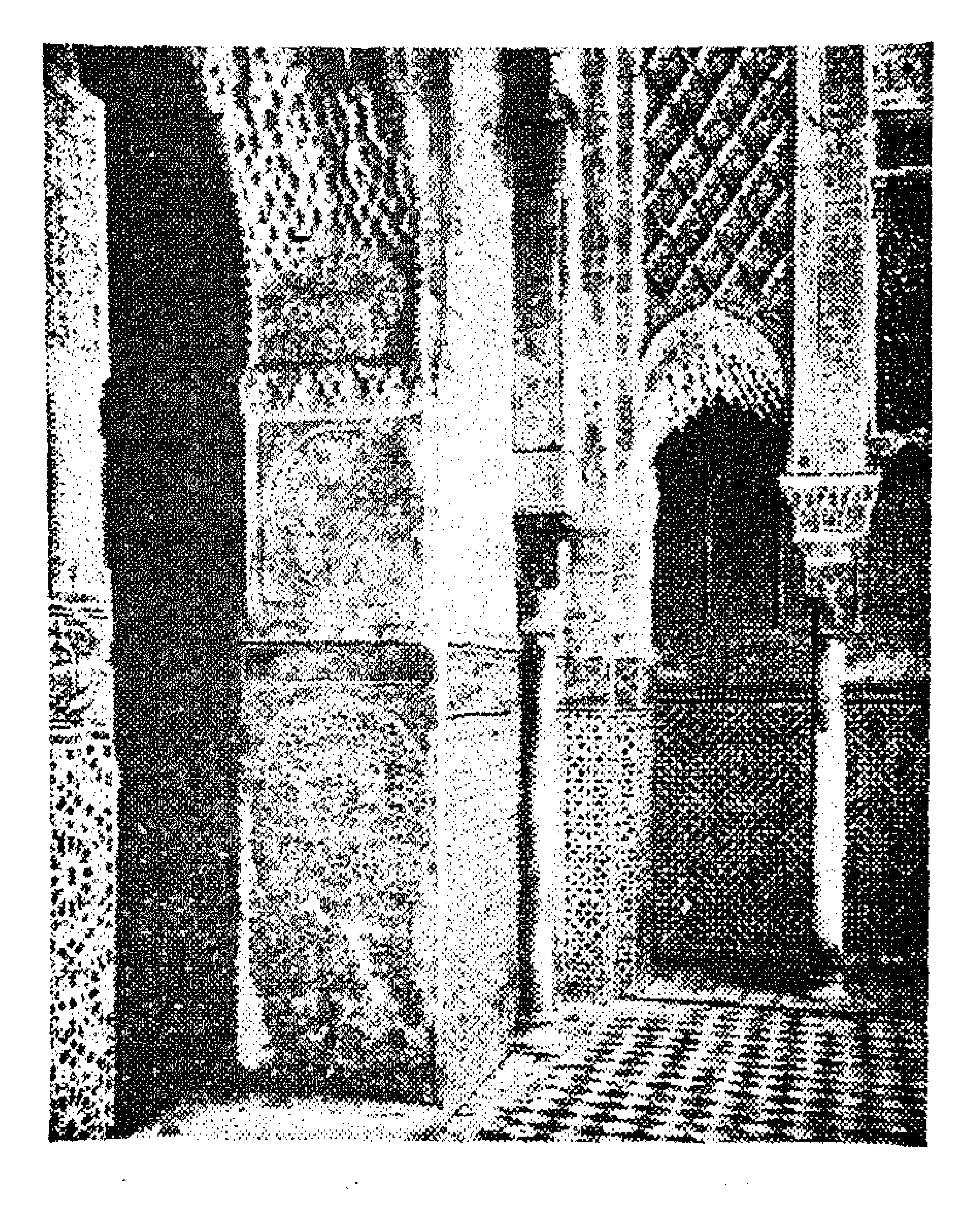
ويقوم المسجد على جانب الصحن المقابل للمدخل ، وان كان محوره ينحرف قليلا عن محور المدرسة . والمسجد مربع يعلوه سقف هرمى . ويمتد شرقيه ممر يؤدى الى ميضأة المدرسة . ويتوسط هذه الميضأة فناء صغير يحيط به أحد عشر مرحاضا .

وتعلو مدخل المدرسة مئذنة من الآجر مربعة القاعدة ، تكسو واجهتها الشمالية زخرفة على هيئة معينات . ويعلوها طابق مربع أصغر كثيرا من الطابق الأدنى وأكثر منه رشاقة . وينتهى هذا الطابق بقبيبة صغيرة ركب بأعلاها سفود بارز به الكرات الثلاث التقليدية .

مدرسة الصهريج (المدرسة الكبرى)

تقع هذه المدرسة فى المنطقة المحيطة مباشرة بجامع الأندلسيين ، فى الجزء الغربى من مدينة فاس . وكانت هذه المدرسة تؤلف فيما مضى جزءا من مجموعة معمارية أقامها الأمير أبو الحسن المرينى ، عام ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) ، فى الوقت الذى كان فيه وليا لعهد أبيه السلطان أبى سعيد عثمان . وكانت هذه المجموعة المعمارية تشتمل على مدرسة الصهريج موضوع البحث ، ومدرسة السبعيين (الخاصة بالقراءات السبع) ، وفندق .

وتشبه هذه المدرسة مدرسة فاس جديد التى أنشأها السلطان أبو سعيد عثمان عام ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) . ويتوسط مدرسة الصهريج صحن مستطيل ، عرضه أكبر من طوله بما يقرب من الضعف ، يتوسطه حوض ضخم من الرخام



الجزء الجنوبى الشرقى من صحن مدرسة العطارين

الأبيض مستطيل كالصحن ، استمدت المدرسة منه اسمها ... غير أن هذا الحوض الرائع نقل فى عهد أبى الحسن الى المدرسة المصبحية ، وبقى فيها حتى وقتنا هذا .

ويحيط بالصحن ، على الجانبين الشرقى والغربى فقط ، رواقان تستند عقودهما الخشبية على دعائم ضخمة . ويتصل بيت الصلاة بالصحن عن طريق ثلاث فتحات : الفتحة الوسطى منها يعلوها عقد كبير مقرنص ، كما يعلو كلا من الفتحتين الجانبيتين عتب خشبى منقوش . ونلاحظ أن مدخل المدرسة وعقد بيت الصلاة والمحراب تقع جميعا فى محور البناء نفسه . ومدخل المدرسة يؤدى من الغرب الى الميضأة وما يحيطها من مراحيض .

والمدرسة مستطيلة ، طولها يقرب من ضعف عرضها ، أى أنها متصلة بالصحن تشبه حرف T لا تقوم فيها عقود أو دعائم على الاطلاق ، وليست لها مئذنة .

ويلعب الخشب دورا هاما فى زخرفة المدرسة ، فان دعائم الرواقين الجانبيين تدعم أعتابا خشبية فى مستوى الأسقف ، وتحمل فى أعلاها عقودا زخرفية لا تعدو كسوة خشبية محفورا عليها توريقات رائعة من المراوح النخيلية ، وتعلو الجدران ظلة خشبية محمولة على كوابيل خشبية كذلك . ويفصل الصحن عن الرواقين الجانبيين مشربيات رائعة الجمال .

وتحتفظ مدرسة الصهريج بأقدم أمثلة للتربيعات الزليجية التى تكسو أفاريز الجدران ، وتزدان الأعتاب الخشبية بزخرفة نباتية تتخللها كتابات كوفية بارزة .

مدرسة العطارين

أمر ببنائها السلطان أبو سعيد عثمان ، فى أول شعبان عام ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) ، بجوار جامع القرويين ، وأشرف على بنيانها الشيخ محمد عبد الله بن قاسم المزوار . وقد أجرى اليها المياه من ساقية غزيرة الماء ، وزودها بطائفة من العلماء لتدريس العلوم الدينية ، وخصص لخدمة الطلبة اماما وعدة مؤذنين وبعض القومة .

وهذه المدرسة من أجمل آثار بنى مرين وأعظمها ، لتناسق أجزائها ، وجمال زخرفتها . وتحمل المدرسة اسم الحى الذى أقيمت فيه . وتصميم المدرسة بسيط فى مجموعه ، ويطابق النظام الذى درسناه فيما سبق . ومدخلها منحن يؤدى الى أسطوان صغير يفضى بدوره الى الصحن . وبالأسطوان بابان : أحدهما يصل الى ميضأة المدرسة ، والآخر الى سلم يصعد الى غرف الطلبة ، على نحو النظام الذى اتبع فى مدرسة الصهريج وليست بالطابق الأرضى غرف . ويحيط بالصحن رواقان جانبيان فى كل منهما خمس فتحات غريبة الوضع . وتدعم الفتحة الوسطى دعيمتان كبيرتان فى حين تدعم الفتحتين التاليتين دعيمة كبيرة من جهة ، ودعيمة أصغر منها من الجهة الأخرى وتنعقد على مساند هذه الدعائم الثلاث ثلاثة عقود خشبية يزيد تجاوزها قليلا عن نصف الدائرة ، وهى مبطنة بوسائد زخرفية تؤلف أسنة مشرشرة فى الأطراف وعلى الجانبين عقدان تقوم كل منهما على عمود رشيق من الرخام يربطه بركن الصحن عقد باطنه مقرنص . وتكسو أرضية الصحن تربيعات كبيرة من الزليجى ، وتتوسطه فسقية فى وسطها خصة من الرخام مستديرة ، محيطها مقصوص ، وتؤزر الجدران تربيعات من الزليجى تعلوها زخارف رائعة محفورة فى الجص .

وتيجان الأعمدة رخامية تحمل نقوشا كتابية : بعضها فى مدح مؤسس الجامع ، وبعضها فى حمد الله والزخارف المحفورة على الخشب بمدرسة العطارين تعد أروع أمثلة الحفر على الخشب فى العمارة المرينية وقد نجح الفنان فى حفر التوريقات حفرا غائرا فى دقة تامة ، وبالسهولة التى تحفر بها فى الجص .

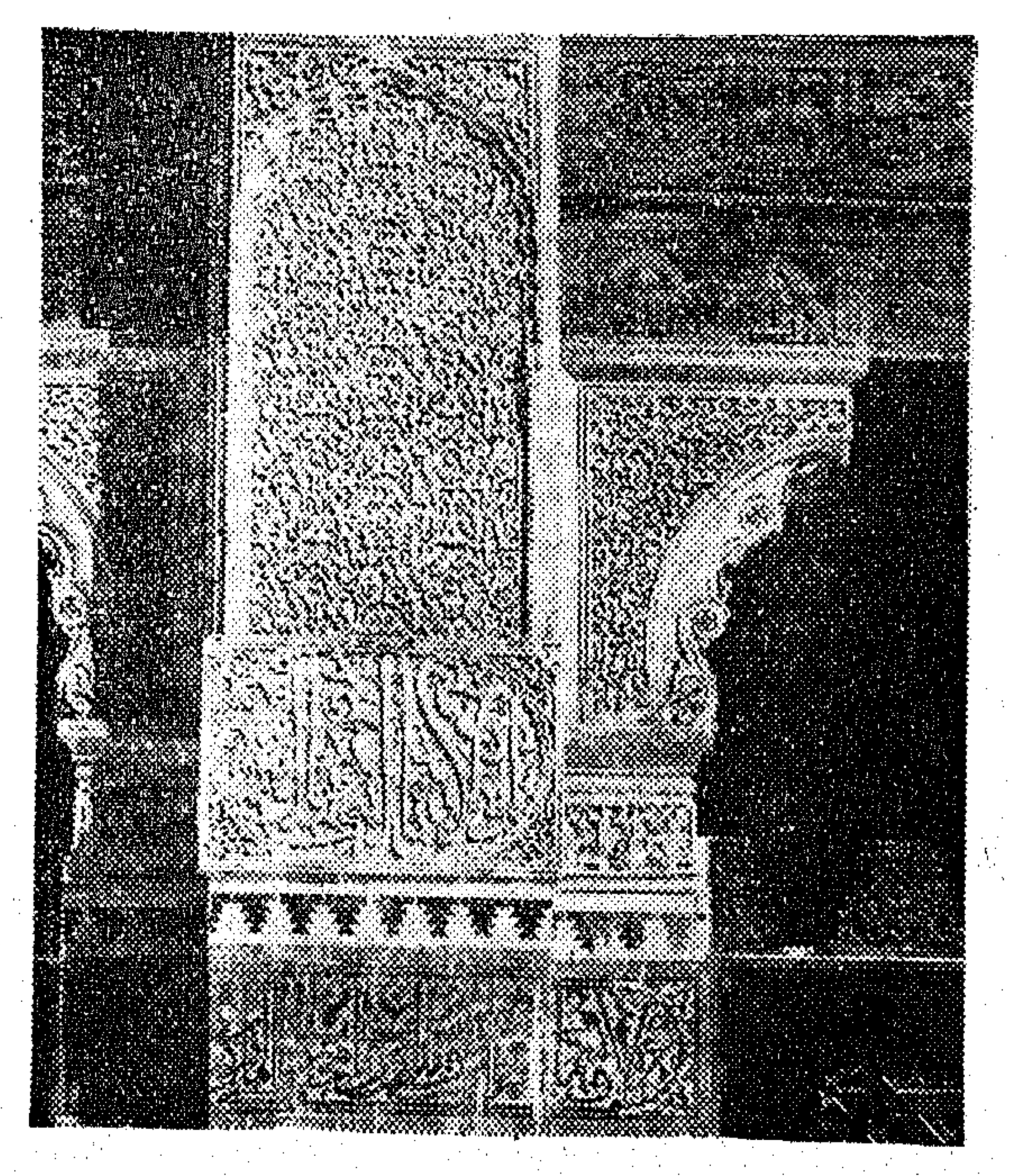
ويزدان مدخل المدرسة بتربيعات من الزليجى آية فى الروعة والجمال ، عليها كتابة مرسومة على الزليجى ، ثم كتابة محفورة فى الرخام ، ثم حشوتان كبيرتان زينتا بزخارف جصية . وألوان هذه التربيعات الزليجية متنوعة بين الأبيض والأسود والأزرق الباهت والبنى الفاتح . وفى بنيقتى العقد المرسوم فى الزليجى توريقات ملونة باللون الأسود القاتم على أرضية بيضاء .

وبيت الصلاة مستطيل ، يتعامد محوره مع محور المدرسة ، وينقسم قسمين غير متساويين بوساطة ثلاثة عقود تقوم على دعائم أربع .

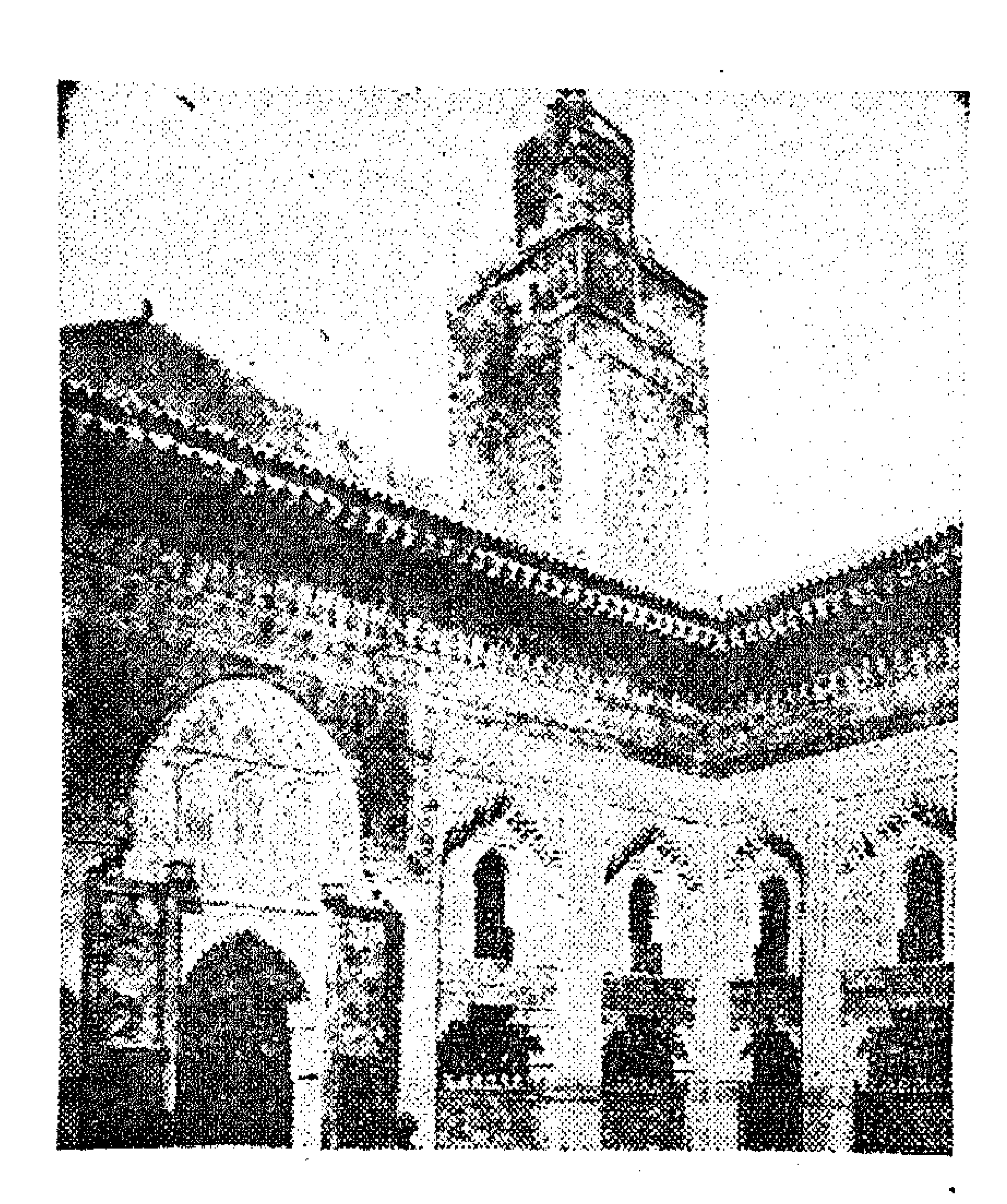
وقد احتفظت هذه المدرسة لحسن الحظ بأكثر زخارفها ، وتضيء المدرسة ست نوافذ صغيرة : أربع منها مغطاة بزجاج ملون يسود فيه الأزرق والأصفر والأخضر . ويقع المحراب فى الجدار الجنوبى ، ويستند عقده على عمودين من الرخام الأبيض ، فى حين يستند العقدان الزخرفيان الجانبيان على أعمدة من الرخام الأسود ، أبدانها مثمنة ، وتتدلى من وسط السقف ثريا من البرنز يرجع تاريخها الى تاريخ بناء المدرسة ، وتحمل نقوشا تتضمن اسم المنشىء .

مدرسة بوعنانية

كانت هذه المدرسة تعرف بادىء ذى بدء باسم المدرسة المتوكلية ، ثم أطلق عليها اسم بوعنانية تخليدا لذكرى منشئها السلطان المرينى ، أبى عنان فارس بن أبى الحسن بن أبى سعيد ، وتختتم بها سلسلة المدارس التى أنشأها بنو مرين ، لكنها تتميز عن سائر مدارسهم بعظمتها ، وكبر مساحتها ، وفخامة زخارفها . وقد شرع السلطان أبو عنان فى



احد عقود مدرسة بوعنانية



صحن مدرسة بوعنانية ومئذنتها

بنائها فى ٢٨ من رمضان عام ٧٥١ للهجرة (٣٠ نوفمبر سنة ١٣٥٠ م) ، وأتم بنيانها فى آخر شعبان من عام ٧٥٦ للهجرة (٨ من سبتمبر عام ١٣٥٥ م) ، وعهد بالاشراف على بنائها الى مفتش الأوقاف بفاس ، ويعرف بأبى الحسين بن أحمد بن العسكر .

وتمتاز هذه المدرسة على غيرها باشتمالها على مسجد مزود بمنبر كسائر المساجد الجامعة ، ثم هى تحتوى على مدرسة لقراءة القرآن ، ومئذنة من أجمل مآذن المغرب . وللمدرسة بناء يعد فريدا من نوعه فى بلاد المغرب ، هو « واجهة الساعة » . ومن أعلى مئذنتها يستطيع المرء أن يستمتع برؤية مآذن فاس بالى وفاس جديد ، ويتمكن المؤذن من الأذان للعدوتين معا . ولقد أقيمت هذه المدرسة لتنهض بكل ما يستلزمه الدين والعلم . ولا شك أن منشئها أراد لها أن تحتل المكان الأول فى العاصمة الدينية والعلمية لبلاد المغرب .

والمدخل الرئيسى للمدرسة فى شارع رئيسى كان يعرف باسم سوق قصر فاس ، ويقطع الشارع أمام

هذا المدخل عقد ضخم يشبه الساباط . والى جوار هذا المدخل مدخل آخر ثانوى لا يفصله عن المدخل الرئيسى سوى جدار . والى غرب هذا المدخل بناء ضخم يؤلف جزءا من المدرسة كانت تقام عليه ساعة يطلق عليها اسم «مجانة» ، مزودة بطاسات وكئوس من البرنز ، وقد شيدت هذه الساعة فى الأيام الأخيرة من بناء المدرسة (١٤ من جمادى الأولى عام ٧٥٨ للهجرة ٦ من مايو عام ١٣٥٧ م) ، تحت اشراف المؤقت أبى الحسن على بن أحمد التلمسانى المعدل . ولقد خربت هذه الساعة الأثرية فى الوقت الحاضر ، ولكن تبقى منها جزء كبير فى الواجهة المطلة على الشارع . ويشتمل هذا الجزء على صف من ثلاثة عشر جرسا من البرنز ، يعلوه صف من نوافذ معقودة عقودا متجاوزة منكسرة ، بينها حشوات تحتشد فيها توريقات محفورة فى الجص . ويعلو هذا الصف افريز خشبى منقوش ، يقوم عليه صف من المساند الخشبية المثبتة على افريز عريض مزين بالتوريقات .

وفى جنوبها الغربى ، باب يؤدى الى أسطوان على شكل مرفق ، ويفضى هذا الأسطوان الى رواق تطل عليه ثلاث غرف . ويتصل هذا الرواق بالصحن من جهة القبلة . ويظلل هذا المدخل الصغير ظلة كبيرة . وفتحة الباب يعلوها عتب من الخشب يحمل نقشا كتابيا ، ويعلو هذا العتب ثلاثة عقود زخرفية محفورة فى الجص ، بطونها مقوسة أقواسا متصلة ، ورءوسها مدببة تكتظ بتوريقات متشابكة دقيقة .

وتستند هذه العقود على عمد تحصر فيما بينها ثلاث حشوات تحتشد فيها زخرفة جصية . ففى القسمين الأيمن والأيسر زخارف من توريقات نخيلية تشبه عقودا متصلة تؤلف شبكة من المعينات التى تماثل أزهار الزنبق ، بداخله توريقات أخرى أكثر دقة وأصغر حجما .

وفى القسم الأوسط شبكة معقدة من التوريقات التى تختلط فيها السيقان على هيئة خيوط دائرية ، تقطعها دوائر أخرى متداخلة فيما بينها . ويحيط بهذه العقود اطار كتابى ضيق يلتف به شريط عريض من الزخرفة بكيزان الصنوبر المحببة والقواقع البارزة ، بينها زخارف نباتية آية فى الروعة والجمال .

وتستند الظلة على كابولين كبيرين تكسوهما زخارف نباتية ، ويرتكز هذان الكابولان على مسندين صغيرين ، ثم على دعيمتين تكتنفان المدخل .

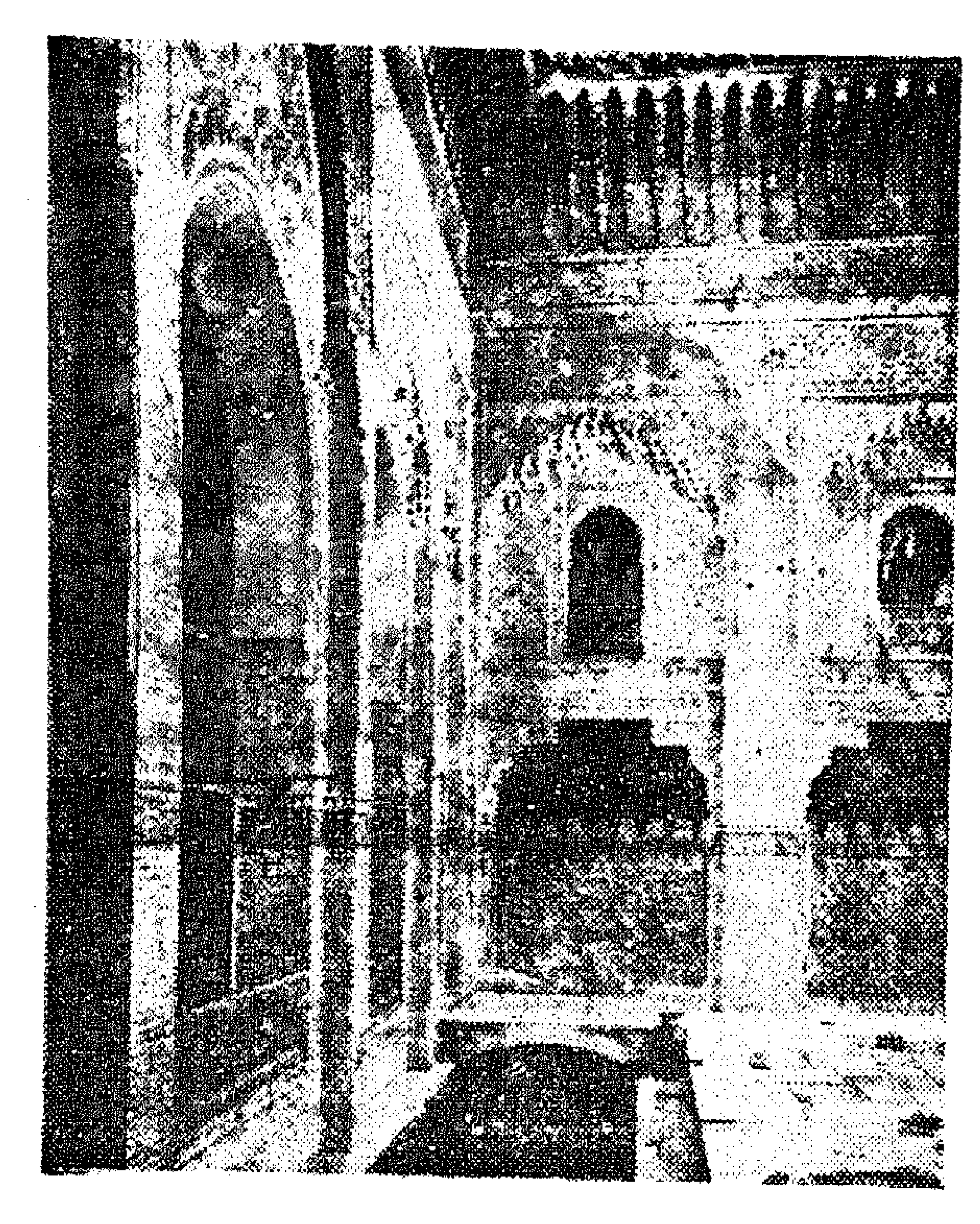
والمدخل الرئيسى للمدرسة يتألف من بابين متجاورين : الأكبر أو الرئيسى يقع فى محور المدرسة . ويصل المدخل بالصحن سلم درجاته مغطاة بالزليجى ، ومحاطة بالرخام الأبيض . ويؤدى هذا السلم الى رواق يمتد بطول الصحن ، ويدور حوله فى الشمال والشرق والغرب . ويمتد هذا الرواق شرقا الى ممر منحن ، ينتهى الى صحن صغير فى وسطه حوض . وتتوزع حول هذا الصحن من الجانبين الشرقى والغربى سبعة مراحيض . أما من الغرب فيمتد الرواق الشمالى الى ممر يفضى الى باب المئذنة .

ويتوسط المدرسة من الداخل صحن أشبه بالمربع منه بالمستطيل ، طول كل جانب من جوانبه نحو ثمانية عشر مترا . وتكسو أرضية الصحن لوحات من الرخام الأبيض ، ويتوسطه حوض مستدير يستخدم للوضوء . وتتوزع حول الصحن أبنية مختلفة ، ويدور حوله ـ كما سبق أن ذكرت ـ رواق تعترضه ، فى منتصف الرواقين الشرقى والغربى ، قاعتان للدرس مربعتان : طول كل قاعة نحو خمسة أمتار ، وتعلوها قبة من الخشب ذات ضلوع متشابكة .

ويعتقد الأستاذ « جورج مارسيه » أن هاتين القبتين تشبهان فى نظامهما الألونة الجانبية بمدرسة السلطان حسن ، وان كنا نعتقد أنهما تشبهان نظام قاعتى الأختين وبنى سراج بقصر الحمراء . وتزدان جدران هاتين القاعتين بزخارف جصية كثيفة . أما الرواق فيدور حول هاتين القاعتين ثم يستمر بحذاء جانبى الصحن الشرقى والغربى مرة أخرى . وتطل على هذا الرواق غرف للطلبة تتوزع على طابقين .

ويقع المسجد الى جنوب الصحن ، ولكن تفصله عنه قناة صغيرة عرضها متران هى أحد فروع نهر فاس . وأقيم على حافتهـا سلم يمتـد على طول الصحن يسهل للمصلين الوضوء من القناة مباشرة . ويصل الصحن بالمسجد قنطرتان صغيرتان :

ويقسم المسجد صف من أربعة أعمدة تقوم عليها خمسة عقود الى بلاطين عرضيين على نظام مسجدى القرويين والأندلسـيين . ويعلو كلا من هـذين البلاطين هيكل خشبى على شكل هرم ناقص مخرم بالزخارف الهندسية الرائعة . وأعمدة هذا المسجد من الرخام وتيجانها آية فى الجمال ، وتشبه تيجان مسجد سيدى الحلوى بتلمسان . وتحمل هـذه الأعمدة عقـودا تشبه حـدوة الفرس ، يعلوها جدار فاصل يتكىء عليه السقف . ويطل المسجد على الصحن بثلاث فتحات كبرى تكتنفها فتحتان صغيرتان ، وجميع هذه الفتحات معقودة على نظام عقود الصحن . وتنفتح فى الجدار القبلى للمسجد نوافذ صغيرة معقودة كانت مغطاة بألواح الزجاج . أما المحـراب فخوخة ذات خمسة ضلوع تعلوها نصف قبة مقرنصة . وعقـد المحراب على شكل حدوة الفرس يقوم على عمودين مثمنى الشكل من الرخام . ويعلو عقد المحراب افريز زخرفى تنفتح فوقه ثلاث نوافذ معقودة تكسوها زخرفة جصية مخرمة من التوريقات المتشابكة . ويزداد الجزء



الزاوية الجنوبية الغربية من صحن مدرسة بوعنانية
(ويرى وادى فاس والقنطرة اسفل الصورة)

الأعلى من جدران المسجد بزخارف جصية جميلة . وبالمسجد منبر لصـلاة الجمعة مزين هو الآخر بزخارف دقيقة .

ويفصل الرواق الذى يدور حول الصحن عن الصحن نفسه مشربيات خشبية ارتفاعها يقرب من مترين ، مثبتة بين الدعائم ، وتكسو هذه الدعائم تربيعات من الزليجى . أما الرواق فعلى درجة عالية من الثراء الزخرفى ، وسقوفه خشبية تزدان بزخارف ملونة .

وترتفع المئذنة فى الزاوية الشمالية الشرقية من المدرسة . وهى مئـذنة رشيقة تزدان بزخرفة من الزليجى لونها أخضر .

وهكذا تتميز هـذه المدرسة بتناسق تصميمها ، وجمال بنيانها وتعادل نسبها وثراء زخارفها ، وهى لذلك تعد احدى روائع العمارة الأندلسية المغربية .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم

مساجد من الشام

وربط الاسلام بين العرب ، ولم شعثهم ووحد صفوفهم ، وخلق منهم قوة هائلة ، فمضوا يهزون العالم بانتصاراتهم ، ويخضعون أمما عريقة فى الحضارة . وما لبثوا أن تغلبوا على الامبراطورية الساسانية ، واستولوا على أكثر ولايات الامبراطورية البيزنطية فى سنوات معدودات .

وهكذا ارتفعت أعلام الاسلام فى فارس والعراق والشام ومصر تمهيدا لما أحرزه بعد ذلك من انتصارات تجاوزت كل تقدير فى الحسبان ... اذ حرر بلاد المغرب والأندلس ، وطرق أبواب الهند والصين والحبشة والسودان والأرض الكبيرة (فرنسا) والقسطنطينية ، واستطاع أن يقيم امبراطورية مترامية الأطراف تمتد من بلاد الصين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، وربط بين شعوبها برابطة روحية قوية هى رابطة الدين . ثم نشأت رابطة أخرى قوية من التقارب الاجتماعى بين العرب وأهل البلاد المفتوحة عن طريق المصاهرة ، وأصبح اندماج العرب والأعاجم من الوجهة الفسيولوجية والاجتماعية جيلا بعد جيل ، وطبقة بعد طبقة ، حقيقة واقعة ... وهكذا دان للعرب وثنيون ومسيحيون يتميز العدد الأعظم منهم بسمو فى الثقافة وتفوق فى الحضارة .

وما كاد العرب يخلدون بعد الفتوح الى حياة السلم حتى أخذوا فى استقرارهم يحوطون أنفسهم بكل مظاهر الأبهة والاستمتاع بالحياة ، فأقبلوا على الترف ، وحرصوا على التزين . ولم يكن للعرب قط تعبير جمالى سوى زخرف القول ، فمجدوا هذه الثقافات الطارئة دون أن يستغرقهم التفوق الثقافى للشعوب التى أخضعوها . وما لبثوا الا قليلا حتى اصطبغت هذه الثقافات بالصبغة العربية ، وحتى لا نكاد نستطيع أن نميز ما يعزى الى السريان والفرس والقبط والاسبان .

أما الفنون التصويرية فلم يكن لهم فيها حظ كبير ، فاحتضنوا حضارات الشعوب المغلوبة ، وشملوا رجال الفن من أهل الذمة برعايتهم ، واستخدموهم فى تشييد عمائرهم وزخرفتها بعد أن كيفوها وفقا لما يقتضيه دينهم وتقاليدهم ... فجاء الفن الاسلامى مزيجا من فنون مختلفة من اليسير تمييز أصولها . وكان قوامه الفنون الساسانية والبيزنطية والهندية والصينية وغيرها مما كان مزدهرا فى البلاد التى امتدت اليها أشعة الاسلام .

ثم أخذت هذه التقاليد الفنية المختلفة تنصهر بمرور الزمن فى بوتقة الاسلام ، وتولد منها أسلوب جديد له طابعه الخاص وشخصيته الواضحة ، واتسم هذا الأسلوب بصفات تكاد تكون واحدة فى كل أنحاء العالم الاسلامى نتيجة للوحدة الروحية فى البلاد التى خضعت له . وساعد على تثبيت هذه الوحدة الروحية بعض التقارب النفسى بين الشعوب الشرقية ، وسهولة الاتصالات الفكرية والاقتصادية فى بلاد العالم الاسلامى جميعها ، حتى فى أشد عصوره انقساما .

وكان لاختيار بنى أمية الشام مركزا للخلافة

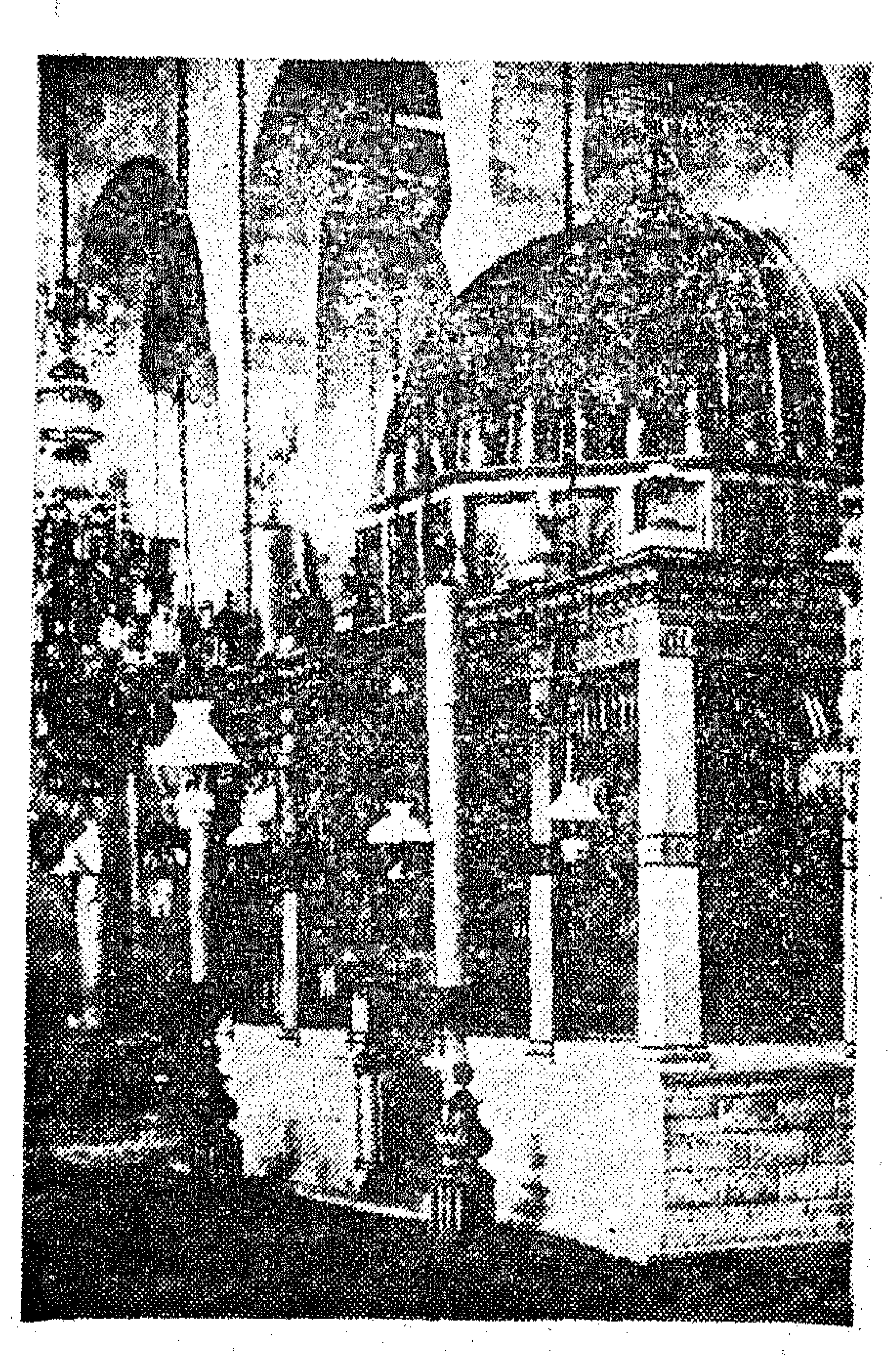
الأموية أثره البالغ فى تأثرهم ببعض الطرز الفنية التى كانت سائدة فى الشام حيث ازدهرت مدارس الفن الهلينستى والبيزنطى المتأثر ببعض أساليب الفن الساسانى بحكم الجوار . وشاهد المسلمون العمائر المسيحية البيزنطية بالشام ، وكان من الطبيعى أن يتأثروا بها حين شرعوا فى تشييد أبنيتهم الدينية والمدنية تضارع فى عظمتها أبنية الروم وكنائسهم ، فاعتمدوا بادىء ذى بدء على الصناع السوريين والقبط ، وتتلمذوا على أيديهم ، وأقاموا أبنية تطالع فيها التقاليد الفنية البيزنطية والساسانية .

والواقع أن بلاد الشام ، على الرغم مما أصيبت به من جراء الغزو الفارسى والفتح الاسلامى ، كانت أكثر بلاد حوض البحر المتوسط تحضرا ، ولم يكن يضارعها ويفوقها فى ميدان الفكر والفن سوى بيزنطة . وهكذا تلقى الأمويون تراث الهلينية ، واستخدموا الفنانين المحليين فى أبنيتهم ، لذلك جاء الفن الأموى فنا هلينستى الطابع . ويذكر البلاذرى فى كتابه « فتوح البلدان » أن الوليد بن عبد الملك ابن مروان كتب الى عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم مسجد المدينة وبنائه من جديد ، « وبعث اليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر ، فبناه وزاد فيه » .

الجامع الأموى بدمشق

جامع دمشق يقوم على موضع كنيسة يوحنا المعمدان (St.Juan Babtist) التى أقامها الامبراطور تيودوسيوس داخل معبد الاله جوبيتر الدمشقى . وهو معبد وثنى قديم ، احتفظت الكنيسة بجدرانه الخارجية وأبراجه الصماء الأربعة . فلما دخل أبو عبيدة بن الجراح مدينة دمشق من الجهة الغربية انتهى الى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى ، ودخل خالد بن الوليد عنوة من الجانب الشرقى ، وانتهى الى النصف الثانى — وهو الشرقى — فاحتازه المسلمون ، وصيروه مسجدا ، وبقى النصف المصالح عليه — وهو الغربى — كنيسة بأيدى المسيحيين .

وهكذا شاطر المسلمون نصارى دمشق كنيستهم الكبرى ، وأقاموا فى نصف الكنيسة الشرقى صلاتهم . فلما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة (٨٨ — ٩٦ للهجرة ، ٧٠٧ — ٧١٤ م) رأى أن يقيم مسجدا جامعا للمسلمين ، لا يقل عظمة عن الكنائس البيزنطية الكبرى ... فقد « رأى الشام بلد النصارى ، ورأى لهم فيها بيعا حسنة قد بولغ فى زخارفها ، وانتشر ذكرها — كالقيامة ، وبيعة



مشهد يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) بجامع دمشق

لد ، والرها — فاتخذ للمسلمين مسجدا شغلهم به عنهن ، وجعله احدى عجائب الدنيا » .

بادر الوليد بمفاوضة أصحاب الكنيسة فى التخلى عن شطرهم ، وعرض عليهم مالا كثيرا مقابل تنازلهم عن هذا الشطر . فأبوا ، فانتزعه منهم قهرا « وطلع لهدمه بنفسه . وكانوا يزعمون أن الذى يهدم كنيستهم يجن ، فبادر الوليد وقال : أنا أول من يجن فى الله . وبدأ الهدم بيده ، فبادر المسلمون وأكملوا هدمه » .

واستقدم الوليد لبناء الجامع الجديد عددا كبيرا من الصناع والبنائين من مختلف أنحاء العالم الاسلامى . وقيل انه كتب الى ملك الروم يطلب منه أن يوجه اليه مائتى صانع من بلاده ، وأن ملك الروم أجابه الى ما طلب . وقيل انه كتب الى ملك الروم ، حين أزمع تجديد جامع المدينة ، قائلا : « انا نريد أن نعمر مسجد نبينا الأعظم ، فأعنا فيه بعمال وفسيفساء » . فبعث اليه الامبراطور بأحمال من فسيفساء وبضعة وعشرين عاملا .

وذكر ابن جبير أنه وجه الى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره باشخاص اثنى عشر ألفا من الصناع من بلاده ، وتقدم اليه بالوعيد فى ذلك أن توقف عنه ، فامتثل أمره مذعنا بعد مراسلة جرت بينهما فى ذلك . وذكر المقدسى أن الوليد استحضر لبناء جامع دمشق حذاق الفنانين من فارس والهند وافريقية وبيزنطة . ويبدو أن فى هذا القول بعض المبالغة ، اذ أن الهند لم تكن قد دخلت بعد فى ملك الدولة الأموية .

أما مساهمة الصناع البيزنطيين فأمر لا شك فيه ، اذ أن جدران الجامع كله « أنزلت بفصوص من الذهب ، وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة قد مثلت أشجارا ، وفرعت أغصانا منظومة بالفصوص ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وصف كل واصف، فجاء يغشى العيون وميضا وبصيصا ».

ويبدو من دقة هذه الزخارف التى تؤلفها الفسيفساء أن هذه الفسيفساء أنزلت بأيدى عمال بيزنطيين لم يشترك معهم صناع محليون من دمشق ... اذ أن أسلوب الزخرفة بيزنطى بحت ، لأن الزخارف تمثل مناظر طبيعية وأشجارا وقصورا طابعها كلاسيكى بحت يمكن أن نطلق عليه الطابع البومبينى ، فى حين تمثل زخارف الفسيفساء فى قبة الصخرة مناظر نباتية ذات طابع تجريدى يكشف عن اشتراك الفنانين السوريين فى عملها وصنعها .

عنى الوليد بن عبد الملك ببناء جامع دمشق ، حاضرة الدولة الأموية ، عناية كبيرة ، وبلغ فى بنائه الغاية فى التأنق والاتقان ، وجعل منه بحق تحفة من تحف فن العمارة الاسلامية فى عصر مبكر لم يكن للمسلمين آثار تذكر . واستغرق بناء الجامع عشر سنوات ، وأنفق فيه نفقات كثيرة (قيل انها بلغت مائة صندوق ، فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ألف دينار) . فلما أتمه قال لأهل دمشق : « يا أهل دمشق انكم تفخرون على الناس بأربع : بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم ، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهى هذا المعبد » .

ويزعم بعض مؤرخى الفن أن الوليد لم يهدم الكنيسة ، وانما فتح الجدار الفاصل بين الجزء الشرقى الذى كان يشغله المسجد القديم ، والجزء الغربى الذى كانت تقوم فيه الكنيسة ، وأقام مكانه رواقا يؤدى الى المحراب ، وشيد فوق منتصف هذا البلاط قبة . ويستدل هؤلاء المؤرخون على ذلك بأن الجامع يحتفظ فى تخطيطه بنظام البازيليكيات ، وأن أعمدته وتيجانها كلها كلاسيكية قديمة ، وأن الأبراج الأربعة التى كانت

تقوم فى أركان الكنيسة ظلت تستخدم مآذن للمسجد .

الا أن الأستاذ « كريسويل » يصر على أن الكنيسة التى أقامها تيودوسيوس كانت تقوم فى وسط المعبد الوثنى القديم المستطيل ، وأنها لم تكن تشغل جانبا منه بحيث تستند على أحد جدرانه كما هو الحال فى جامع الوليد . ويؤكد كريسويل أن الكنيسة هدمت كلها ، وأقيم الجامع على موضعها . ويؤيد ذلك ما ذكره المؤرخون من أن الوليد هدم الكنيسة كلها ، فالمسعودى قرأ فى جدار المسجد بالذهب على اللازورد : « أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين » .

وادعاء هؤلاء المؤرخين بقاء الكنيسة يماثل ادعاءهم بقاء جدار كنيسة سانت بنجنت بقرطبة ، مع أن الأمير عبد الرحمن الداخل هدمها ، وأقام على موضعها مسجده الجامع ، وأن الأمير عبد الرحمن الأوسط أضاف الى بلاطات هذا الجامع الأول بلاطين جانبيين الغربى منهما هو الذى نراه اليوم .

ويتألف المسجد الجامع بدمشق من صحن مستطيل مكشوف ، وبيت للصلاة مسقوف طوله ١٣٦ مترا وعرضه ٣٧ مترا ، ويتكون هذا الجزء المسقوف من ثلاثة بلاطات تمتد من الشرق الى الغرب بحذاء جدار القبلة ، يفصل فيما بينها ثلاثة صفوف من عقود نصف دائرية متجاوزة بعض الشىء ، تقوم على أعمدة رخامية ، ويعلو كل عقد منها طاقتان نافذتان معقودتان . ويتوسط البلاطات الثلاثة بلاط عمودى على جدار القبلة أكثر ارتفاعا من بقية البلاطات ، تعلو منتصفه قبة حجرية



بيت المال بجامع دمشق

ضخمة . وينتهى هذا البلاط الأوسط بالمحراب ، وهو يشبه المجاز فى الكنائس .

وأسقف هذه البلاطات منشورية ، وتقوم فى منتصف البلاط الأوسط قبة حجرية أضيفت فى عصر متأخر . ويحيط بالصحن مجنبات ثلاث تطل عليه بعقود متجاوزة تشبه حدوة الفرس . وكان الجامع الذى بناه الوليد يشتمل على أربع صوامع للأذان لم يبق منها سوى واحدة فى الزاوية الجنوبية الغربية . أما المئذنتان اللتان نراهما اليوم بالمسجد فمتأخرتان .

وجامع دمشق أول جامع استخدمت فيه المآذن للأذان ، وتبعه فى ذلك جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، اذ أدخلت فيه — فى ولاية مسلمة

ابن مخلد عام ٥٣ هـ — أربع صوامع . ومن مآذن جامع دمشق انتشر نظام المآذن المربعة بصفة خاصة فى بلاد المغرب والأندلس . ولا يزال هذا النوع من المآذن منتشرا فى المغرب ، ويطلق عليه الاسم القديم وهو الصومعة .

ولقد أصيب جامع دمشق بأضرار جسيمة ، فقد أحرق خمس مرات ، وأعيد بناؤه وجدد ، وفقد كثيرا من عناصره الأولى ، ولكنه لا يزال يحتفظ بتخطيطه الأول فى العصر الأموى ... ففى عام ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) امتدت اليه النيران من دار مجاورة له فالتهمت أسقفه ، وأحرقت فسيفساءه ، وهدمت قبته وشوهت عمارته . ثم أصلح وأعيد اليه بهاؤه القديم . وفى عام ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) حدث زلزال عنيف فى مصر والشام تسبب فى اسقاط قمة المئذنة الشرقية وسقوط ١٦ شرفة ، وتشقق القبة المعروفة بقبة النسر وسقوطها . وفى عام ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) احترقت مئذنته الشرقية . وفى عام ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) قام الظاهر بيبرس بازالة الصناديق والخزانة من الجامع ، ومنع المجاورين والزهاد من المبيت فيه ، وأصلح وزراته وفسيفساءه ، ونظف عمده ، وذهب تيجانها ، وبنى مشهد زين العابدين .

وعنى الملك الناصر محمد بن قلاوون بتجميل هذا الجامع ، فأمر باصلاح وزراته الرخامية . وفى عام ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) احترق سوق اللبادين وسوق جيرون ، وامتدت النيران منهما الى سور الجامع . وفى عام ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) احترق المسجد بسبب الأسواق التى كانت تحيط به ، ثم أعيد بناء منارة عيسى . وفى عام ٧٩٤ هـ (١٣٩١ م) احترق سور الزجاجين والجلوديين والنحاسين والوراقين والصاغة ، واحترق الجامع ما عدا قبة زكريا . ثم احترق الجامع مرة أخرى عام ٨٠٣ هـ وسقطت أسقفه وأزيلت أبوابه .

وفى عام ١١٧٣ هـ (١٧٥٩ م) تهدمت أجزاء من قبة النسر والمجنبة الشمالية على أثر زلزال . وفى عام ١٣١٠ هـ أحرق المسجد ، ثم أصلح القسم الشرقى منه عام ١٣١٧ هـ (١٩٠٠ م) وتم اصلاح القسم الغربى منه بعد ذلك . ولم يتبق من المسجد القديم الا بقايا من الرخام المجزع فى بعض الأبواب وبعض الفسيفساء على عقود الأبواب وعقود الصحن وخواصر العقود . وتبقت فى صحن المسجد قبة بيت المال ، وهى بناء مثمن يقوم على ثمانية أعمدة رخامية وتعلوه قبة مكسوة بالرصاص .

ولجامع دمشق فى وقتنا الحاضر ثلاث مآذن : احداها المئذنة القديمة الواقعة فى الركن الجنوبى الغربى ، واحدى المئذنتين الأخريين من بناء السلطان الملك الأشرف قايتباى . أما الفوارة الرخامية المقامة فى وسط الصحن فترجع هى وقبتها الى عام ٣٩٦ هـ (١٠٠٥ م) .

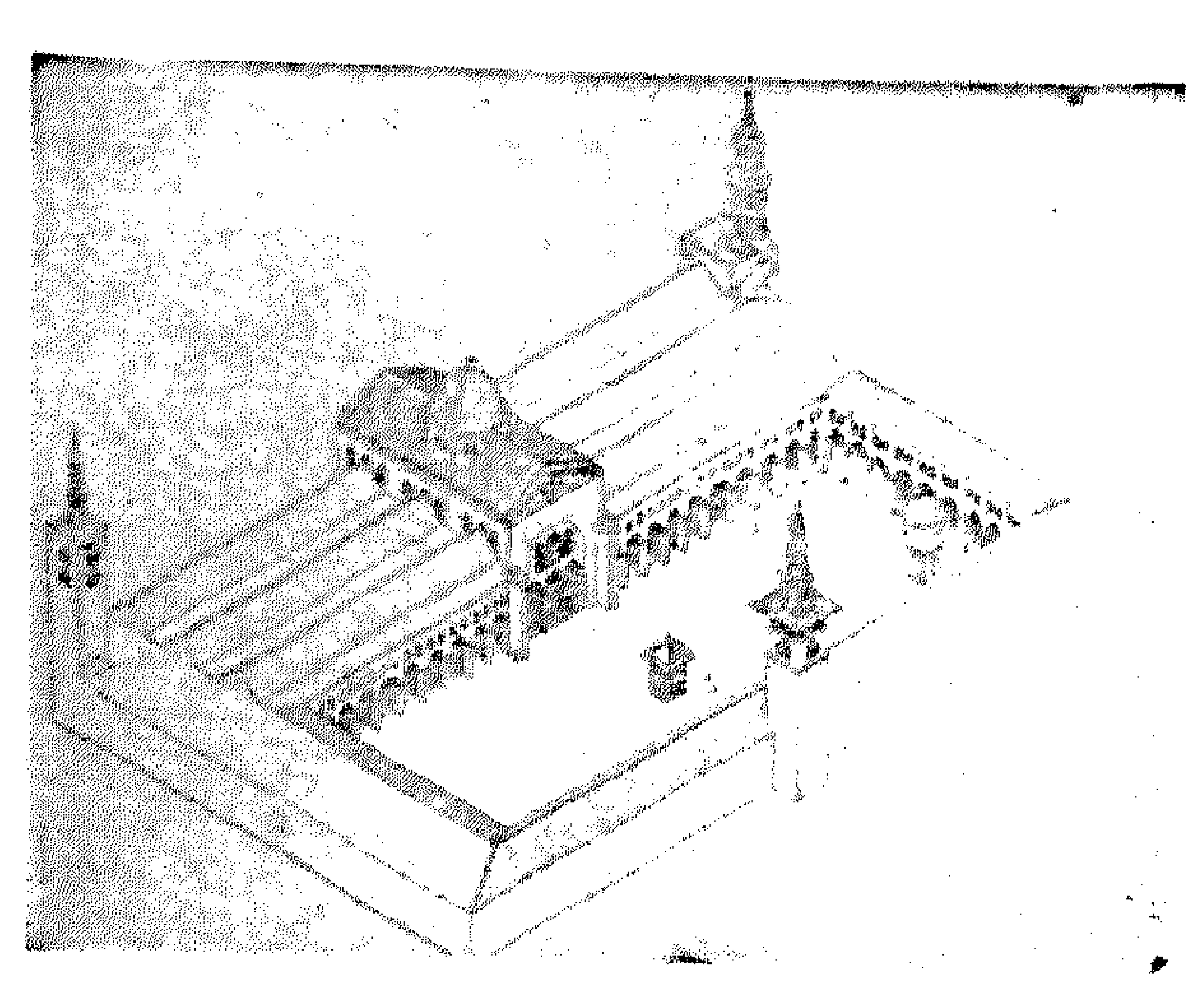
ولقد زار هذا الجامع عدد كبير من الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى ، ووصفوه وصفا دقيقا . ومن هؤلاء المؤرخ الجغرافى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد البناء الشامى المقدسى ، فقال : « قد رفعت قواعده بالحجارة ، وجعل عليها شرف بهية ، وجعلت أساطينه أعمدة سود على ثلاثة صفوف واسعة جدا . وفى الوسط ازاء المحراب قبة كبيرة ، وأدير على الصحن أروقة متعالية فوقها عقود صغيرة ، وقد بلط جميعه بالرخام ، وكسيت جدرانه الى ارتفاع قامتين بالرخام المجزع ، ثم الى السقف بالفسيفساء الملونة المذهبة ، وبها صور أشجار وأمصار وكتابات فى غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة .. وطليت

رءوس الأعمدة بالذهب . وعقود الأورقة وجدرانها كلها مرصعة بالفسيفساء . والشرافيات مكسوة من الوجهين بالفسيفساء ، والسطوح كلها مكسوة بالرصاص . وعلى المثمنة فى الصحن بيت مال على ثمانية عمد ، مرصعة حيطانه بالفسيفساء . وفى المحراب وحوله فصوص عقيقية وفيروزية كأكبر ما يكون من الفصوص ، وعلى الميسرة محراب آخر دون هذا ... وعلى رأس القبة أترجة فوقها رمانة كلتاهما ذهب » .

ثم يذكر الأبواب التى يدخل منها الداخلون الى الجامع فيقول : « ويدخل اليه العامة من أربعة أبواب : باب البريد عن اليمين كبير ، وهو مكون من ثلاث فتحات ، غشيت مصاريعها بالنحاس المذهب . وعلى الباب وجانبيه ثلاثة أروقة ، كل باب منها يفتح الى رواق طويل قد عقدت قناطره على أعمدة رخام ، وكسيت جدرانه بالرخام والفسيفساء . وجميع السقوف مزوقة أحسن تزويق . وفى هذه الأروقة موضع الوراقين ومجلس خليفة القاضى . وهذا الباب بين المغطى والصحن يقابله عن اليسار باب جيرون على ما ذكرنا . غير أن الأروقة معقودة بالعرض ، يصعد اليها فى درج يجلس فيه المنجمون وأضرابهم » .

ويشير اشارة سريعة الى باب الساعات فيقول : « وباب الساعات فى زاوية المغطى الشرقية عليه مصراعان ساذجان » .

وهذا الباب هو الذى وصفه الرحالة ابن فضل الله العمرى فى القرن الرابع عشر للميلاد ، وذكر أنه سمى كذلك نسبة الى ساعة مائية يعلم بها كل ساعة « تمضى عليها عصافير من نحاس وحية وغراب من نحاس أيضا ، فاذا تمت الساعة خرجت الحية ، وصفرت العصافير ، وصاح الغراب ، وسقطت حصاة فى الطست » .



رسم يبين جامع دمشق بصورته الحالية وترى فيه مآذنه الثلاثة

وقد شاهد ابن جبير هذا الباب من قبل ، ووصفه وصفا رائعا بقوله : « وعن يمين الخارج من باب جيرون ، فى جدار البلاط الذى أمامه ، غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر، قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدبيرا هندسيا ... فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمى بازيين مصورين من صفر ، قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما : أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثانى تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ، ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا . وعند وقوع البندقتين فى الطاستين يسمع لهما دوى ، وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لايزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها ، وتنقضى الساعات ثم تعود الى حالها الأول ...

« ولها بالليل تدبير آخر . وذلك أن فى القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتعترض فى كل دائرة

زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة ، مديرا ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت ، عم الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة أمامها شعاعها ، فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل ، وتحمر الدوائر كلها ... وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج الى موضعها ، وهى التى يسميها الناس المنجانة » .

وتشبه هذه الساعة ساعة يطلق عليها منجانة تقع على أحد جدران المدرسة البوعنانية بفاس ، وكانت مزودة بطاسات وكئوس من البرنز .

وقد زار جامع دمشق الرحالة الجغرافى أحمد ابن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه ، كما زاره ابراهيم بن أبى الليث الكاتب عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) ، ووصفه وصفا رائعا ويعد وصف ابن جبير للجامع أروع هذه الأوصاف تصويرا لحقيقة الجامع ، وهو وصف تفصيلى دقيق ، وذكر تخطيط الجامع فى قوله : « وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق الى الغرب ، سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة ، والخطوة ذراع ونصف . وقد قامت على ثمانية وستين عمودا منها أربع وخمسون سارية وثمانى أرجل جصية تتخللها ... » .

ثم يصف البلاط الأوسط وقبته فيقول : « وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم ، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة ، قد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب وأشكالا غريبة ، قائمة فى البلاط الأوسط تقل قبة الرصاص مع القبة التى تلى المحراب ... » .

ثم يصف المآذن الثلاث فيقول : « وللجامع ثلاث صوامع : واحدة فى الجانب الغربى ، وهى كالبرج المشيد تحتوى على مساكن متسعة وزوايا فسيحة راجعة كلها الى أغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير ، والبيت الأعلى منها كان معتكف أبى حامد الغزالى ... وثانية بالجانب الغربى على هذه الصفة ، وثالثة بالجانب الشمالى على الباب المعروف بباب الناطفيين » .

ويذكر بيت المال فيقول : « وفى الصحن ثلاث قباب : احداها فى الجانب الغربى منه ، وهى أكبرها ، وهى قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج ، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة كأنها الروضة حسنا ، وعليها قبة الرصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة ، يقال انها كانت مخزنا لمال الجامع ... وقبة أخرى صغيرة فى وسط الصحن ، مجوفة مثمنة من رخام قد ألصق أبدع الصاق ، قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام ، وتحتها شباك حديد مستدير وفى وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء الى علو ، فيرتفع وينثنى كأنه قضيب لجين يشره الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافا له واستحسانا ... » .

ويذكر ابن جبير أيضا ما أصاب الجامع من حريق فيقول . « وكان هذا الجامع المبارك ظاهرا وباطنا منزلا كله بالفصوص المذهبة ، مزخرفا بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة ، فأدركه الحريق مرتين ، فتهدم وجدد وذهب أكثر رخامه فاستحال رونقه ... »

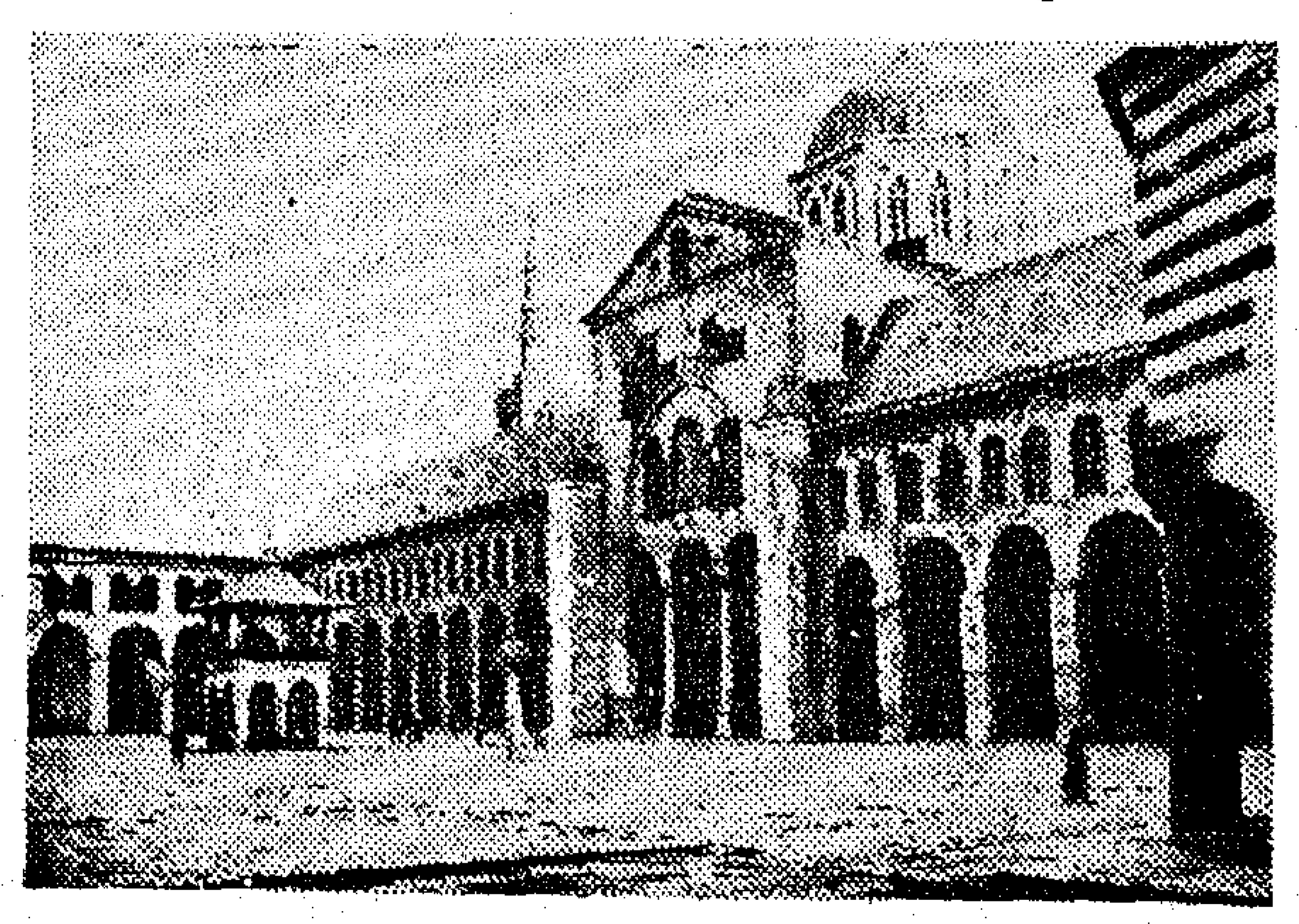
ويستمر ابن جبير فى وصف الجامع وصفا طويلا لا يترك فيه صغيرة أو كبيرة . ومن العجيب حقا أن يحتفظ جامع دمشق بمشهد رأس القديس يوحنا المعمدان ، وكان موجودا من قبل بالكنيسة المسماة باسمه . وقد زاره ابن جبير ووصفه قائلا : « ومن مشاهده المكرمة وآثاره المعظمة أولها

مشهد رأس يحيى بن زكرياء عليهما السلام ، وهو مدفون بالجامع المكرم فى البلاط القبلى قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية ... وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة ، وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف ... » .

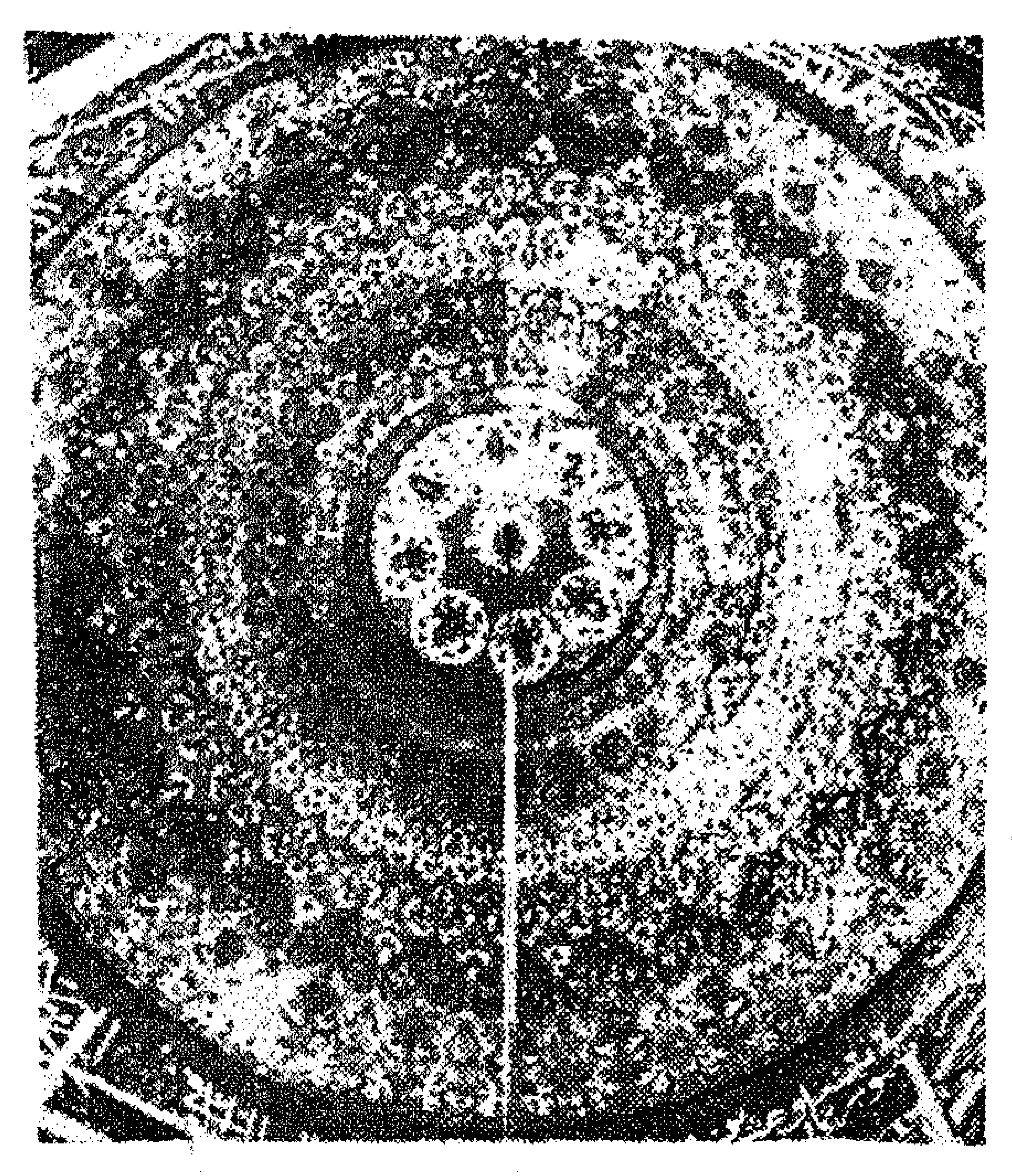
قبة الصخرة ببيت المقدس

تعد قبة الصحرة أروع العمائر الأموية فى بلاد الشام ، وتنفرد بين المساجد الاسلامية بتصميمها الغريب الذى يقربها من نظم الأضرحة المسيحية المثمنة أو المستديرة . وتشبه فى نظامها بعض الأبنية المسيحية المثمنة التى أقامها الامبراطور جستنيان فى ألطاكية ككنيسة العذراء .

وتقع قبة الصخرة فى وسط الحرم الشريف ببيت المقدس ، وكانت هذه البقعة موضع احترام اليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء . ويغلب على الظن أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الذى يرجع اليه الفضل فى انشائها ، كان يرمى من وراء ذلك الى غرض معين هو تعظيم الصحرة المقدسة ، واحاطتها بسياج يحفظها من عبث العابثين ... كما أنه أراد أن يقيم بناء ينافس الكنيسة المشهورة المجاورة لها والتى تحتفظ بالضريح المقدس . وقد يكون مهندس قبة الصحرة



صحن الجامع الاموى بدمشق وترى فيه واجهة بيت الصلاة

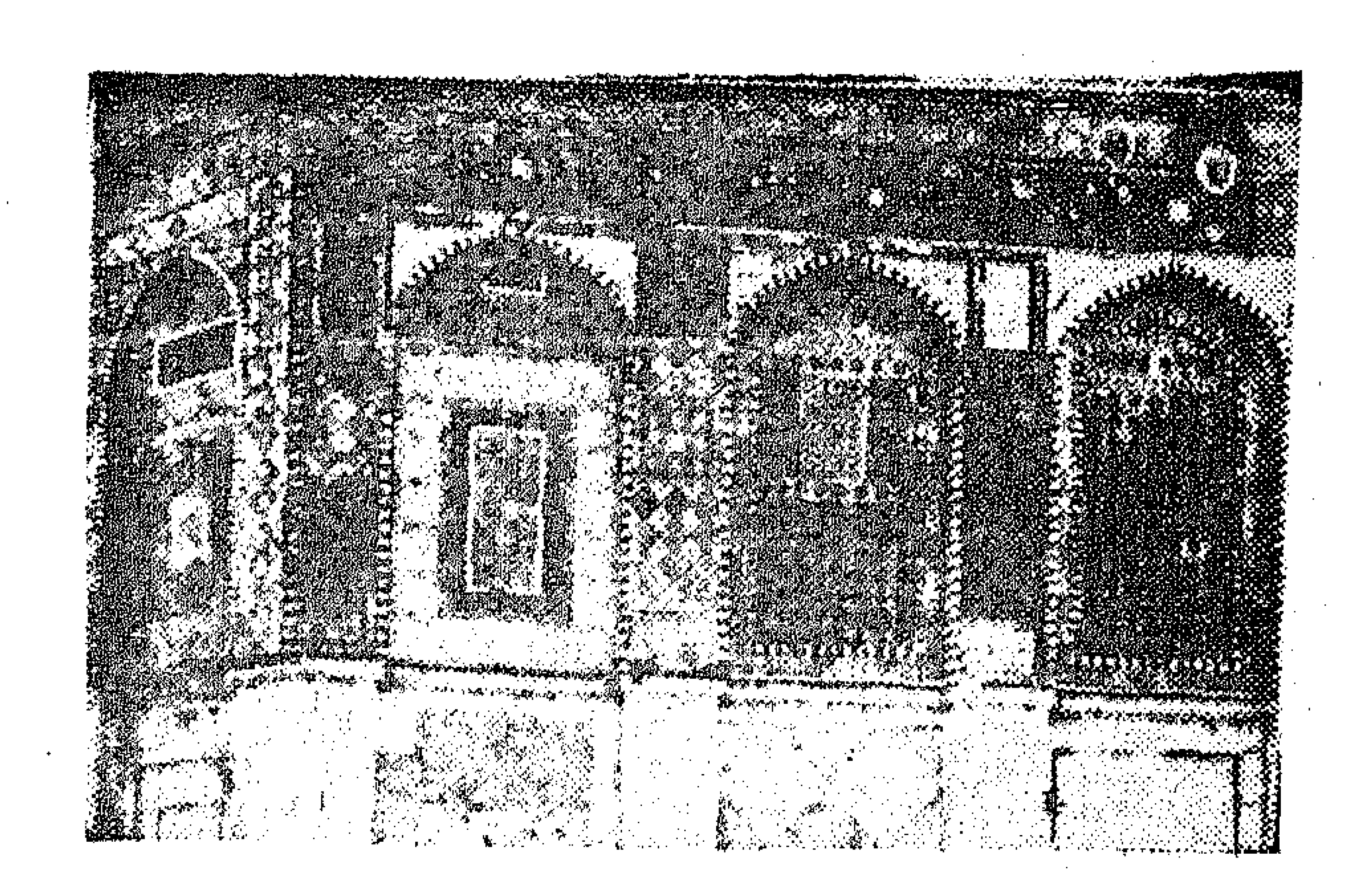


الجزء الداخلى .. قبة الصخرة ببيت المال

قد نقل تصميمها من قبة كنيسة القيامة التى تكاد تساويها حجما ، والتى تقع على مقربة منها . وبالغ مهندس القبة فى تنميق زخارفها ؛ وأسرف فى تزيينها بالفسيفساء وأنواع الفصوص .

شرع الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان فى بناء قبة الصحرة فى عام ٧١ هـ (٦٩٠ م) ، وأتم بناءها عام ٧٢ هـ ، واختار لبنائها أكثر المواضع ارتفاعا من ساحة الحرم الشريف ببيت المقدس ، وهو المكان الذى قيل ان ابراهيم عليه السلام افتدى فيه ابنه ، وهو المكان الذى صعد منه الرسول الى السماء على البراق ليلة الاسراء .

وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد أقام فى هذا الموضع مسجدا عند زيارته لبلاد الشام عام ١٦ هـ زمن الفتوح ، وأقيم بالفعل فى هذا الموضوع مصلى من الخشب سمى بمسجد عمر . فلما كانت أيام الخليفة الأموى عبد الملك بن مرون ، أمر بانشاء هذه القبة ، فسميت بقبة الصخرة نسبة الى



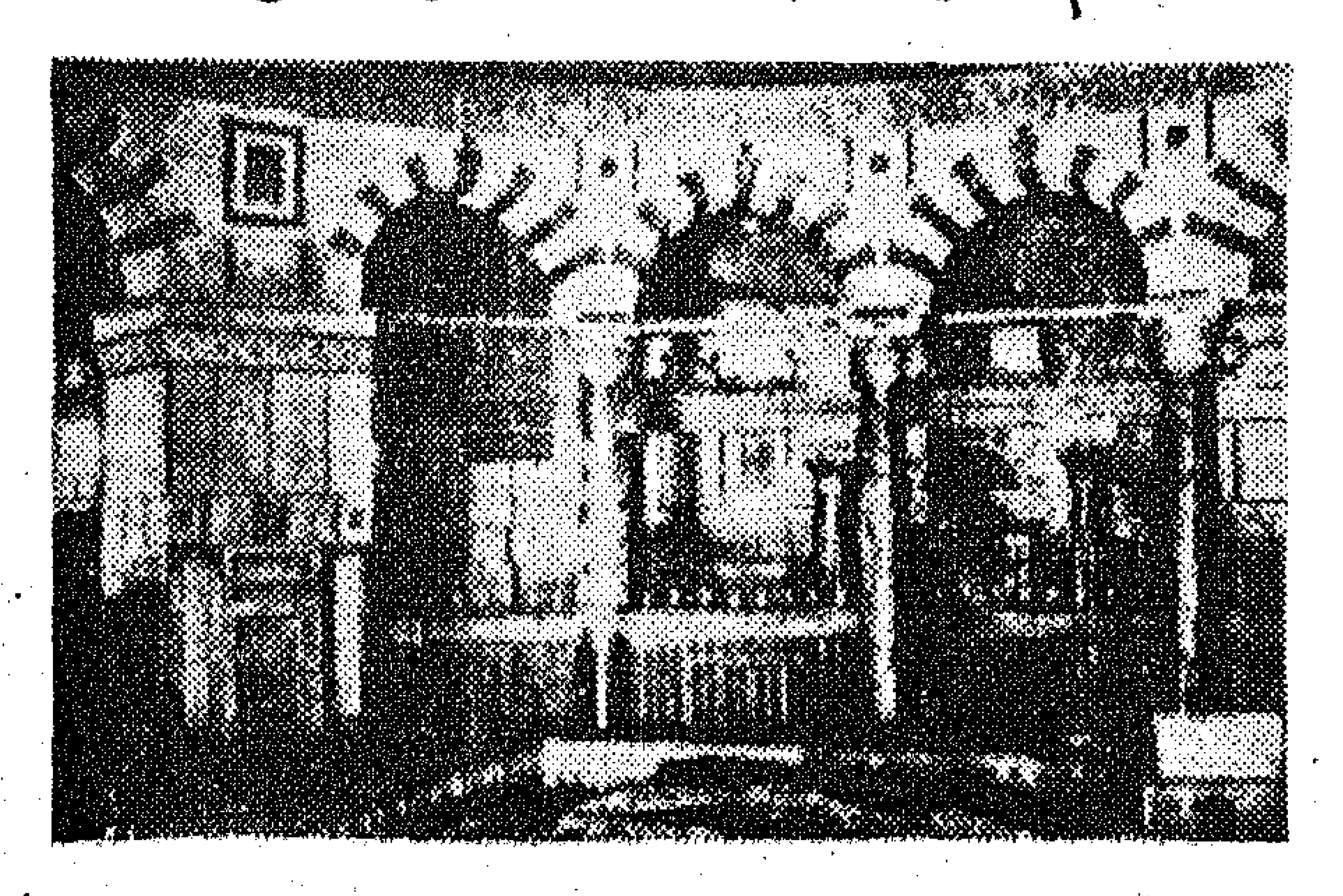
جانب من الجوانب الخارجية لقبة الصخرة

الصخرة المقدسة ، وأطلق عليها أحيانا اسم جامع عمر نسبة لجامع عمر الذى أقيمت قبة الصخرة على بقعته .

على أن بعض المؤرخين العرب يعللون بناء قبة الصخرة تعليلا لا يقبله المنطق . ويذكر اليعقوبى (المتوفى عام ٢٨٤ هـ) أن « عبد الملك منع أهل الشام من الحج ، وذلك أن عبد الله بن الزبير كان يأخذهم اذا حجوا بالبيعة ، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج الى مكة ، فضج الناس وقالوا : تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا ؟ فقال : هذا ابن شهاب الزهرى يحدثكم أن رسول الله قال : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى ، ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام المسجد» . وهذه الصخرة التى يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد الى السماء تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصخرة قبة ، وعلق عليها ستور الديباج ، وأقام لها سدنة ، وأخذ الناس يطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة » .

ونحن لا نرجح هذا التعليل لأن عبد الملك لا يمكن أن يقدم على تغيير شعائر الدين الاسلامى فيأمر بتحويل الحج عن الكعبة . ولكننا نعتقد أن الخليفة الأموى أراد أن يقيم بناء يعتز به الاسلام بين روائع العمارة المسيحية فى بلاد الشام . ولقد جاء بناء قبة الصخرة فى وقت كان الاسلام محتاجا فيه الى أبنية فخمة رائعة ليجارى الكنائس الرومانية العظيمة . وقد وفق الخليفة فى بنائها توفيقا تاما ، وتأنق فى زخرفتها تأنقا رائعا ، فكانت قبة الصخرة بحق تحفة اسلامية لجمالها وابداع زخارفها وبساطة تصميمها وتناسق أجزائها . وقد ظل تصميمها فريدا فى العمارة الاسلامية فى عصورها المختلفة ، لأن نظام المساجد لا يتفق على الاطلاق مع نظام البناء المثمن . وليس معنى هذا أن الاسلام لم يستخدم هذه الأبنية المثمنة ، فقد كانت هناك أبنية اسلامية ذات تصميم مركزى ، ولكن هذه الأبنية اتخذت لأغراض أخرى ، وكانت وقفا على الأضرحة .

وقبة الصخرة بناء حجرى مثمن ، طول ضلعه ٢٠ر٥٠ مترا ، تتوسطه قبة شديدة الارتفاع مصنوعة من الخشب ومغطاة من الخارج بطبقة من الرصاص ، ومكسوة من الداخل بطبقة جصية . وتقوم القبة على رقبة أسطوانية تنفتح فيها ١٦ نافذة ، وتتكىء هذه الرقبة على دائرة من العقود نصف دائرية ، وتقوم هذه العقود بدورها على دائرة من الأعمدة والدعائم ، وبين هذه الدائرة من العقود والمثمن الخارجى مثمن أوسط من الأعمدة والدعائم ، ويدور بين هاتين الدائرتين من الأعمدة



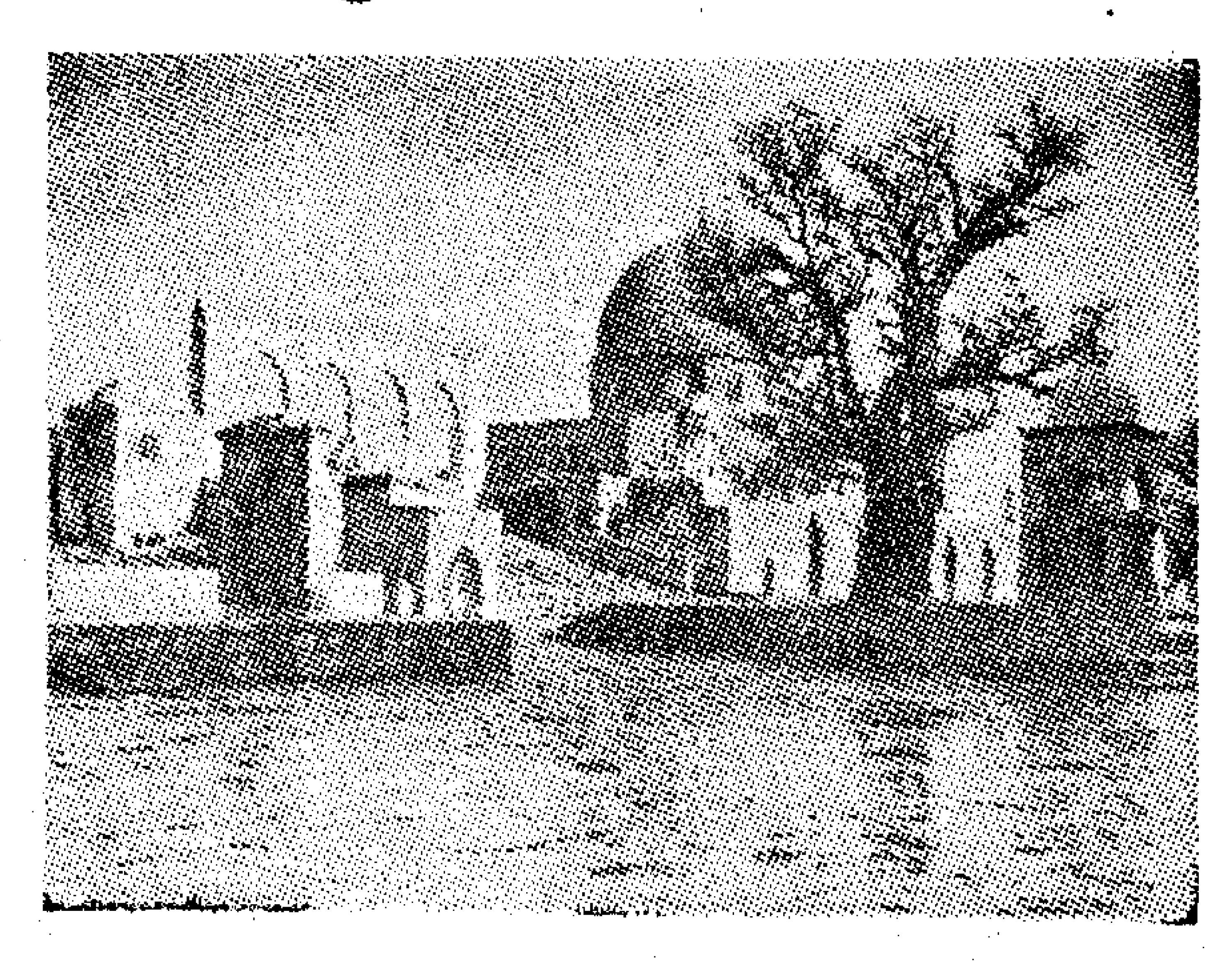
الصخرة وحولها العقود القائمة على العمد والدعائم

رواقان مخصصـــان للصلاة . ونلاحظ أن دائرة آعمدة القبة تحيط الصخرة .

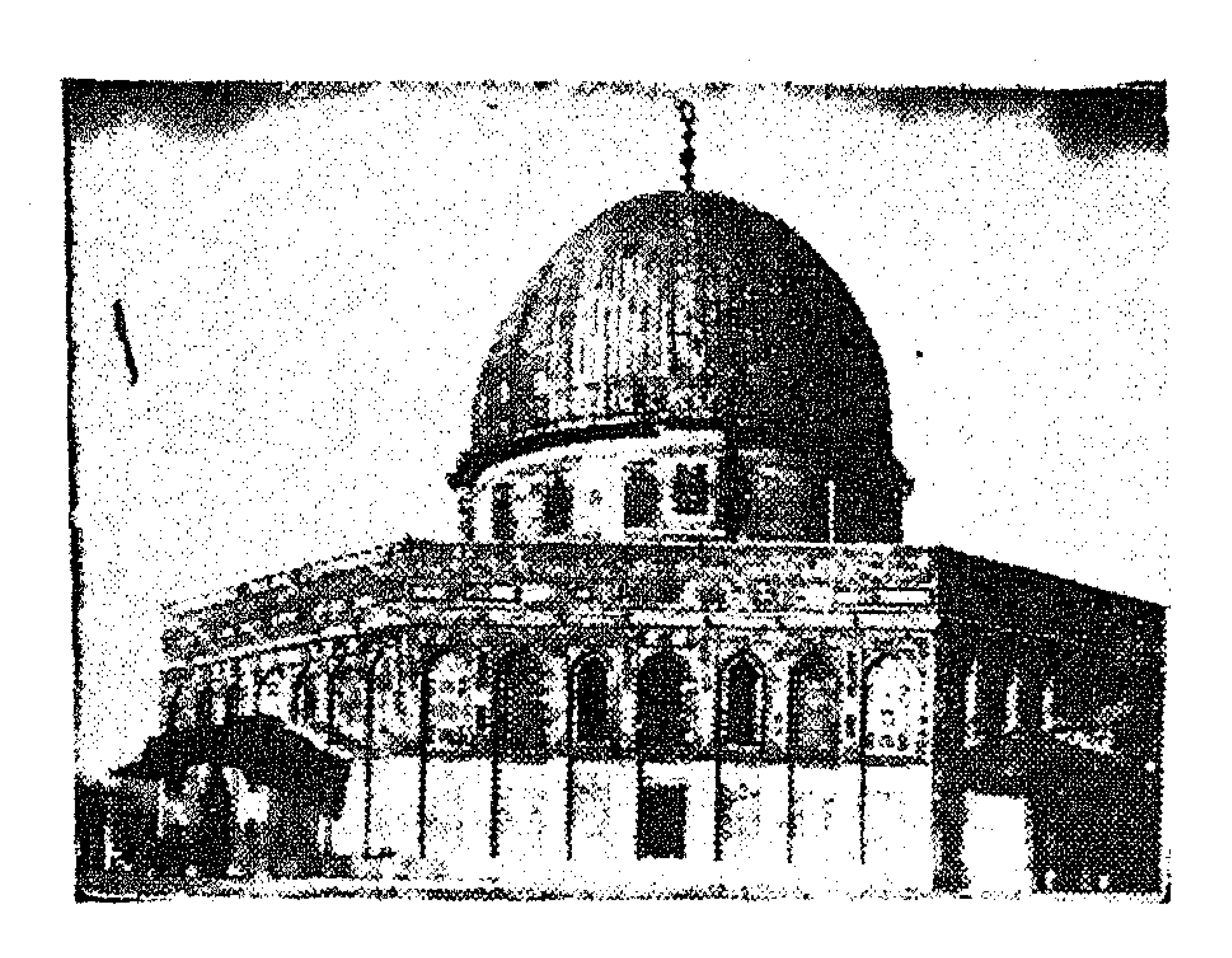
والصخرة قطعة من الصخر غير منتظمة ، طولها ١٨ مترا من الشمال الى الجنوب ، وعرضـــها ١٣ مترا من الشرق الى الغرب ، وأكثر أجزائها ارتفاعا لا يتجاوز مترا ونصف متر . وفى أسفلها غار كبير بداخله محراب صغير ، ويربط آبدان الأعمدة عند منتصفها سياج يفصل بين الأروقة والصـخرة . وترتبط تيجان الأعمدة فيما بينها بأوتار خشـبية تلافيا للضغط الناشيء من القبة .

وتزدان قبة الصخرة من الداخل بزخارف رائعة من الفسيسفاء تمثل مناظر الأشجار والأوانى التى تتفرع منها السيقان النباتية . وفى عنق القبة زخرفة من الفسيفســاء فيها نقش من الكتابة الكوفية ، مرســومة بالفصوص المذهبة على أرضية زرقاء اللون ، تتضمن بعض آيات قرآنية وعبارة تشير الى تاريخ بناء القبــة نصها : « بنى هذه القبة عبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين فى سنة اثنتين وسبعين » .

والخليفة المأمون الذى نطالعه فى هذا النص ، هو الخليفة العباسى عبـد الله المأمون بن هرون الرشـيد ، ولا يتفق عهده والتاريخ المذكور فى



الحرم الشريف ببيت المقدس



منظر عام لقبة الصخرة ببيت المقدس

النص ... ثم ان اسم الخليفة المأمون وألقابه مكتوبة بخط يختلف كل الاختلاف عن خط بقيـة النص الكتابى ، مما يقطع بأن هذا الاسم وضع فى عهد هذا الخليفة . ويبدو أن الخليفة المأمون قد أصلح القبة التى بناها عبد الملك عام ٧٢ هـ فمحا اسـم عبد الملك ، وكتب اسمه هو بدلا عنه ، ولكنه نسى أن يغير التاريخ ، وبقى التاريخ شـاهدا على بناء عبد الملك للقبة .

أما الجدران الخارجية لقبة الصـخرة ، فتبدو كمثمن طول كل ضلع من أضلاعه الثمانية ١٢ مترا ونصف متر ، وارتفاعه تسعة أمتار ونصف متر . ويزدان كل ضلع من هذه الأضلاع بسبع طاقات مستطيلة معقودة فى أعلاها ، نصفها الأدنى مغطى بتربيعات من الفسيفساء من عهد صلاح الدين ، ونصفها الأعلى تكسوه تشبيكات نافذة يتسـلل منها الضوء الى داخل الرواقين . وينفتح فى الطاقة الوسطى من الجهات الأربع الأصلية باب . وكانت جدران القبة مغطاة قديما بتربيعات الفسيفساء ، ولكن السلطان سليمان القانونى استبدل بهـذه التربيعات عام ٩٥٢ هـ (١٥٤٥ م) حشوات من الخزف الرائع .

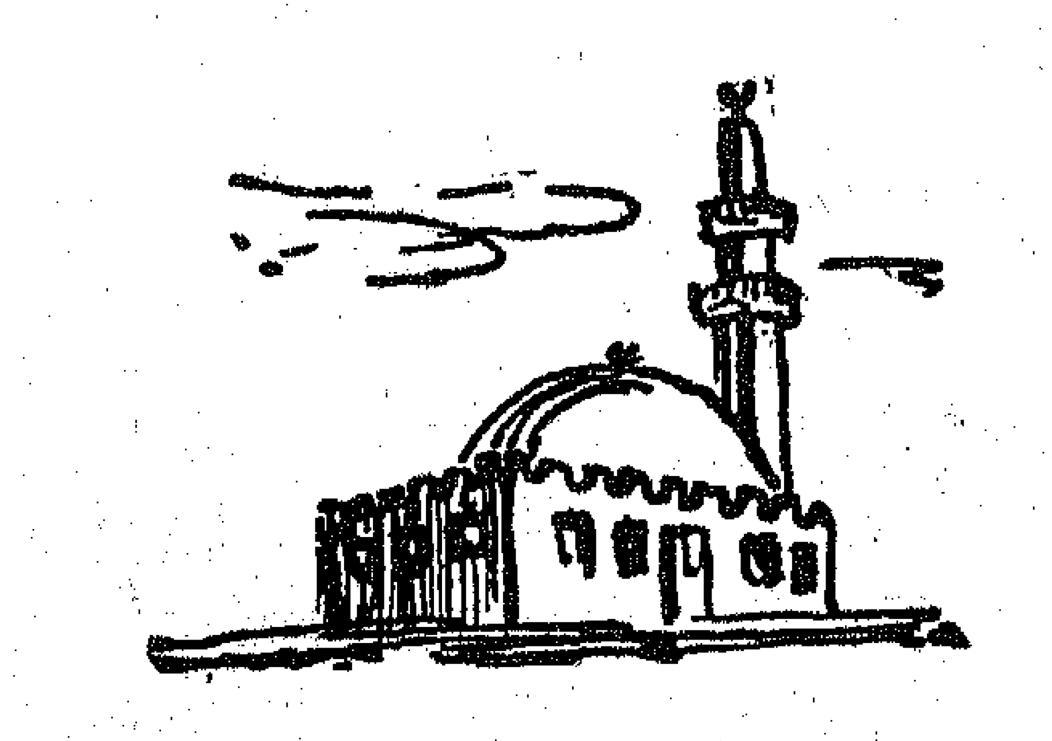
وقد زار هذه القبة الرحالة الفارسي ناصر خسرو في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة ، ووصفها وصفا رائعا فقال :

« قبة الصخرة بيت مثمن منظم ، كل ضلع من أضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون ذراعا ، وله أربعة أبواب على الجهات الأربع الأصلية : باب شرقي وآخر غربي، وثالث شمالي ، ورابع جنوبي . وبين كل بابين ضلع . وجميع الحوائط من الحجر المنحوت، وارتفاعها عشرون ذراعا . ومحيط الصخرة مائة ذراع ، وهي غير منتظمة ، لاهي مدورة ولامربعة ، ولكنها حجر غير منتظم كحجارة الجبل . وقد بنوا على جانب الصخرة الأربعة أربع دعائم مربعة ... بين كل دعامتين على الجوانب الأربعة عمودان أسطوانيان من الرخام بالارتفاع نفسه . وعلى قمة تلك الدعائم وهذه الأعمدة الاثنى عشر بنوا القبة التي تحتها الصخرة ، والتي يبلغ محيطها مائة وعشرين ذراعا . وبين حائط هذا البناء والدعائم والأعمدة ثماني دعائم أخرى مبنية من الحجارة المنحوتة . وبين كل اثنتين منها ثلاثة أعمدة من الرخام الملون على أبعاد متساوية بحيث يكون في الصف الأول عمودان بين كل دعامتين ، ويكون هناك ثلاثة أعمدة بين كل دعامتين ، وعلى تاج كل دعامة أربعة عقود ، على كل عقد طاق وعلى كل عمود عقدان فوق كل منهما طاق ...

« وهكذا يكون على العمود متكأ لطاقتين وعلى الدعامة متكأ لأربعة ... فكانت هذه القبة العظيمة في ذلك الوقت مرتكزة على هذه الدعائم الاثنى عشر المحيطة بالصخرة ، فتراها على بعد فرسخ كأنها قمة جبل لأنها من أساسها الى قمتها ثلاثون ذراعا . وهي تستند الى أعمدة ودعامات ارتفاعها عشرون ذراعا ...

« والصخرة أعلى من الأرض بمقدار قامة الرجل ، وقد أحيطت بسياج من الرخام حتى لا تصل يد اليها .. والصخرة حجر أزرق لونه ، لم يطأها أحد برجله أبدا .. وفي ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض كأن انسانا سار عليها ، فبدت آثار أصابع قدميه فيها كما تبدو على الطين الطرى . وقد بقيت عليها آثار سبع أقدام . وسمعت أن ابراهيم عليه السلام كان هناك ، وكان اسماعيل طفلا فمشى عليها ، وهذه آثار أقدامه » .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم



مساجد من العراق

جامع الكوفة

اختط سعد بن أبى وقاص مدينة الكوفة عام ١٧ هـ (٦٣٨ م) بعد أن افتتح المدائن ، حاضرة الدولة الساسانية ، وبدأ بتأسيس المسجد الجامع بالكوفة ، وأقام فيما يلى جدار القبلة دارا للامارة ملاصقة له . واختطت كل قبيلة خطة حول الجامع ، وأقيمت الأسواق فى ساحته . وكانت الكوفة على هذا النحو أشبه بقرية مبانيها ساذجة بسيطة .

ويروي البلاذري أن سعدا لما انتهى الى موضع الجامع « أمر رجلا فعلا بسهم قبل مهب القبلة فأعلم على موقعه ، ثم علا بسهم آخر قبل مهب الشمال وأعلم على موقعه ، ثمّ علا بسهم آخر قبل مهب الجنوب وأعلم على موقعه ، ثم علا بسهم قبل مهب الصبا فأعلم على موقعه ، ثم وضع مسجدها ودار امارتها فى قيام العالى وما حوله » ، أى أن سعدا حدد أطراف المربع الذى اتخذه شكل الجامع بأسهم أربعة .

وهكذا أقيم جامع الكوفة على قطعة من الأرض مربعة ، وجعل له ظلة من عروش النخل ، تقوم على أعمدة من الرخام ، أحضرت من بقايا القصور الفارسية فى الحيرة . ولم يكن لهذا الجامع الأول جدران خارجية تحيط به ، واستبدل بالجدران خندق محفور ، توضيحا لحدود الجامع ، حتى لا يقتحمها أحد ببنيان . وأقيمت أسقف المسجد فوق الأعمدة مباشرة ، دون أن ترتفع على هذه الأعمدة عقود مثل بقية المساجد .

ولم يكن لهذا الجامع الأول مجنبات تحيط بصحنه ، ولم يكن له محراب ولا منبر ولا مئذنة . لذلك جاءت عمارته ساذجة بدائية .

فلما ولى زياد بن أبيه البصرة والكوفة عام ٥٠ هـ (٦٧٠ م) فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، رأى اعادة بناء هذا المسجد الجامع ، فبعث فى احضار بعض عرفاء البنائين من فارس ، وشرع « زياد » فى تجديد بناء الجامع ، وجلب له الآجر ، وأساطين حجرية ، استقطعها من جبال الأهواز ، فكان العمود يتألف من أقراص مستديرة متراكبة ، وفرغ جوفها وصب فيه الرصاص ، ورفعت الأعمدة الى ارتفاع يبلغ ثلاثين ذراعا (أى ما يقرب من ثلاثة عشر مترا ونصف متر) ، وأقيمت الأسقف على هذه الأعمدة مباشرة ، دون أن ترتفع على عقود أو قسي ، وفى ذلك يقول الطبرى :

« ولما أراد زياد بنيانه ، دعا ببنائين من بنائى الجاهلية ، فوصف لهم موضع المسجد وقدره ، وما يشتهى من طوله فى السماء وقال : أشتهى من ذلك شيئا لا أقع على صفته [1] فقال له بناء (كان بناء لكسرى) : لا يجيء هذا الا بأساطين من جبال أهواز تنقر ثم تثقب ثم تحشى بالرصاص وبسفافيد الحديد فترفعه ثلاثين ذراعا فى السماء ثم تسقفه ».

وبنى الجامع على هذا النحو ، وأقيمت له مجنبات تحيط بالصحن ، وبلطت أرضيته بالحصى والملاط ، بعد أن كانت أرضا تربة مملوءة بالحصى والحجر .

(١) اى اريد بناء ليس له مثيل فى الاتقان والعظمة .

ويبدو أنه بلطها لسبب ، هو أنه عندما قدم الكوفة عام ٥٠ للهجرة قصد من فوره مسجدها الجامع فخطب خطبة مقتضبة لم يهدد فيها أهل الكوفة كما فعل فى البصرة ، ولكنه ترفق ، وأظهر لينا وتسامحا ومنها قوله : « ... ثم ذكرت أنكم أهل حق ، وأن حقكم طالما دفع الباطل ، فأتيتكم فى أهل بيتى ، فالحمد لله الذى رفع منى ما وضع الناس ، وحفظ منى ما ضيعوا » ، ولكنه ما كاد ينتهى من هذه الخطبة حتى حصبه أهالى الكوفة . واشتهر بذلك رجل من أصحاب الرسول هو حجر بن عدى، وقد ضرب به المثل فى ذلك .

ويبدو أن الجامع كان يتألف من خمسة بلاطات ، تفصلها فيما بينها صفوف من الأعمدة لا تعلوها عقود ، وكان يحيط بالصحن ثلاث مجنبات تشتمل كل منها على بلاطين . وقد وصف ابن جبير هذا الجامع عند زيارته للعراق عام ٥٨٠ هـ فقال :

« والجامع العتيق فى آخرها مما يلى شرقى البلد ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق ، وهو جامع كبير فى الجانب القبلى منه خمسة أبلطة ، وفى سائر الجوانب بلاطان . وهذه البلاطات على أعمدة من السوارى الموضوعة من صم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص ، ولا قسى عليها ، على الصفة التى ذكرناها فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى فى نهاية الطول متصلة بسقف المسجد ، فتحار العيون فى تفاوت ارتفاعها ، فما أرى فى الأرض مسجدا أطول أعمدة منه ولا أعلى سقفا . ولهذا الجامع المكرم آثار كريمة ، فمنها بيت بازاء المحراب عن يمين المستقبل للقبلة يقال انه كان مصلى ابراهيم الخليل وعليه ستر أسود صونا له ، ومنه يخرج الخطيب لابسا ثياب السواد للخطبة ... فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه . وعلى مقربة منه مما يلى الجانب الأيمن للقبلة محراب محلق عليه بأعواد الساج ، مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير ، وهو محراب أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه . وفى هذا الموضع ضربه الشقى اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف » .

وذكر ابن جبير أن بجوف الجامع (أى الجهة الشمالية منه) سقاية كبيرة من ماء الفرات فيها ثلاثة أحواض كبار لعلها كانت تستخدم للوضوء . ومن هذا الوصف نستنتج أن جامع الكوفة لم يتغير نظامه عما كان عليه أيام زياد بن أبيه .

وتقع خرائب الكوفة القديمة اليوم بين الكوفة الحديثة التى أقيمت منذ أيام يزيد بن عمر بن هبيرة والنجف . وتتألف هذه الخرائب من مرتفعات ممتدة كثيرة الحفرات والأخاديد ، كانت تستخدم حتى عهد قريب محاجر يستغلها الناس فى أبنيتهم ، وينتزعون من أطلال دورها وأبنيتها الأحجار وقوالب الآجر . وقامت مديرية الآثار العراقية عام ١٩٣٦ بعمل حفائر أثرية فى هذه الأطلال أسفرت عن كشف الجدار القبلى للمسجد الأول لصق آثار قصر الامارة المشيد بالآجر والجص . وفى هذا الجدار كشف عن غرفتين احداهما ذات ثلاثة مداخل ، منها مدخل معقود كان يدخل منه الأمير الى المسجد[1] . ويمكننا أن نتخيل ما كان عليه جامع الكوفة من آثار جامع واسط عاصمة العراق فى العصر الأموى ، الذى بناه الحجاج بن يوسف الثقفى عامل الخليفة عبد الملك بن مروان على غرار جامع الكوفة عام ٧٥ هـ . وجامع واسط بناء مربع ، جدرانه مبنية من الآجر والجص ، وبيت

(١) يغلب على الظن ان جدران جامع الكوفة كانت مزودة بركائز من الآجر نصف اسطوانية تتوزع بانتظام ، اذ ان قصر الامارة الملاصق للجامع ما زالت تقوم بجدرانه من الخارج ركائز على هذه الصورة . وهذه الطريقة كانت شائعة فى العمائر العراقية قبل الاسلام .

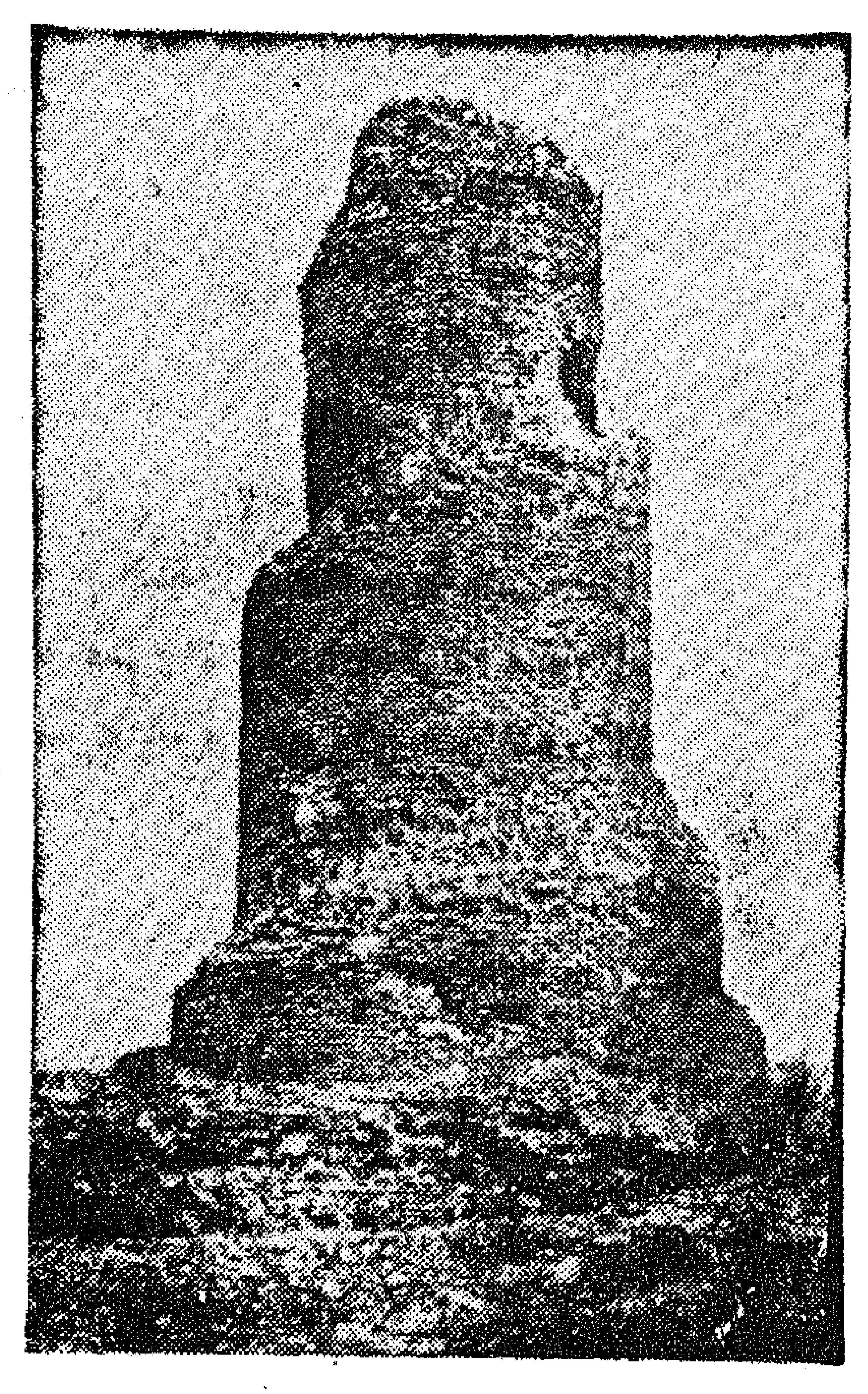
الصلاة فيه يتألف من خمسة بلاطات تمتد على تسعة عشر رواقا . ويحيط بصحن الجامع مجنبات ثلاثة . وكانت أعمدة المسجد سوارى مؤلفة من أقراص حجرية متراكبة تصل فى جوفها أصابع الحديد .

هذا وقد لعب جامع الكوفة دورا هاما فى الحضارة العراقية ... فكان مركزا من مراكز الحياة العامة : يجتمع فيه الناس ، وتذاع منه قرارات الدولة ، ويعلن منه الأمير سياسته الجديدة . كما كان لجامع الكوفة أثر عميق فى النهضة الأدبية والعلمية ، فكان الكميت الشاعر يقوم بالتدريس فيه ، وكان الشاعر نصيب بن رباح ينشد أشعاره فى الجامع . كذلك أمر عبد الملك بن مروان الأخطل بمدحه على منبر الكوفة .

المسجد الجامع وجامع ابى دلف بسامرا

أسست سامرا عام ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) فى عهد الخليفة المعتصم بالله ثامن خلفاء بنى العباس ، وقصة انشائها قصة عجيبة ، فقد اشترى الخليفة المأمون العباسي عددا كبيرا من الأتراك واستخدمهم فى جيشه . وجاء المعتصم من بعده فاعتمد على العنصر التركى ، واتخذ الأتراك حرسا له ، واستكثر منهم حتى أصبحوا يؤلفون غالبية الجيش العباسى ، وأسندت اليهم أرفع مناصب الدولة ، وضاقت بغداد بهم ، ونال الناس على أيديهم متاعب كثيرة ، فشكوا منهم الى الخليفة ، واضطروا الى قتل عدد كبير منهم . فثقل ذلك على المعتصم وفكر فى بناء مدينة تتسع لهم ويجعلها عاصمة له ، فأقام مدينة سامرا . وتقع سامرا شرقى نهر دجلة ، على بعد نحو ٦٠ مترا شمالى بغداد بالقرب من نهير القاطول الذى حفر مجراه زمن الرشيد .

ويذكر اليعقوبى أنه خرج يوما للصيد فمر فى



مئذنة جامع ابى دلف بسامرا

طريقه على صحراء لا عمارة فيها ولا أنيس الا ديرا للنصارى فتوقف بالدير ، وسأل من فيه من الرهبان عن اسم هذا المكان ، فقيل له انه سر من رأى ، وانه كان مدينة سام بن نوح ، وانه سيعمر على يدى ملك جليل مظفر ينزلها وينزلها ولده . فأصر المعتصم على بناء مدينته فى هذا الموضع ، واشترى الأرض من أصحاب الدير .

وجمع المعتصم لبناء مدينته أبرع البنائين ، وأرباب المهن وأصحاب الصناعات من سائر أنحاء العالم الأسلامى ، فخططوا الأراضى التى تقام عليها القصور . وأمر المعتصم بتخطيط القطائع لرجال الصناعة والفن ، وخصص لقواده الأتراك ورجال جيشه قطائع بعيدة عن الأسواق والخطط ، وأقام

قصر الجوسق وحاطه بالجنان والبحيرات . ثم أقام المسجد الجامع بسامرا وسط المدينة وأقيمت حوله الأسواق ، كل سوق خصصت لتجارة من التجارات أو صناعة من الصناعات . ثم شيد ابنه الواثق القصر الهاروني . وبنى المتوكل فيها قصر العروس وقصر بلكوارا والقصر المختار والقصر الوحيد بين عامى ٢٤٠ — ٢٤٥ هـ . وقد أورد ياقوت فى معجم البلدان أسماء سبعة عشر قصرا بنيت فى عهد المعتصم والمتوكل ، وذكر أن هذه المدينة لما عمرت سميت بسرور من رأى ، واختصر الاسم الى سر من رأى ، فلما خربت واستوحشت سميت ساء من رأى ، واختصرت الى سامرا . وأغلب الظن أن اسم سامرا مشتق من اسم (Castellum Sumere) أو حصن سومير .

وازدهرت سامرا زمنا فى عهد هذا الخليفة ... الا أن جعفر المتوكل أراد أن يؤسس مدينة تنسب اليه ، ويتخذها حاضرة لدولته ، فاختار موضعا يسمى الماحوزة يقع شمالى مدينة سامرا ، وأسس فيه مدينة سماها بالجعفرية نسبة اليه . وسميت أيضا بالمتوكلية . ويذكر الطبرى أن المتوكل أمر بهدم قصرى المختار والبديع بسامرا وحمل ما فيهما من خشب الساج لاستخدامه فى بناء قصره الجديد المسمى بالجعفرى .

وهكذا هجرت سامرا بانتقال المتوكل الى الجعفرية ، الى أن قتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ ، فنقل ابنه المنتصر العاصمة الى سامرا . عندئذ خربت الجعفرية وعادت سامرا الى الحياة ، وظلت حاضرة الدولة العباسية حتى عام ٢٧٦ هـ ، ولكن أهميتها ضعفت خلال هذه الفترة ، خاصة فى عهد المستعين والمعتز والمهتدى . ثم انتقلت العاصمة العباسية الى بغداد منذ عام ٢٧٦ هـ ، وكان هذا ايذانا بانهيار سامرا : فخربت قصورها ، وهدمت آثارها ، وأصبحت أطلالها الدارسة تثير الأسى فى نفوس الناس ، حتى أطلقوا عليها اسم ساء من رأى ، واختصر الى سامرا . وقد شاهد ابن جبير فى رحلته بالعراق أطلال المدينة فقال : « وهى اليوم عبرة من رأى ، أين معتصمها وواثقها ومتوكلها ؟ مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها الا بعض جهات منها ، وهى اليوم معمورة » .

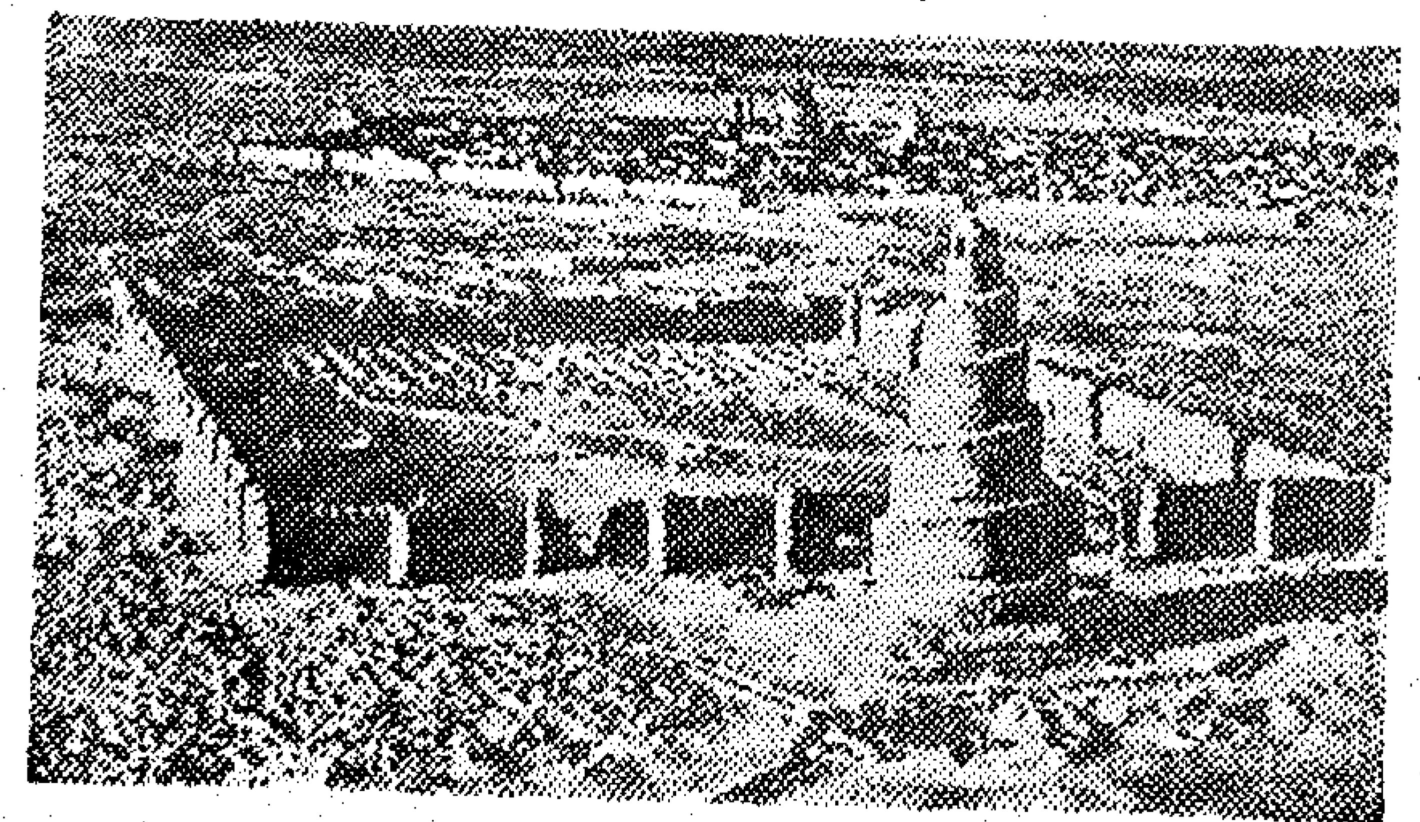
وقد بقيت فى سامرا اليوم آثار جامعين جليلين : المسجد الجامع ، وجامع أبى دلف بالجعفرية . وقد اهتمت دائرة الآثار القديمة بالعراق بترميم هذين الجامعين ، ورفع الأنقاض التى كانت قد دفنت قاعدتى مئذنتيهما ، بحيث أعيدت هاتان المئذنتان الى مثل حالتهما الأولى .

ويذكر اليعقوبى أن المتوكل أقام جامع سامرا عام ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) ، وأقام فى صحنه نافورة ، وخطط ثلاثة طرق فسيحة عرض كل منها خمسون مترا ، تدور بالمسجد تسهيلا لدخول المصلين ، وجعل فى كل طريق منها سوقا ، ثم أحاط الجامع بساحة فسيحة . ولم يتبق من هذا الجامع اليوم سوى جدرانه الخارجية ومئذنته . والبناء كله من الآجر الجيد المحروق فى الأفران . ويبلغ طول جدار المسجد ٢٤٠ مترا وعرضه ١٥٨ مترا ومساحة مسطحه ٣٨ ألف متر مربع ، وهى أكبر من مساحة جامع قرطبة وجامع عمرو . ويدعم جدران الجامع الخارجية أبراج أسطوانية فى الأركان الأربعة ، تتوزع بينها أبراج نصف أسطوانية ، ويتخلل الجدار القبلى صف من نوافذ صغيرة رءوسها على هيئة عقود من خمسة فصوص تحيط بها طرر مستطيلة . ونلاحظ أن هذه الأبراج صماء وظيفتها أشبه بوظيفة الركائز الداعمة لجدران القصور والمساجد . وتبعد هذه الأبراج عن الجدار نحو

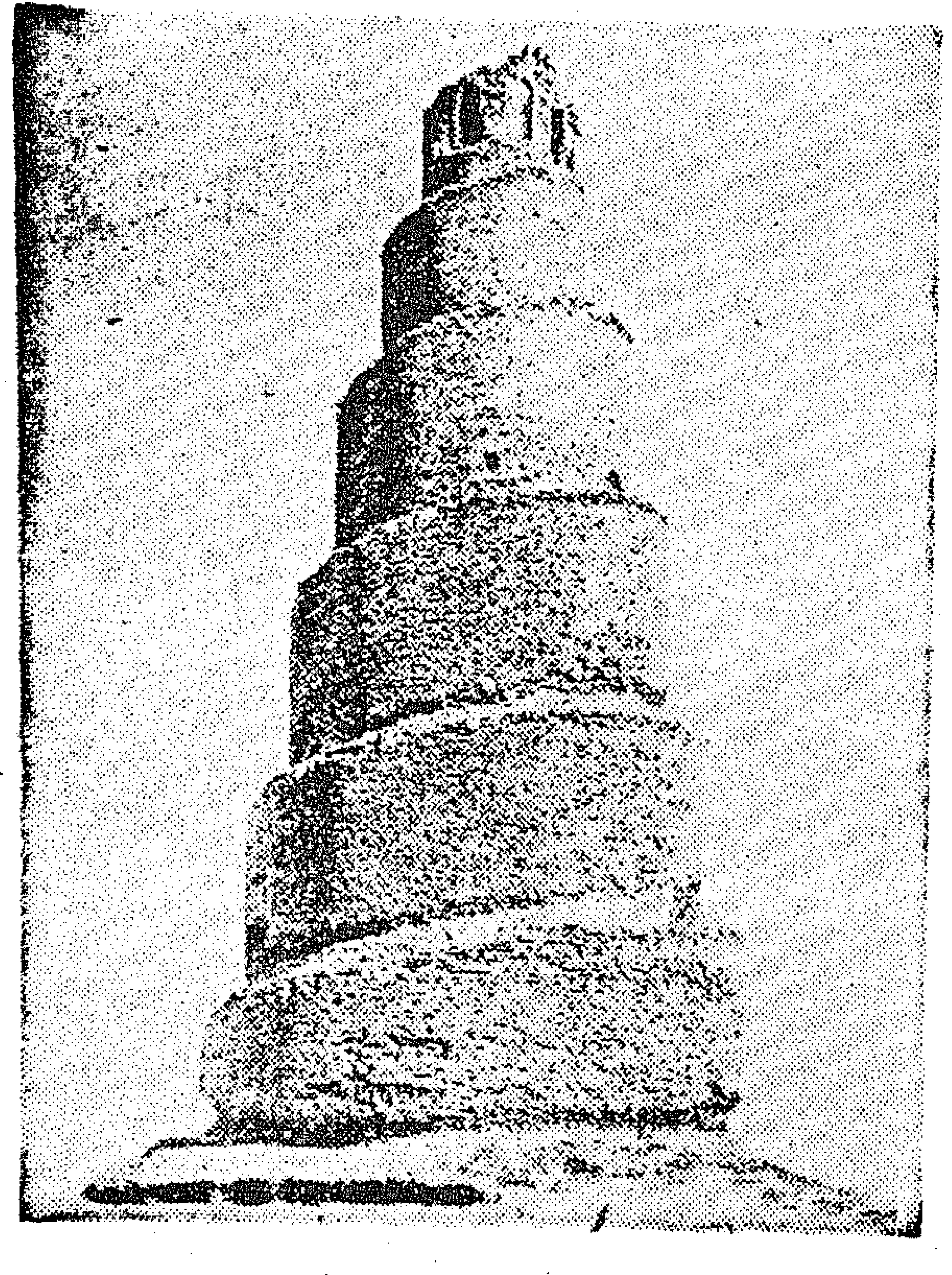
مترين ، ويبلغ قطر كل برج منها نحو أربعة أمتار ونصف متر .

وكان بيت الصلاة يشتمل على تسعة بلاطات تفصلها فيما بينها صفوف من دعائم ضخمة مثمنة ، مبنية بالآجر ، وتقوم على قواعد مربعة ، وتلتصق بهذه الدعائم أربعة أعمدة من الرخام مستديرة أو مثمنة تيجانها على هيئة الناقوس ، وتعلو الدعائم مباشرة أسقف خشبية مسطحة . ويشبه جامع سامرا فى ذلك جامع الكوفة وجامع بغداد . ويبدو أن هذه الدعائم كانت تزدان بكسوة من الجص نقشت فيها زخارف نباتية أقرب ما تكون الى الزخارف الهندسية . ويذكر المقدسى أنها كانت مغطاة بزخرفة من المينا . وقد فسر مؤرخو الفن هذه الكلمة بأنها فسيفساء من الزجاج . وأكد هرتسفلد أنها من عمل صناع الزجاج الذين أحضرهم المعتصم من البصرة ، وقد أثبتت الحفائر التى أجراها عام ١٩١٠ صدق رأيه ، اذ عثر على بقايا قطع من الفسيفساء المزججة .

وكانت تحيط بالصحن ثلاث مجنبات ، تشتمل المجنبتان الشرقية والغربية منها على رواقين ، بينما تشتمل المجنبة الشمالية على ثلاثة أروقة تفصل بينها صفوف من الدعائم المثمنة . وأثبتت حفائر هرتسفلد مكان المحراب ، ولم تكن جوفته مستديرة وانما كانت مستطيلة ، طولها متران و ٥٩ سنتيمترا وعرضها ١٫٧٥ م . وكان يحف بها زوجان من



منظر عام للمسجد الجامع بسامرا



مئذنة جامع سامرا

الأعمدة الرخامية . وينفتح فى جدار القبلة الى يمين المحراب ويساره فتحتان كانتا تؤديان الى غرف متصلة لصق الجامع .

وأهم ما يستلفت النظر فى خرائب هذا الجامع مئذنته الملوية ، وتقع على بعد ٢٥ مترا خارج الجدار الشمالى للجامع وفى محور الباب الأوسط . وهى مئذنة محروطية ، بوجه عام ، تقوم على قاعدة مربعة طول ضلعها ٣٢ مترا ، ويصعد الى أعلاها عن طريق صاعد أو أحدور سطحه مائل عريض (يبلغ عرضه ٢٫٥ متر) ، يدور حول بدنها من الخارج خمس مرات دورانا لولبيا ، وفى كل دورة يضيق قطر أسطوانة كل طابق .

وتنتهى المئذنة من أعلى ببناء أسطوانى ، طول قطره ستة أمتار وارتفاعه ستة أمتار . ويبلغ ارتفاع المئذنة من القاعدة حتى القمة اثنين وخمسين مترا . ويبدأ الأحدور اللولبى الذى يدور حول

بدن المئذنة ، موصلا الى القمة ، من وسط الضلع القبلى للقاعدة ، أى قبالة الباب الشمالى للجامع . وينتهى هذا الأحدور الى باب ينفتح فى وسط الجزء الجنوبى من الطابق الأسطوانى الأعلى الذى يتوج المئذنة .

وهذا الطابق يشتمل على غرفة صغيرة يبلغ ارتفاعها ستة أمتار ، ويزدان جدارها الدائرى بثمانى طاقات مقعرة صغيرة تعلوها عقود منفوخة مدببة تقوم على أعمدة صغيرة من الآجر ، وتقوم احدى هذه الطاقات مقام المدخل ، ويدور حول محور هذه الغرفة من الداخل درج لولبى يصل الى أعلى المئذنة . ولما كانت قاعدة المئذنة مطمورة فى باطن الأرض فقد ظن أن الأحدور اللولبى يبدأ من سطح الأرض ، الا أن أعمال الترميم كشفت عن بداية هذا الأحدور ، وأتاحت لنا تنظيف القاعدة المربعة ، بعد أن أزيل ما كان يغطيها من أتربة وأنقاض . ويبدو أنه كان يحيط بهذا الأحدور اللولبى سياج خشبى مثبت فى جدران المئذنة وذلك لوجود فتحات كان يثبت فيها .

ونستطيع أن نشاهد فى وسط الصحن آثار نافورة ذكر اليعقوبى أن مياهها كانت لا تفتر عن الجريان . وكانت هذه النافورة تنتصب على حوض مستدير من الحجر ارتفاعه سبع أذرع أطلق عليه اسم كأس فرعون . وقد كشفت الحفائر الأثرية التى أجراها هرتسفلد أنه لم يبق من النافورة سوى الأساس الأسطوانى للحوض وهو مصنوع من الآجر . وعثر فوق هذا الأساس الأسطوانى على أجزاء من أبدان أعمدة من الرخام وأجزاء من التيجان الجصية الملونة والمزينة بقطع من الزجاج المذهب ، مما يجعلنا نعتقد أن هذه النافورة كانت تتألف من دائرة من الأعمدة تحيط بكأس فرعون المذكور ، ويعلوها جوسق خشبى .

أما جامع أبى دلف فقد بناه المتوكل عام ٢٤٦ هـ (٨٦١ م) فى مدينة الجعفرية ، وقد تبقى من هذا الجامع بعض عقود بلاطاته وبعض الدعائم المستطيلة ، كما تبقى جزء من جداره الخارجى ، ويشبه جدار جامع سامرا . وأهم ما تبقى من هذا الجامع مئذنته التى تشبه شبها تاما مئذنة جامع سامرا شكلا وبناء ، وان كانت أصغر منها حجما .

وترتفع مئذنة جامع أبى دلف على بعد تسعة أمتار ونصف متر خارج الجدار الشمالى للجامع ، فى محور الباب الأوسط الذى ينفتح فى هذا الجدار . وقاعدة هذه المئذنة تكاد تكون مربعة طول جانبيها الشمالى والجنوبى ١٠ر٨٥ أمتار والشرقى والغربى ١٠ر١٠ أمتار ، وتعلو هذه القاعدة عن مستوى سطح الأرض نحو مترين و ٧٠ سنتيمترا ، وفى كل وجه من أوجهها الشمالى والشرقى والغربى ثلاث عشرة طاقة ، وبالوجه الجنوبى عشر طاقات ، وذلك لتوسط مدخل الأحدور فى هذا الوجه . ويصعد هذا الأحدور اللولبى دائرا حول المئذنة ثلاث دورات الى ارتفاع ١٦ مترا ، وعرض هذا الأحدور لا يتجاوز المتر ولا شك أن مهندس هاتين المئذنتين واحد ، وأغلب الظن أنه فارسى الأصل ، وأنه اقتبس صورة المئذنة من الزيجورات البابلية ، وان كان تصميم هذه الزيجورات مربعا أو مستطيلا فى معظم ما وصل الينا من أمثلة .

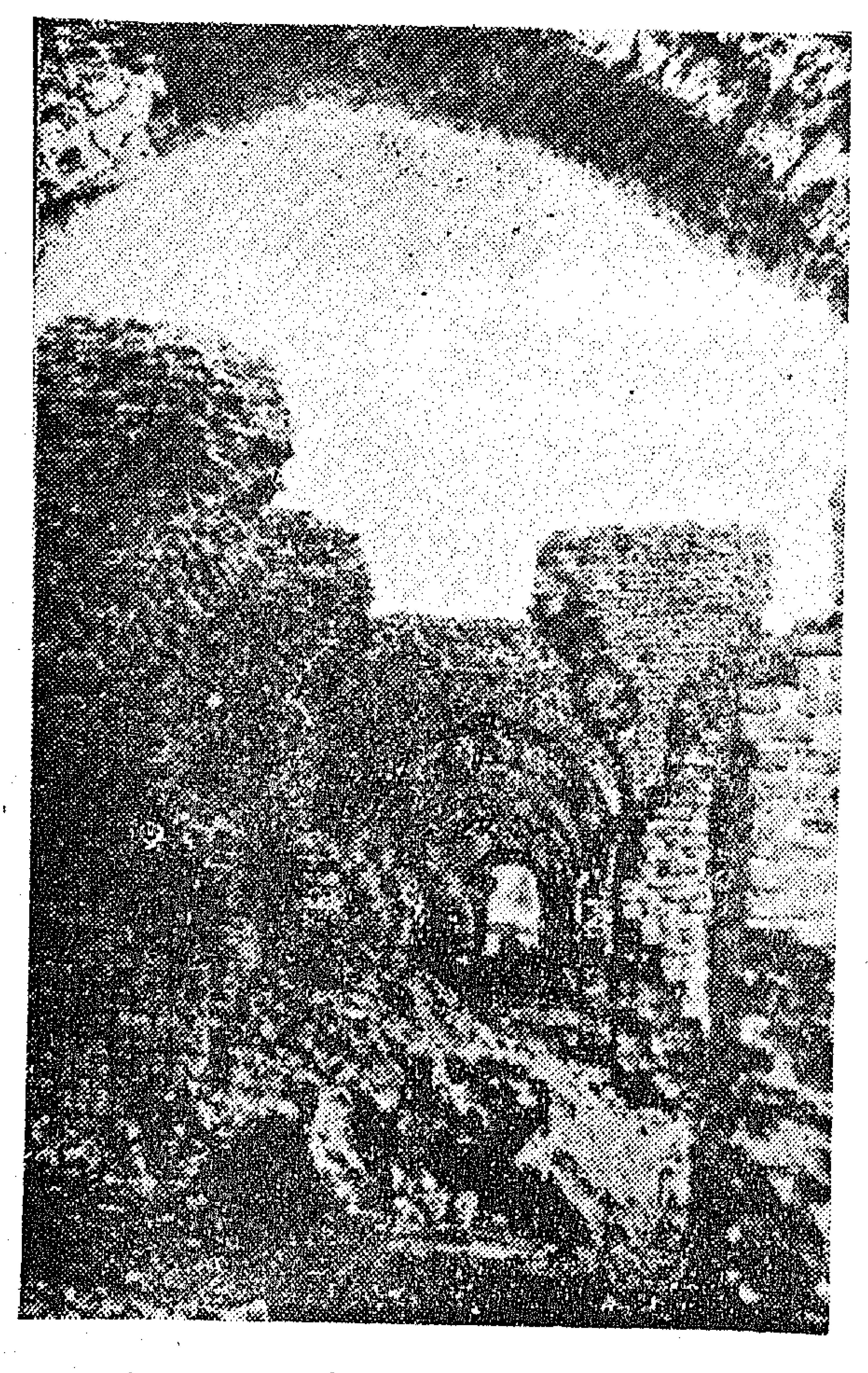
ويرى الأستاذ كريسويل أن هذين الجامعين كانت تحيط بهما من الخارج جدران أخرى من الجهات الشرقية والغربية والشمالية مؤلفة زيادات للمسجد كما هو الحال فى زيادات جامع ابن طولون بالقطائع ، ولعلها الطرق الثلاثة التى ذكرها اليعقوبى فيما سبق . وكانت كل من المئذنتين تقع فى جدار الزيادة الشمالية بين الجدار الشمالى للجامع وجدار الزيادة ، وكانت قاعدة المئذنة تتصل بالمسجد عن

طريق قنطرة ، وهو النظام ذاته الذى نراه فى جامع ابن طولون .

وتعد مئذنتا سامرا الأنموذج الذى احتذاه مهندس أحمد بن طولون فى بناء مئذنته عام ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) . وتقع مئذنة ابن طولون — شأنها فى ذلك شأن مئذنتى سامرا — فى منتصف الزيادة الشمالية للجامع فى محور القبلة . ويبدو أن أحمد ابن طولون طبق طراز مئذنتى سامرا على مئذنته بالقطائع لتأثره بهما فى حياته الأولى بهذه المدينة . وتتألف مئذنة ابن طولون من قاعدة مربعة تقوم عليها ساق أسطوانية ، يلتف حولها درج دائرى عرضه ٩٠ سم ، له سياج دائرى كذلك . ولكن ثبت أن بناء هذه المئذنة أعيد من جديد على يدى السلطان حسام الدين لاشين عام ١٢٩٦ م ، فقد تعرضت مئذنة ابن طولون منذ أن أحرقت الجيوش العباسية مدينة القطائع لأضرار جسيمة . فلما احتمى حسام الدين لاشين فى خرائب الجامع نذر أن يعمره ويقف عليه الأوقاف اذا من الله عليه بالخلاص ، فلما تحققت أمنيته واعتلى السلطنة عام ٦٩٦ هـ (١٣٩٦ م) أوفى بنذره ، وأعاد بناء المئذنة من جديد على الصورة التى كانت عليها .

المدرسة المستنصرية ببغداد

ذكرنا عند الحديث عن مدارس المغرب كيف ظهر نظام المدارس أول الأمر فى خراسان ، وكيف انتشر فى عصر السلاجقة على يدى نظام الملك الذى شيد المدارس العظيمة فى نيسابور ومرو وبغداد [1] لتعليم المذاهب السنية ، وعلى الأخص المذهب الشافعى . وذكرنا كذلك أن الخليفة المستنصر بالله ابن الظاهر



بعض عقود بيت الصلاة بجامع أبى دلف بسامرا

أنشأ بين عامى ٦٢٥—٦٣١ هـ (١٢٢٧ — ١٢٣٣ م) مدرسة ببغداد خصصها للمذاهب الأربعة .

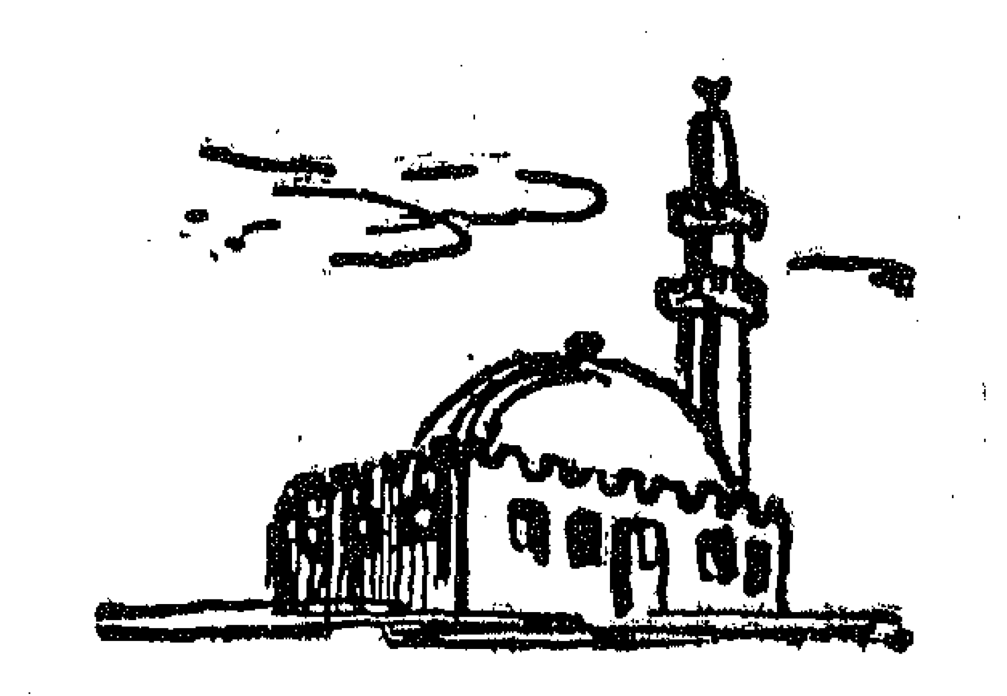
وقد وصف الرحالة ابن بطوطة هذه المدرسة عند زيارته لبغداد فقال : « وبها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس . وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط . ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتمًا ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه . وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة . وفى داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء » . وقد وصلت الينا بقايا هذه المدرسة فى حالة من السوء يرثى لها بسبب الاهمال الشديد الذى تعرضت له ، والأضرار

(١) أقام نظام الملك فى بغداد مدرسة تعرف بالمدرسة النظامية .

الجسيمة التى لحقتها طوال القرون الستة الأخيرة . فلقد تهدمت بعض جدرانها وسدت بعض مداخلها وفتحت بها مداخل أخرى ثم استخدمت بعد ذلك لأغراض حكومية ، فقامت دائرة الآثار العراقيــة بترميمها عام ١٩٤٦ حتى أعيد اليها مظهرها القديم بفضل جهود علماء الآثار الغربيين .

وتتألف المدرسة من صحن مستطيل ، يتوسط كل جانب من جوانبــه الأربعــة ايوان كبــير يبلغ عرضه نحو ستة أمتار ، ويعادل ارتفاعه ارتفاع طابقى الغرف . ويحف بهــذا الايوان من جانبى الصحن الكبيرين قاعتان للدرس ، وتتوزع بين هذه الايوانات والقاعات غرف للطلبة على طابقين . وجميع هــذه القاعات والغرف والايوانات مفتوحة على الصحن ، وعقودها من النوع الفارسى . ويعلو كل ايوان أو قاعة ثلاثة عقود فارسية متدرجة الارتفاع والبروز ، يحيط بهــا اطار مستطيل . أما عقود الغرف فصغيرة تزدان بنيقاتها بزخرفة من التوريقات الرائعة المحفورة فى الآجر ، وهو المادة التى بنيت منها المدرسة ، وينفصل كل عقــد عن الآخر كتف ضخم . وتتكون الزخارف من تلاصق قطع صغيرة من الآجر تؤلف الزخرفة ببنيقات العقود .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم



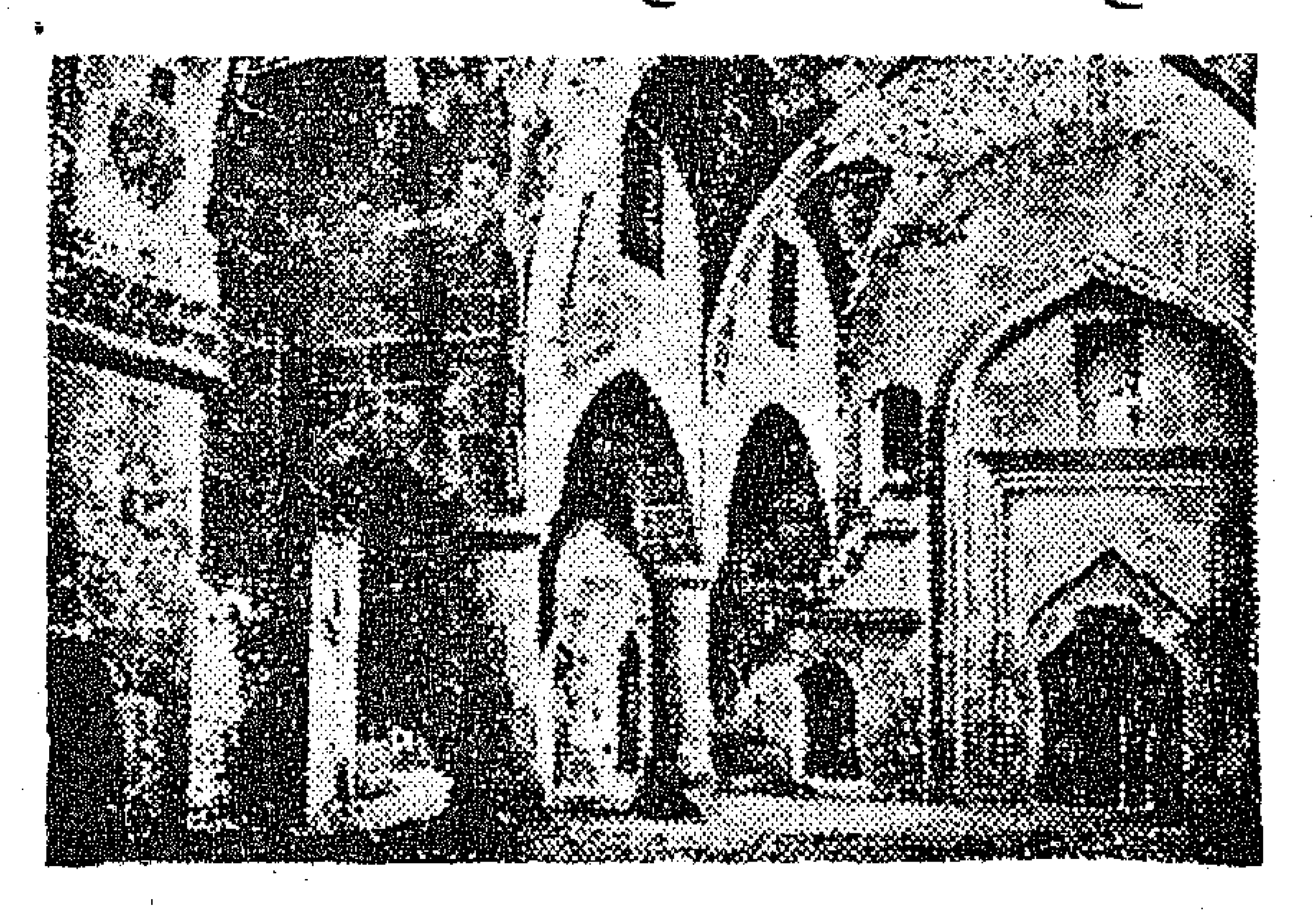
مساجد من تركيا

مسجد ديوريكي ومدرسته

يعد هذا الجامع من أهم الآثار السلجوقية فى الأناضول ، وتاريخ بنائه مسجل فى ثلاثة نقوش كتابية تشير الى أنه تم عام ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) . ولقد قام ببناء هذا المسجد أحد بنائى أرمينيا ممن دخلوا فى خدمة السلطان السلجوقى ، ولذلك جاء تصميم هذا المسجد أقرب الى النظام البازيليكى منه الى نظام المساجد . ولم يحتفظ الجامع بصحن وهو أحد العناصر الرئيسية بالمساجد . ويكفى لبيان مدى تأثر بناء هذا الجامع بعمارة البازيليكيات أن احدى بواباته لا ينقصها سوى تماثيل القديسين العامدة حتى تصبح بوابة من الطراز القوطى ... وتؤدى هذه البوابة الى قاعة طولها ٤٠ مترا وعرضها ٣٠ مترا ، تنقسم الى خمسة بلاطات تفصلها أربعة صفوف من الدعائم . وتقع المدرسة خلف جدار المحراب ، وبناؤها من طراز بناء الجامع .

وتعلو جميع أروقة الجامع والمدرسة قبوات . وأكثر ما يلفت النظر فى هذا الجامع زخارفه التى توحى بثراء لا ذوق فيه ولا جمال ... لأن الزخرفة لاتخضع هنا لقواعد أو مقاييس ، وانما طبقت على البناء أو علقت فيه كما تعلق محتويات الحانوت ، ووزعت بغير ترتيب على الجدران مما يدل على عدم وجود أى علاقة بين الزخرفة والخطوط العضوية للتكوين .

وتتجلى فى زخارف جامع ديوريكى بعض موضوعات لا تمت للفن الاسلامى بصلة ، مثل النسر ذى الرأسين ، وبعض الصور ذات الطابع الأسطورى التى تذكرنا بنظائر لها فى الفن الحيثى القديم ، ومع ذلك فان بجامع ديوريكى بعض أجزاء أقل تأثرا بالفن الأرمينى ... فهناك بوابتان نطالع فى زخارفهما أسلوبا أقرب ما يكون الى الأسلوب السورى ، فتوزيع الزخارف فيهما أفضل ، وتتفق فى مجموعها مع الخطوط المعمارية . وأروع أجزاء هذا الجامع مدرسته التى لا يفصلها



قاعة التدريس بجامع ديوريكى بتركيا

عن المحراب سوى جدار القبلة ، وهى بناء ضخم بسيط الزخرفة تدل الكتل الضخمة التى تتكون منها الجدران والقبوات على المجهود المعمارى الهائل الذى بذله المهندس فى بنائه . وتبدو هذه المدرسة لأول وهلة بعقودها المدببة وقبواتها المصلبة كما لو كانت بناء قوطيا .

مدرسة صيرت جالى بقونية

كانت قونية عاصمة دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، لذلك اهتم سلاطين السلاجقة — وعلى الأخص علاء الدين أبو الفتح كيخسرو بن كيقباد برهان —

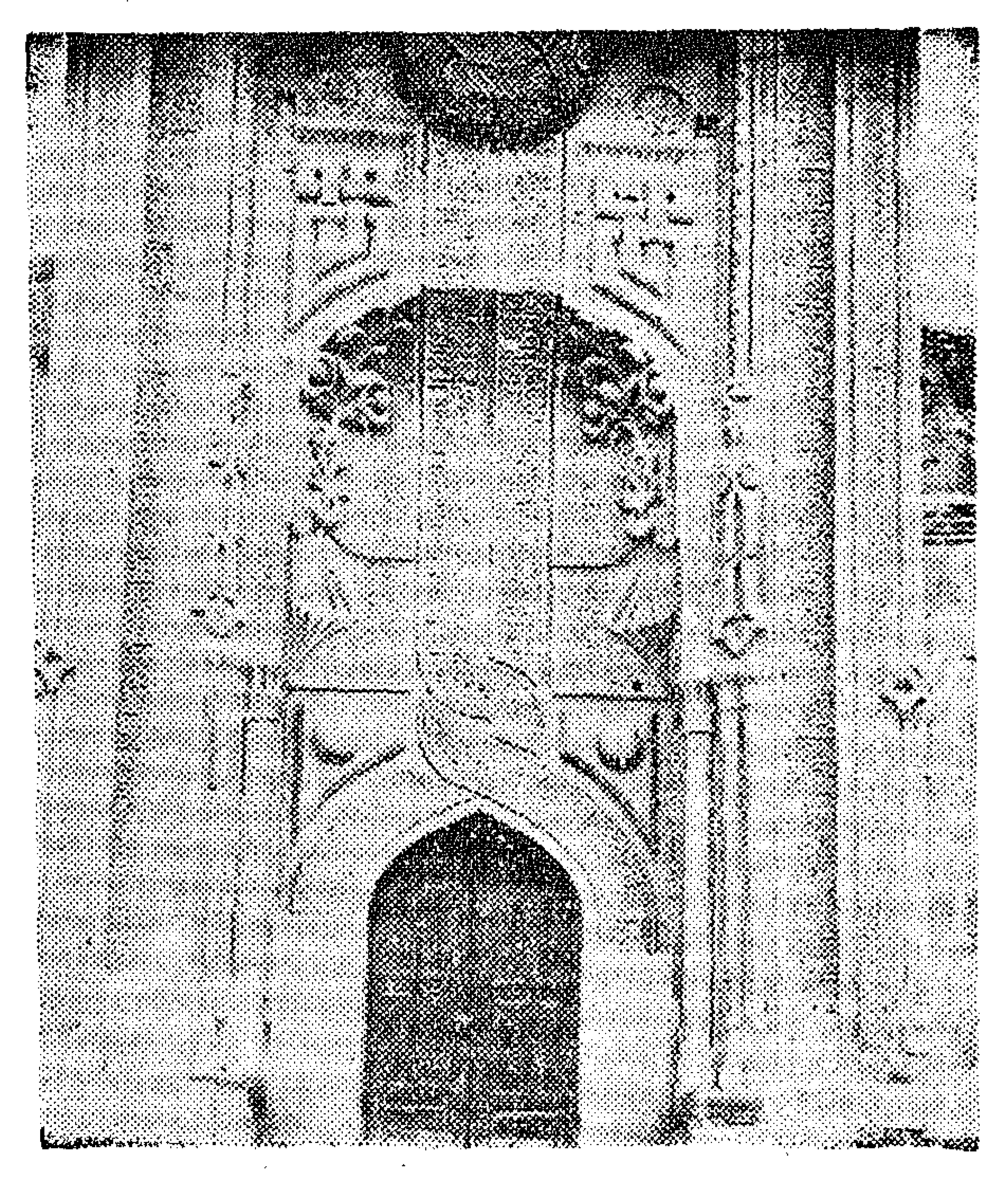
بتجميلها فأمهروها بالمساجد ، وزودوها بالمدارس والقصــور والخانات ، حتى أصبحت قونية بحق مركزا من أهم المراكز الفنية فى العالم الاسلامى .

أسست هذه المدرسة عام ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) ، كمـــا يتجلى ذلك فى النقش الكتابى المسجل على مدخلها ونصه : « ... السلطانى رسم بعمارة هذه المدرسة المباركة فى دولة السلطان الأعظم ، ظل الله فى العـــالم ، غياث الدنيا والدين ، علاء الاســلام والمسلمين أبى الفتح كيخسرو بن كيقباد ، قسيم أمير المؤمنين الفقير الى رحمة ربه بدر الدين بن مصلح أدام الله توفيقه .. وقفها على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه فى ســنة أربعين وستمائة » . وتتألف هذه المدرسة من ايوان لبيت الصلاة به محراب تحف به قاعتان لكل منهما قبـــة .

وكانت هذه المدرسة تسمى مدرســة الزجاج لكثرة زخارف الفسيفســاء بأجزائها الداخليــة . وأســلوب الزخرفة ايرانى يشــبه الزخارف التى نشاهدها بالمساجد السلجوقية فى ايران . وقد نقش الصانع الذى قام بعمل هذه الزخارف اسمه على جامة من الخزف فى عقد الايوان « محمد بن محمد ابن عثمان البناء الطوسى » . ومعنى هذا أن هجرة الأتراك العثمانيين الى آسيا الصغرى صحبها وفود بعض الفنانين الايرانيين وأجمل ما فى المدرســة مدخـــل من الرخام تحيط به زخارف هندســية محفورة آية فى الروعة . وعقد المدخـــل مدبب ، ويزدان بفصوص مثلثة الفتحات .

مسجد اينجة ومدرستها بقونية

أقام هذا الجامع بنـــاء تركى اسمه كالول بن عبد الله ، وهو البناء الذى شيد مدرســة الوزير صاحب عام ١٢٥٨ م . وتمتاز واجهة هذه المدرسة بأنها مغطاة كلها بأشرطة أربعة من الكتابة ، اثنان



باب مدرسة اينجة بقونية

منها يؤلفان عقد المدخل ويلتفان برأس العقد فى دائرة ، ثم يمتدان رأسيا حتى أعلى الواجهــة . والشريطان الآخران يحفان رأسيا بجانبى الواجهة من أســفلها الى أعلاها . وتتضمن هذه الكتـــابة آيات قرآنية أما بقية الزخرفة فقوامها توريقات من سعف النخيل .

ولم يتح لهذا الجامع أن تكمل عمارته ، فقد عجل الغزو المغولى بالقضاء على دولة الســلاجقة وهى فى أوجها ، وكانت مئــذنة الجامع رشيقة فى تكوينها ، تشق بارتفاعها السامق عنان السماء ، كما كانت تغطى بدنها الأسطوانى كسوة من الفسيفساء ولسوء الحظ هدمت هذه المئذنة على أثر زلزال حدث عام ١٩٠١ م ولم يبق منهـــا سوى قاعدتها المربعة ، وتزدان بحشوتين من التوريقات المتداخلة قوامها سعف النخيل ، ويحيط بهاتين الحشوتين شريطان يدوران حولهما ويتشابكان فيما بينهما .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم

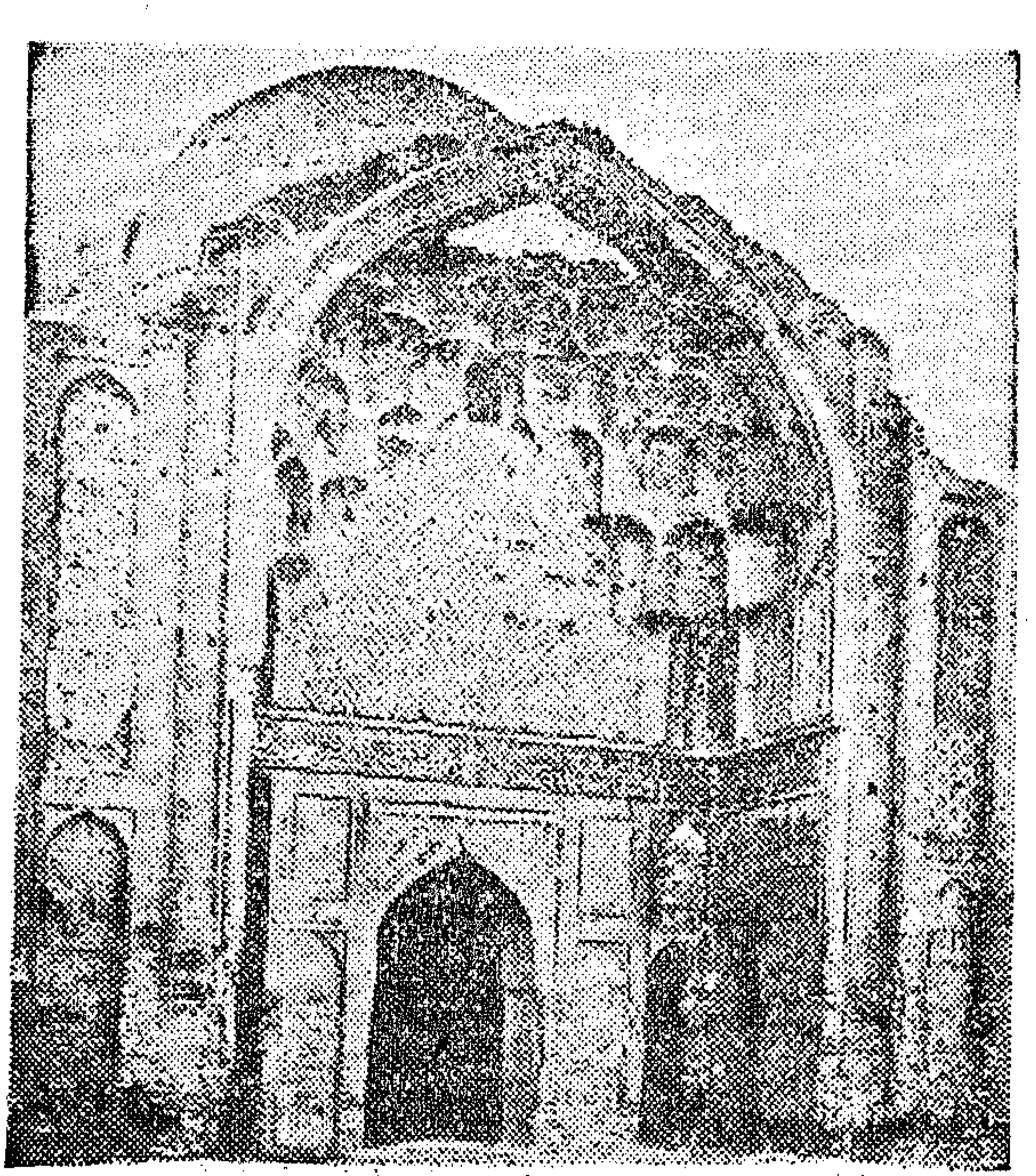
مساجد من ايران

مدرسة وجامع فرامين
من العصر السلجوقى

أقيم هذا الجامع ، وفقا للنقش التاريخى المسجل على واجهته ، عام ٧٢٣ هـ (١٣٢٢ م) . ويحتفظ بوحدة معمارية كبرى على الرغم من الحالة السيئة التى وصل الينا بها . ويمثل بعناصره المعمارية مرحلة جديدة للوصول الى نظام المساجد الايرانية البحتة . ويتألف من صحن حوله أربعة ايوانات متعامدة ، ويعلو بيت الصلاة أو الايوان الرئيسى قبة رائعة الجمال . والواجهة الرئيسية للجامع مبنية بالآجر ، ويحف بها من الجانبين طاقات طولية تقطعها أفاريز عرضية ، ويكسو الواجهة داخل عقد المدخل حشوات ملساء مغطاة بلوحات القاشانى المزينة بزخارف هندسية من نجوم وخطوط متداخلة .

ويؤدى الايوان الجنوبى المطل على الصحن الى بيت الصلاة . وواجهته جوفة مستطيلة ، تعلوها نصف قبة قائمة على مقرنصين من الآجر فى ركنى الواجهة من الداخل ، تتراكب على كل منهما أربع حطات من المقرنصات ، لتحول هذه القاعدة المربعة الى رقبة نصف مستديرة تتكىء عليها قبة الواجهة . ويحيط بالواجهة من الخارج عقد ضخم على نظام الايوانات تكسو بطنه حشوات من الفسيفساء الملونة تحتشد فيها زخارف هندسية .

وينقسم جدار الواجهة من الداخل الى مناطق رأسية وأخرى أفقية ، تتوزع فيها الزخارف فى شىء من التناسق والتآلف . ويشغل بنيقتى عقد الباب زخارف هندسية آية فى الروعة والجمال ، ويفصل هذا الباب بزخارفه ومناطقه الزخرفية عن جدار قبة الواجهة طراز من الكتابة بالخط الثلث ، تمتد داخل جوفة الواجهة ، ومحراب الجامع مغطى بالزخارف الجصية الكثيفة وضعت بطريقة تبهر الأبصار . ولتتبع سياق التوريقات وحركات سيقانها يحتاج الأمر الى بذل مجهود كبير . ومع اكتظاظ جدار القبلة بهذه الزخارف التى كان الغرض منها تجميل القبلة ، فقد ضاع معنى التناسق والتآلف بسبب الغلو فى التعقيد والاسراف فى الحشد ، بل ان هذه الزخرفة المزدحمة سيطرت على ما عداها من زخارف فتضاءلت طرة المحراب بطرازها الكتابى أمام هذه التكوينات الزخرفية التى تدل على أن نقاش هذا المحراب كان صانعا حاذقا لصناعته ، أكثر



واجهة ايوان بيت الصلاة بجامع فرامين

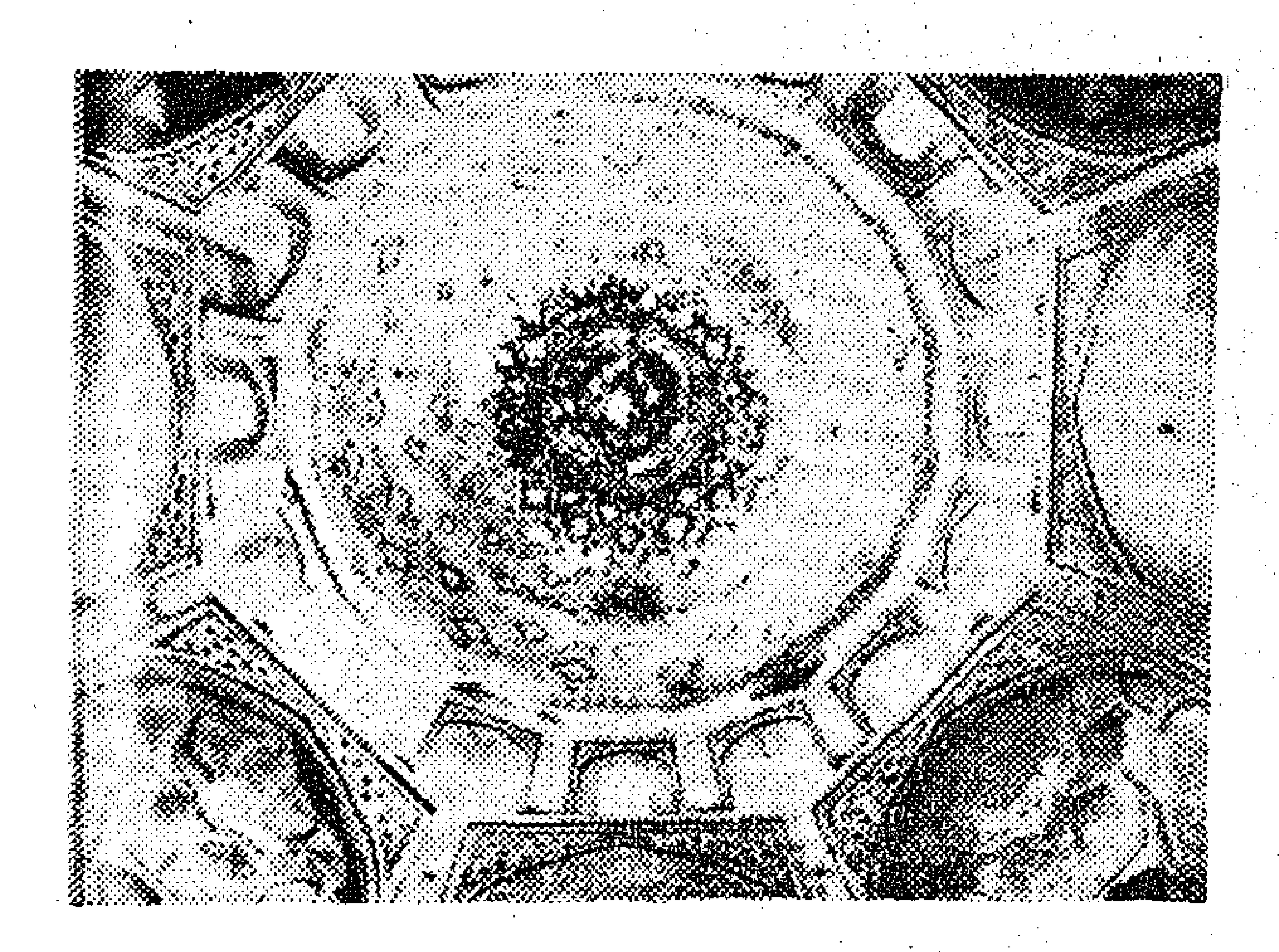
وايوان بيت الصلاة مربع ، يقوم فى كل ركن من أركانه الأربعة مقرنص من ثلاث حطات يحيط به عقد منكسر ، تزدان بنيقتاه بزخارف هندسية متداخلة ومجدولة ، ويحدد جوفات المقرنص بحطاته أشرطة بارزة . وتتوسط جوانب قاعدة القبة عقود ملساء تقتصر زخارفها على مجرد ترتيب قطع الآجر ترتيبا هندسيا . ويتحول هذا الطابق المربع الى مثمن أقيمت فى أركانه الثمانية مقرنصات غير مجوفة ، فتحت بين كل اثنين منها نافذة معقودة ثم يعلو هذا الطابق افريز بارز متعدد الضلوع يكاد يكون دائريا ، تقوم عليه خوذة القبة نصف الكرية . وتزدان هذه القبة من باطنها بالفسيفساء .

الجامع الازرق (١) بتبريز من العصر التيمورى

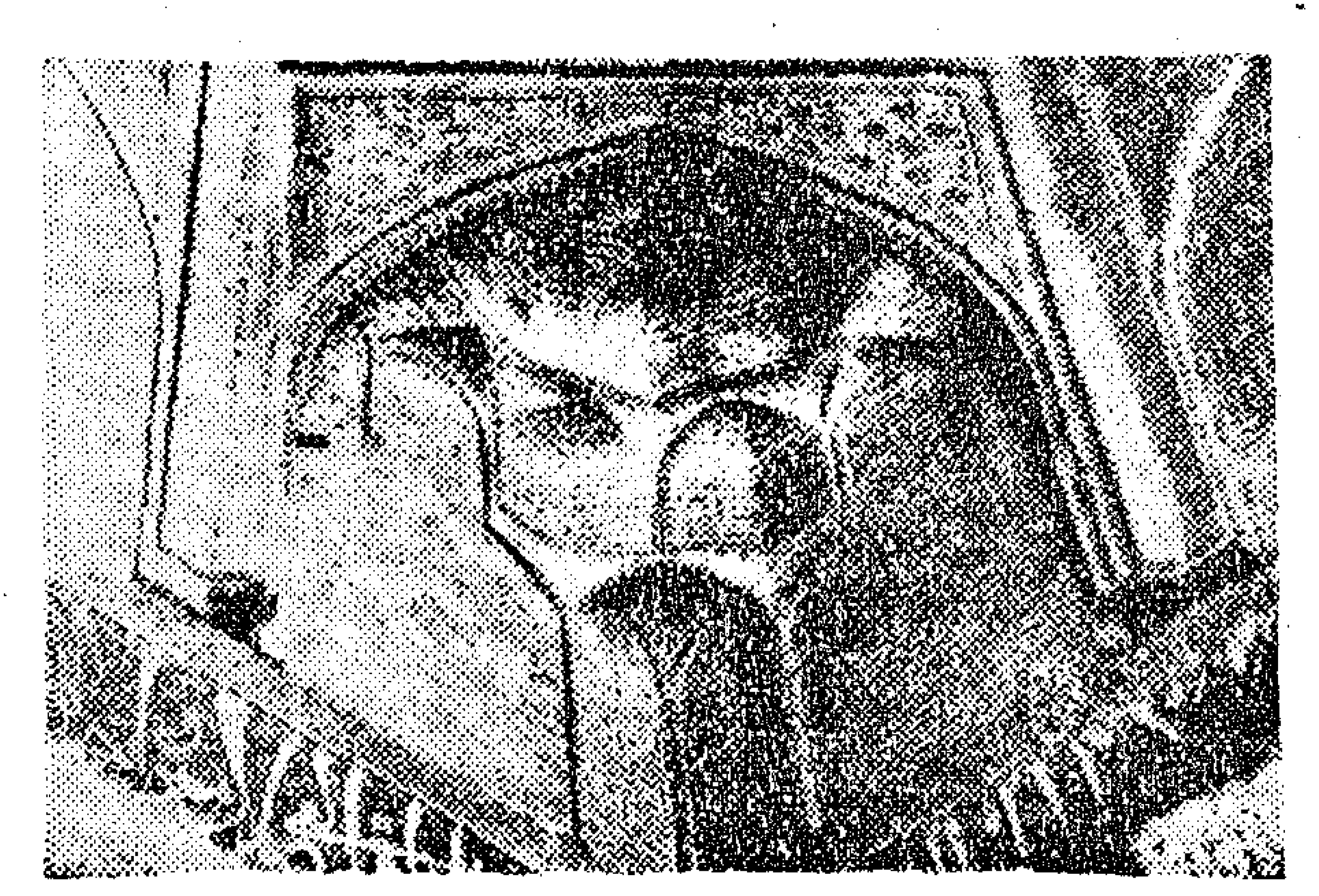
أقامت هذا الجامع الأميرة التيمورية صالحة خاتون عام ١٤٦٥ م ، وتم بناؤه على يدى البناء نعمه الله بن محمد ، وكان فنانا مشهورا باجادته لفن الخط . وبالرغم من أن أجزاء كثيرة من هذا الجامع قد تهدمت ، نتيجة لتعرضه للاهمال طوال العهود التى سيطر فيها الشيعه ، فانه يعد أجمل آثار العصر التيمورى على الاطلاق . ولا شك أن تهدم بعض أجزائه وتصدع البعض الآخر ، يعد خسارة كبرى للآثار الاسلاميه فى هذا العصر بايران .

ويشبه هذا الجامع فى تصميمه بعض الكنائس البيزنطية ، وان كان لا يزال يحتفظ بنظام المعابد الفارسية بفتحاته الاثنتى عشرة وقاعاته المحيطة بقبته . وتذكرنا القاعة الوسطى المربعة والتى تعلوها قبة ، بصحون المساجد الجامعة القديمة ،

(١) غلبت هذه التسمية على الجامع بسبب لون القاشانى الازرق الذى يغطى جدرانه .



قبة جامع فرامين



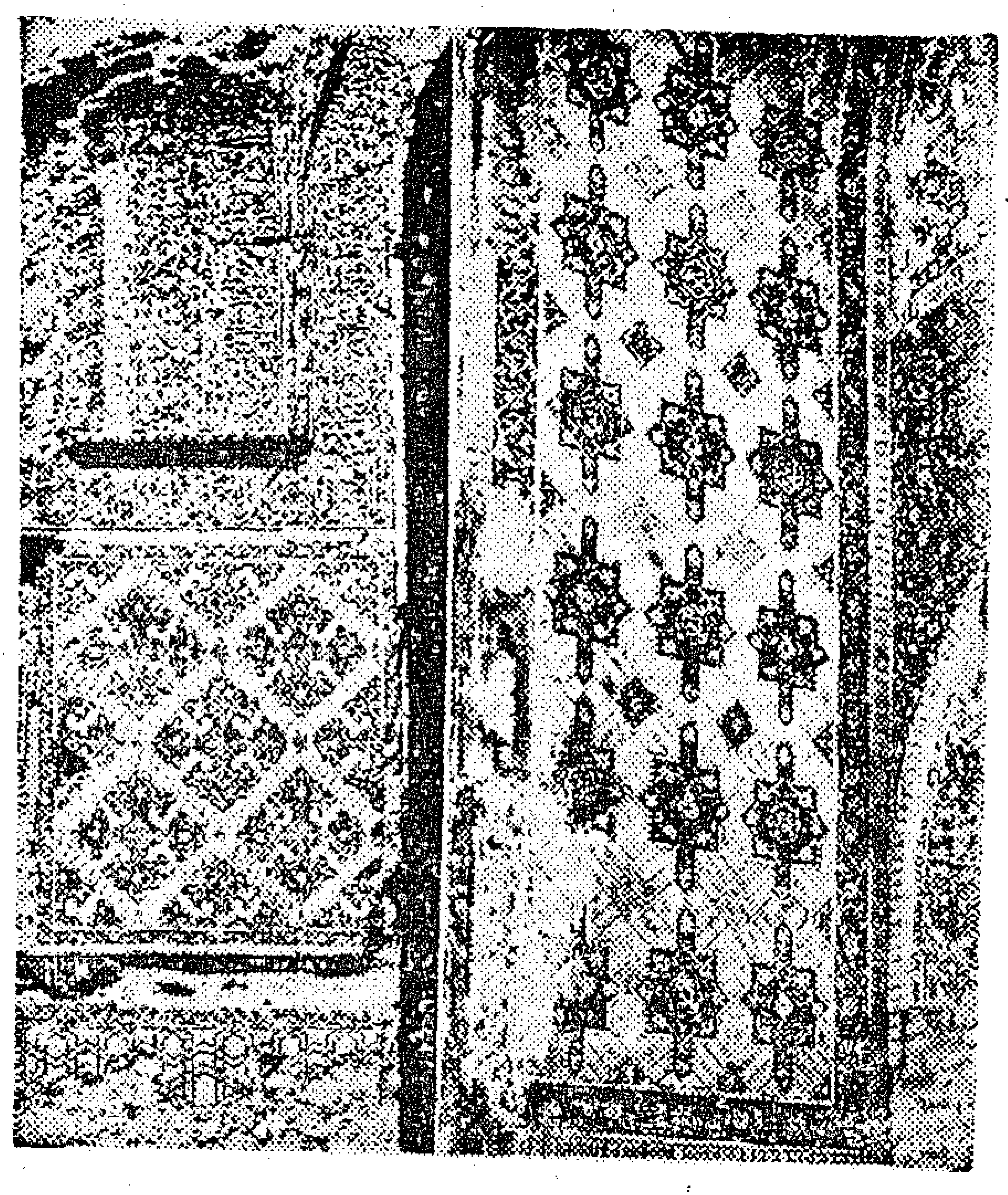
احد مقرنصات القبة بجامع فرامين

من أن يكون فنانا مبدعا وتعتبر الطرز الكتابية بالمسجد من أجل العناصر الزخرفية التى تزدان بها الواجهات . ومن بين هذه الطرز الكتابيه طراز يسجل اسم السلطان الذى أمر باقامة هذا الجامع واسم المهندس الذى أشرف على بنائه أما الطرز الأخرى المنقوشة داخل الجامع وخارجه فمعظمها يتضمن آيات قرآنية ، منها نقش كتابى على مدخل ايوان بيت الصلاة نقرأ فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ياأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

كما تذكرنا الممرات التى تقع بين أكتاف القبة الوسطى بالممرات التى كانت تطوف فيها المواكب الزرادشتية . وينتهى الجامع بقاعة مغلقة فتحت فيها جوفة المحراب . وتنتصب فى ركنى الواجهة مئذنتان على هيئة برجين صغيرين .

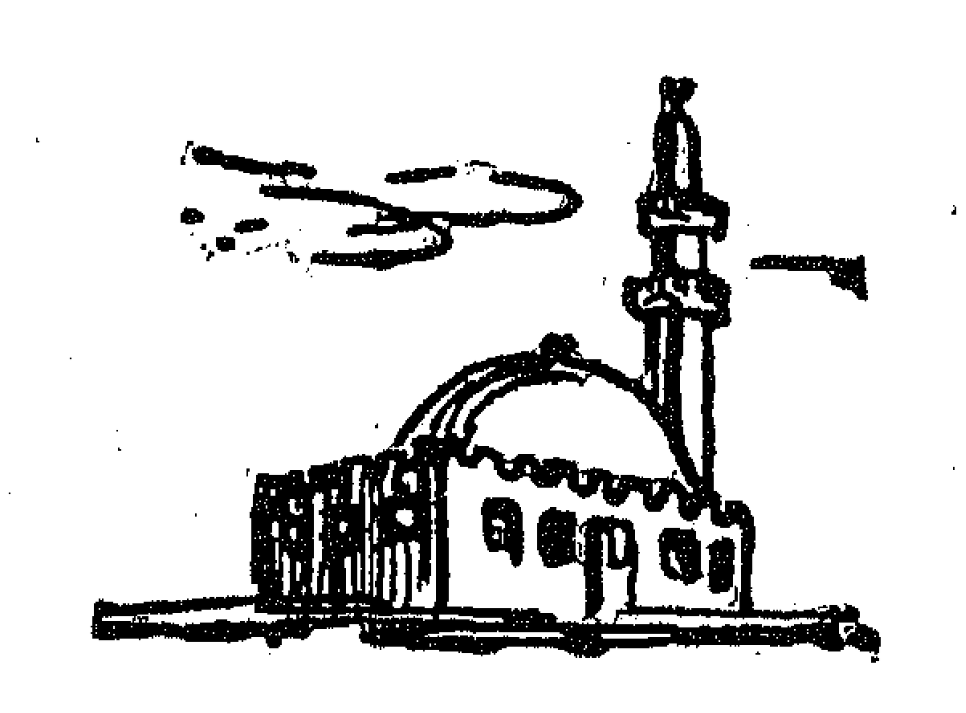
وأهم ما فى الجامع تربيعاته الخزفية المزججة ، فكل أجزائه مغطاة بأروع أمثلة للقاشانى ، أو الفسيفساء الخزفية ، الذى نميز بألوانه الزاهية كالأزرق والأخضر والأصفر ... وقد استخدم التذهيب فى بعض أجزاء الجامع . وتشف زخارف هذا المسجد بمختلف ألوانها وأناقتها وتنوع تقاسيمها وروعة ترتيبها وتنسيمها عن حقيقة بانيه ، فقد أقيم هذا الجامع من مال أميرة . ولا يمكن أن نفرق بعض التكوينات الزخرفية عن نسيج من الحرير أو ديباج موشى ، فهى تعكس مظهرا من الثراء الزخرفى والأرستقراطية . وينبغى أن نذكر فى هذا المقام أن جدران جامع تبريز كانت مغطاة



تربيعات خزفية بالجامع الازرق بتبريز

كلها بالخزف ، فقد كانت تبريز احدى المدن الايرانية التى اشتهرت بصناعة الخزف والقاشانى ولها فى هذه الصناعة تقاليد عريقة .

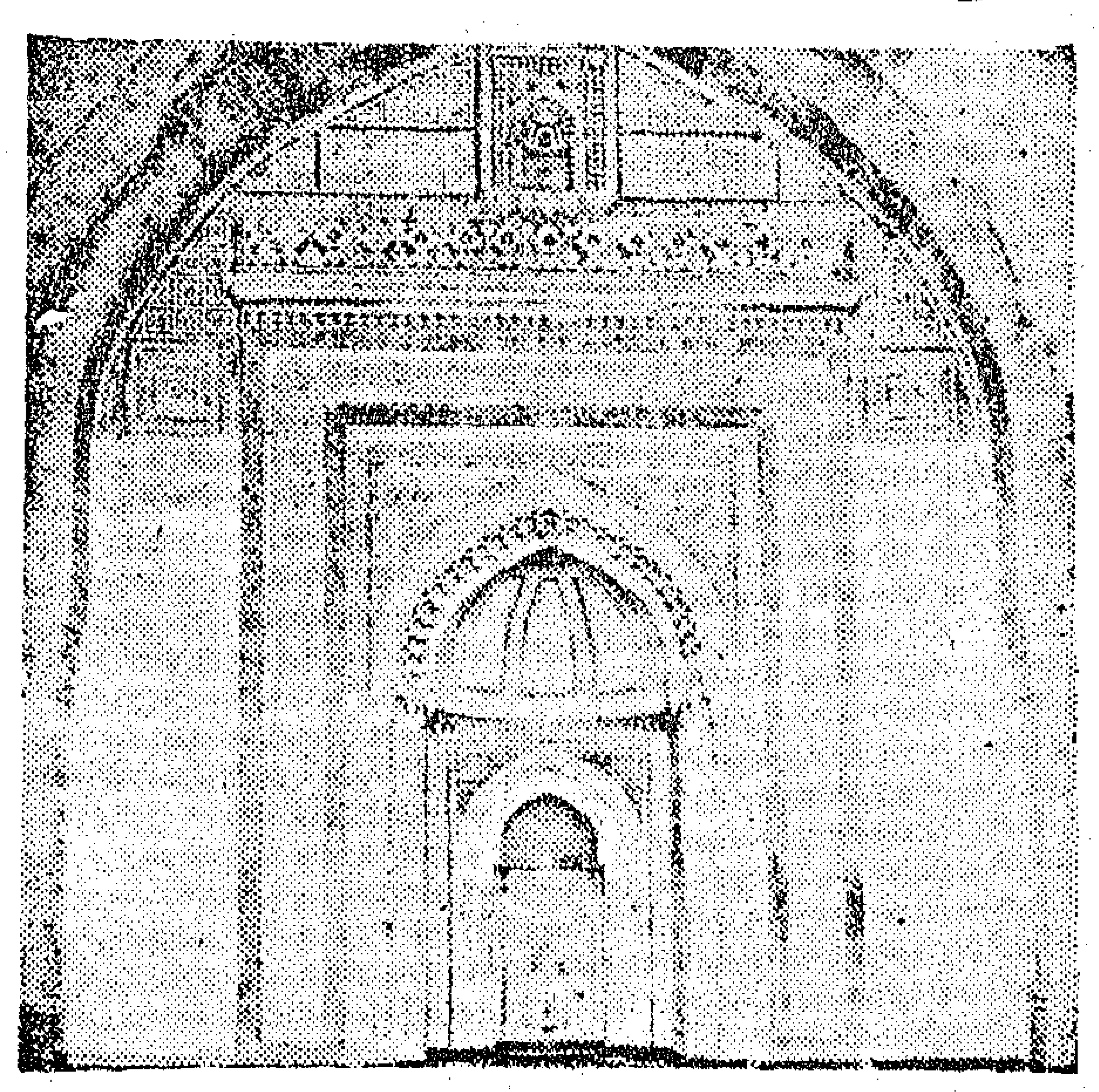
الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم



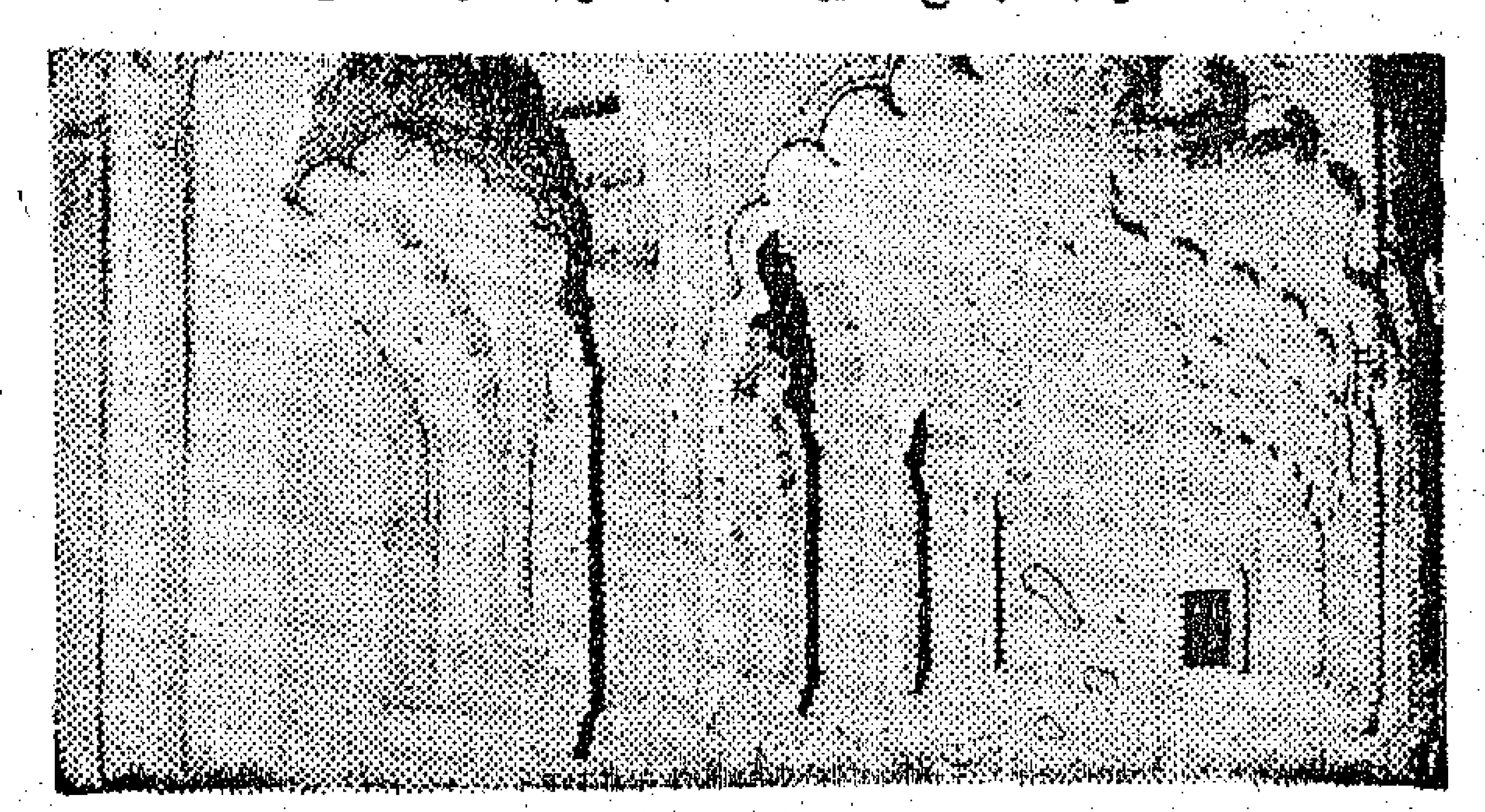
مساجد من الهند

من العصر المغولى

افتتح الامبراطور بابر حفيد تيمورلنك مدينتى دهلى وأجرا عام ١٥٢٦ م ، وقامت على يديه امبراطورية المغول فى الهند . وقد دام عهدها ما يقرب من ثلاثمائة وثلاثين عاما . وبرز من أباطرة المغول فى الهند شاه أكبر وجهانجير وشاه جهان . وقد تخلفت من هذا العصر عدة آثار هامة منها « تاج محل » الذى شيده الامبراطور شاه جهان بن



محراب جامع شير شاه بالقرب من دهلى



عقود بيت الصلاة بجامع اللؤلؤة (أجرا)

شاه أكبر بين عامى ١٦٣٠ — ١٦٤٨ م ليكون ضريحا لزوجته « ممتاز محل » ، ومنها حصن أجرا الذى أقامه شاه أكبر عام ١٥٥٥ م ، وحصن دهلى الذى شيده شاه جهان ، وغير ذلك من القصور والحصون والأضرحة . أما عن مساجد الهند فى العصر المغولى فلم يتبق لنا منها آثار كثيرة . ولقد قام شاه بابر ، مؤسس دولة المغول فى الهند ، ببناء ثلاثة مساجد خلال خمس سنوات من حكمه قضاها فى حروب مستمرة . ويبدو أن السلطان كان متأثرا بالطراز الايرانى المغولى الذى شاهده فى هراة وسمرقند ، حيث عاش سنين طويلة قبل أن يقوم بغزو الهند .

وآثار المساجد المغولية فى الهند تكشف لنا عن مدى تأثر العمارة الهندية المغولية بالتقاليد الايرانية الى جانب التقاليد الهندية المحلية . ومن أمثلة المساجد الهندية الباقية جامع شيرشاه ، أسسه الشاه همايون بن بابر عام ١٥٤٥ . وتتجلى فيه التقاليد الايرانية ، وتسود زخارفه روح من البساطة بالنسبة لزخارف المساجد الايرانية . ويقتصر ايوان الواجهة على عقد زخرفى يلتصق بالجدار . أما المحراب فجوفة داخل جوفة ثانية داخل جوفة ثالثة تعلوها نصف قبة ، ويحيط بها عقد مزين بالفصوص ... كذلك تبقى مسجد اللؤلؤة بحصن أجرا الذى أسسه شاه أكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) بالحجر الرملى الأحمر على نهر جمنة . ويمتاز هذا الجامع بعقوده المفصصة المدببة فى أعلاها .

الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم

كتاب الشعب

١ تفسير جزء عم
للأستاذ الامام محمد عبده

٢ قصة السموات والأرض
للدكتور محمد جمال الفندى
والدكتور محمد يوسف حسن

٣ قصة الجنس البشرى (١)
للدكتور هندريك فان لون

٤ قصة الجنس البشرى (٢)

٥ اعرف نفسك
للدكتور يوستاس تشسر

٦ تفسير جزء تبارك
للأستاذ الشيخ عبدالقادر المغربى

٧ الطب للشعب
لفريق من الاخصائيين العالميين

٨ جان كريستوف (١)
رومان رولان

٩ أشغال الصوف (التريكو)
للأستاذة بثينة الكفراوى

١٠ جان كريستوف (٢)

١١ على هامش التاريخ المصرى القديم
للأستاذ عبد القادر حمزة

١٢ مائدة الشعب (١)
للأستاذة بسيمة زكى ابراهيم

١٣ مائدة الشعب (٢)

١٤ المصحف المفسر (١)
للأستاذ محمد فريد وجدى

١٥ نبى البر (المختار من سيرة ابن هشام)
للأستاذ ابراهيم الابيارى

١٦ المصحف المفسر (٢)

١٧ فن الحياة
لأندريه موروا

١٨ المصحف المفسر (٣)

١٩ أساطير من الشرق
للأستاذ سليمان مظهر

٢٠ المصحف المفسر (٤)

٢١ عالمنا الذى نعيش فيه
للأستاذة فاطمة محجوب

٢٢ المصحف المفسر (٥)

٢٣ كيف نعيش اليوم
للأستاذة فاطمة محجوب

٢٤ المصحف المفسر (٦)

٢٥ صلاح الدين الأيوبى
للدكتور جمال الدين الرمادى

٢٦ المصحف المفسر (٧)

٢٧ تاريخ الجبرتى (١)

٢٨ المعجم المفهرس (١)
لألفاظ القرآن الكريم
للأستاذ الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى

٢٩ تاريخ الجبرتى (٢)

٣٠ المعجم المفهرس (٢)

٣١ تاريخ الجبرتى (٣)

٣٢ المعجم المفهرس (٣)

٣٣ تاريخ الجبرتى (٤)

٣٤ المعجم المفهرس (٤)

٣٥ تاريخ الجبرتى (٥)

٣٦ المعجم المفهرس (٥)

٣٧ تاريخ الجبرتى (٦)

٣٨ المعجم المفهرس (٦)

٣٩ صحيح البخارى (١)

٤٠ تاريخ الجبرتى (٧)

٤١ المعجم المفهرس (٧)

٤٢ صحيح البخارى (٢)

٤٣ دائرة معارف الشعب (١)

٤٤ تاريخ الجبرتى (٨)

٤٥ صحيح البخارى (٣)

٤٦ دائرة معارف الشعب (٢)

٤٧ تاريخ الجبرتى (٩)

٤٨ صحيح البخارى (٤)

٤٩ دائرة معارف الشعب (٣)

٥٠ أساطير من الغرب
للأستاذ سليمان مظهر

٥١ صحيح البخارى (٥)

٥٢ دائرة معارف الشعب (٤)

٥٣ خامس الراشدين (١)
عمر بن عبد العزيز
للأستاذ أحمد الشرباصى

٥٤ صحيح البخارى (٦)

٥٥ دائرة معارف الشعب (٥)

٥٦ خامس الراشدين (٢)

٥٧ صحيح البخارى (٧)

٥٨ دائرة معارف الشعب (٦)

٥٩ فن التفصيل والحياكة (١)
للأستاذة بثينة الكفراوى

٦٠ صحيح البخارى (٨)

٦١ دائرة معارف الشعب (٧)

٦٢ فن التفصيل والحياكة (٢)

٦٣ صحيح البخارى (٩)

٦٤ دائرة معارف الشعب (٨)

٦٥ هذا هو الاسلام
للدكتور محمد غلاب

٦٦ صحيح البخارى (١٠)

٦٧ دائرة معارف الشعب (٩)

٦٨ هوايات مربحة
للأستاذ محمد احمد حسن

٦٩ صحيح البخارى (١١)

٧٠ دائرة معارف الشعب (١٠)

٧١ تقويم الشعب
للأستاذ أحمد [illegible]

٧٢ صحيح البـ[illegible]

٧٣ دائرة معارف [illegible]

٧٤ صحيح البـ[illegible]

٧٥ مساجد ومعاهـ[illegible]

٧٦ دائرة معارف الـ[illegible]

٧٧ صحيح البخارى

الثمن ٢٥ قرشا

Bibliotheca Alexandrina
0399169